

د. عبد الوهاب المسيري

الحمائم والصقور والنعام

دراسة في الإدراك والتحليل السياسي



دار الجسام

د. عبدالوهاب محمد المسيرى

الجمائم والصقور والنعام

دراسة فى الإدراك الغربى والصهيونى

الحمام والصقور والنعام

دراسة في الإدراك الغريزي والصهيوني

المؤلف: د. عبدالوهاب محمد المسيري

الخلاف: عمر الفيومي

الناشر: بازار الحسام

ص. ب. / ٥١ الغوريه

القاهرة ت/ ٥١١٥٧٦٢

رقم الإيداع: ٩٥/١١٥٣٣

الترقيم الدولي: 977 - 5659 - 06

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٦م

في الإدراك والسلوك والتبعية الإدراكية

من أعقد القضايا التي يواجهها المحللون السياسيون قضية علاقة إدراك الإنسان للواقع المحيط به وسلوكه ومدى تأثير الإدراك (والوعي والأفكار والرموز) في السلوك الإنساني . وهي قضية لا تختلف كثيراً عن مشكلة الذاتية والموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية بل والطبيعية . وهذا الكتاب يحاول أن يلقي بعض الضوء على هذه القضية : هذا هو هدفه، وهذا ما يرمي إلى تحقيقه . وعلى الرغم من أن كل الفصول تلود حول الصراع العربي الإسرائيلي (وموضوعات أخرى على علاقة به)، إلا أن هذه مجرد دراسات لحالات، إذ يظل الموضوع الأساسي هو قضية الإدراك، وما الحالات التي أتينا بها سوى محاولات مختلفة لتوضيح بعض أبعاد هذه القضية الكلية والمجردة من خلال أمثلة متميزة .

١ - الإدراك والسلوك

لا يدرك الإنسان واقعه بشكل حسيّ مادي مباشر، إلا في حالات نادرة، تسم بالبساطة، كأن تلسع يده سيجارة أو يدخل في عينه جسم صلب . فالإنسان ليس مجموعة من الخلايا والأعصاب والرغبات والدوافع المادية (الاقتصادية أو الجنسية) التي يمكن أن يُرد لها في كليته (كما يزعم الماديون)، وسلوكه ليس مجرد أفعال وردود أفعال مشروطة، تتحكم فيها قوانين الميكانيكا أو البيولوجيا (كما يرى بعض السلوكيين) . فعقله ليس مجرد مخ مادي : صفحة بيضاء تراكم عليها المعطيات المادية، وإنما هو عقل مبدع، له مقبلة توليدية، وهو مستقر كثير من الخبرات والمنظومات الأخلاقية والرمزية، ومستودع كثير من الذكريات والصور المخزونة في الوعي واللاوعي .

ولذا حينما يسلك الإنسان فإنه لا يسلك كرد فعل للواقع المادي بشكل مباشر، وإنما كرد فعل للواقع كما يدركه هو بكل تركيبته، ومن خلال عقله المبدع

الذي يتفاعل ويُقسم، ومن خلال ما يسقطه على الواقع من أقراخ وأترارح، وأشواق ومعاني، أو رموز وذكريات، ومن خلال المنظومات الأخلاقية والرمزية التي تُعده له مجال الرؤية، قُبِيتي وتُسَبِّد وتؤكد وتُهْمِس . كل هذه العمليات المركبة هي التي تمنح الإنسان ذاتية وخصوصيته، وتمنح كل فرد فرادته، حتى يصبح من الصعب التنبؤ بسلوكه من خلال القوانين المادية والطبيعية العامة .

ويسبب تركيبة الإنسان هذه، ونظراً لأنه لا يستجيب للواقع المادي مباشرة وإنما يستجيب له من خلال إدراكه نرى أنه لا يمكن لأي دارس أن يحيط بأبعاد أي ظاهرة إنسانية (سياسية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية) إلا بالخصوص في أكثر مستويات التحليل عمقاً، أي النماذج المعرفية أو الإدراكية الكامنة، التي تترجم نفسها إلى خرافات معرفية ومقولات إدراكية يُنظم بها الإنسان واقعه ويُصنّفه، وإلى صور إدراكية يُدرك من خلالها نفسه وواقعه ومن حوله من بشر ومجتمعات وأشياء ونحن نضع النموذج المعرفي (والخريطة المعرفية والصورة الإدراكية) في مقابل الواقع المادي في ذاته - أي الواقع الختام الموجود خارج حواس الإنسان والذي يتشكل بإدراكه . وأزعم أن الخرافات والنماذج المعرفية والصور الإدراكية التي يحملها الإنسان في عقله ووجدانه تُحدد ما يمكنه أن يراه في هذا الواقع الختام، فهي تستبعد وتُهْمِس بعض التفاصيل فلا يراها، وتؤكد البعض الآخر بحيث يراها هامة ومركزية . ولعل أكثر الأمثلة دوامية على ما نقول هو الطريقة التي تتعامل بها كل حضارة مع الألوان . فهناك حضارات لا يوجد في نموذجها المعرفي وخريطتها الإدراكية سوى لونين (أبيض وأسود)، وحضارات أخرى لا يوجد فيها سوى أربعة ألوان، وهناك الحضارات الأكثر تركيبياً التي يضم نموذجها ألوان الطيف الأساسية وبعض التنويعات الأخرى عليها . ويُقال أن أعضاء الحضارات التي لا يضم نموذجها المعرفي وخريطتها الإدراكية سوى أربعة ألوان وحسب لا يرى أبنائها سوى أربعة ألوان . وقد يبدو هذا أمراً متطرفاً، ولكن حاول أن تنظر إلى صورة زينة ملونة بصحبة ناقد محتك وستجد أنه سيكتشف من التنويعات اللونية ما لم يظن أن على بال لأن نموذجك المعرفي وخريطتك الإدراكية قد حددا إدراكك، وهي خريطة قام الناقد بإضافة مقولات جديدة لها فأدركت من التنويعات اللونية ما

لم تدرك من قبل . ونحن هنا لا نتحدث عن «عصى الألوان» (وهو عيب فسيولوجي قد يُصاب به الإنسان) وإنما نتحدث عن حدود إدراكية ناجمة عن حدود النموذج المعرفي ذاته والخريطة الإدراكية ذاتها . فالإدراك يتم من خلال الأداة، أي النموذج، ويتحدد الإدراك بمقدار مدى ضيق النموذج أو اتساعه .

هذا لا يعني أن الواقع المادي الخام غير موجود بدون الإدراك الإنساني له، فهو ولا شك هناك في ماديته وطبيعته وموضوعيته ولاشخصيته وعموميته، خلقه الله خارج وعينا وإدراكنا وإرادتنا، وهو ولا شك له أثره في تحديد بعض جوانب فكر البشر وسلوكهم بدرجة متفاوتة في مقدار عمقها من إنسان لآخر ومن لحظة زمنية لأخرى . ولهذا يمكن تفسير بعض جوانب وجود الإنسان وسلوكه باستخدام المنهج المادي والنماذج المستمدة من عالم الطبيعة (والتي تُستخدم عادةً في تفسير الظواهر الطبيعية) . ولكن يظل هناك في الإنسان ما يستعصي على التفسير من خلال هذا المنهج ومن خلال تلك النماذج .

لكل هذا حينما ندرس الظواهر الإنسانية لا بد من استعادة لا الفاعل الاقتصادي أو الاجتماعي أو الجسماني أو الطبيعي وحسب، أي الفاعل الإنساني في علاقته المادية المباشرة مع واقعه المادي، ومع اللابسات المادية (الاجتماعية أو الاقتصادية . . . إلخ) المحيطة به، وإنما يجب استعادة الفاعل الإنساني، الإنسان، أي الإنسان في كل تركيبته وأسراره وفاعليته وإبداعه التي تجعله يتجاوز بيئته المادية الطبيعية المباشرة وتُجمل من العسر رده في كليته إليها . ولذا لا بد وأن نؤكد أنه لا يمكن دراسة ظاهرة الإنسان والظواهر الإنسانية مثلما نرصده الظواهر الطبيعية، ولا يمكن أن نسجل سلوك الإنسان كفرد أو كجماعة كما نسجل سلوك النملة وجماعات النمل . فمثل هذه الرؤية (بغض النظر عن لا إنسانيتها المقيتة) هي رؤية غير دقيقة لأن الدوافع (خيرة كانت أم شريرة)، وأشكال الوعي (مهما كان ريفها وانفصالها عن الواقع المادي)، والمعنى، أي الدلالة الداخلية التي يراها الإنسان فيما يقع له من أحداث وفيما يحيط به من ظواهر (مهما كانت سطحيته أو عمقه) تشكل جزءاً أساسياً من الواقع الإنساني .

وهذه القاعدة لا يمكن لأي إنسان تجاوزها، والصهاينة لا يشكلون أي استثناء لها . ولنا حينما ندرس سلوكهم لابد وأن نذكر أنفسنا أن ما يحدد سلوكهم ليس الاستجابة المباشرة للعناصر والملايسات المادية المختلفة المحيطة بهم، وإنما إدراكهم لها . أنظر مثلاً لاستجابة هذين المعلمين الإسرائيليين لحقيقة «مادية موضوعية» مثل ظهور جبل جديد في فلسطين المحتلة وكُند وترى تحت حكم الاحتلال الإسرائيلي ذهب المعلق الأول، وهو الجنرال بن إليعازر، إلى أن ظهور هذا الجبل يعني في واقع الأمر ظهور جبل برجمانى من قادر على التكيف، لا يكتسرت بالسياسة، مما يجعل من السهل القضاء على أي تمرد له طابع سياسي . بينما يرى الثاني، وهو بحزقيل درور، أن ظهور مثل هذا الجبل الجديد يعني في واقع الأمر ظهور جبل غير خائف من الإسرائيليين، وأن هذا هو الذي أدى إلى اندلاع الانتفاضة . وهكذا نجد أن نفس العنصر المادي قُسر تفسيرين متضادين تماماً . والتضاد مصلوه نموذجين معرفيين ورؤيتين مختلفتين للإنسان، واحدة ترى أن الإنسان ينسى تاريخه وتراثه وذاته بمرور الزمن، فهو مادة محضة تعكس الواقع المادي المتغير وقوانين الحركة الأرضية، والآخرى ترى أن الإنسان لا ينسى تاريخه بسهولة، وأن تزايد الظلم قد يؤدي إلى تصعيد الثورة . ومما لاشك فيه أن رؤية كل واحد منهما ستحدد طريقة استجابته لما حوله وسلوكه تجاهها .

وأرجو ألا يفهم عما أقول أنني أذهب إلى أن إدراك الإنسان يتحكم في سلوكه، فمثل هذا التصور يسقط في نفس الواحدة والاختزالية التي يسقط فيها النموذج السلوكي المادي الذي ينكر أهمية الإدراك تماماً . فالأول ينكر أهمية الواقع المادي والثاني ينكر أهمية الإدراك الإنساني . ما نطرحه نحن هو أمر متقاير تماماً، فنحن نذهب إلى أن سلوك الإنسان مركب للغاية تحده عدة عناصر متداخلة من بينها إدراك الإنسان لواقعه . وأن الإدراك الإنساني لا يؤدي إلى سلوك يمينه، وإنما يخلق تربة خصبة تزيد من احتمالات أن يسلك الإنسان سلوكاً بعينه دون غيره . فالملاقة بين السلوك والإدراك - في تصورنا - علاقة احتمالية . وحتى إن وقع الإنسان أسير رؤيته وإدراكه وذاتيته بحيث أصبحت تتحكم فيه تماماً وتسيطر فإنه

يمكن الحوار معه وتنبهه لبعض جوانب الواقع التي يتجاهلها . وأنا كمسلم أؤمن أن الله سبحانه وتعالى قد منح كل البشر قدراً من الرشد، وأن الإنسان بما حباه الله من عقل قادر على أن يتجاوز إدراكه الضيق ليصل إلى إدراك أكثر رحابة وإنسانية . أما إذا كان الإنسان قاشياً عنصرياً، محكاً بمدفع رشاش، ويصر على أن يملك في حدود رؤيته وإدراكه فيطش بالآخرين ويدوس عليهم، فإن ما نسميه «الحوار المسلح» هو السبيل الوحيد .

ولكن الخطاب السياسي العربي في تحليله للصهاينة (وللحضارة الغربية، بل وللغات العربية) أسقط الإدراك من حسابه وبالتالي أسقط التحصيرية فقط في التعميم . ولا يعلو رصدنا للعنوا أن يكون حديثاً عاماً عن قوة العدو العسكرية والاقتصادية وقوته ومخططاته وربما عنصريته، ولنا نحمد أن كثيراً من الدراسات تقوم بتوثيق ما نعرف مسبقاً، دون أي تعميق لرؤيتنا أو إضافة لإدراكنا .

وقد أدّى هذا إلى تطبيع النظام السياسي الإسرائيلي، أي محاولة دراسته باعتباره كياناً سياسياً طبعياً عادياً بحيث تُستخدم نفس المفولات التحليلية العامة التي تُستخدم في دراسة النظام السياسي الأمريكي وكان الكيان السياسي الإسرائيلي لا يختلف في أساسياته عن أي كيان سياسي آخر . فيتم الحديث عن نظام الحزبين في الديمقراطية الإسرائيلية، وعن أن كلا من إنجلترا وإسرائيل لا يوجد فيهما دستور، وأن النظام السياسي الإسرائيلي يتبع النمط الالجلو أمريكي (الثاني) لا النمط الأوربي الأكثر تعددية .

وعلماء السياسة العرب الذين يتبنون مثل هذه الرؤيا يُخطئون مرتين : من الناحية المعرفية ومن الناحية الأخلاقية . فمن الناحية المعرفية يمكن القول أن وصفهم للظاهرة الصهيونية ليس له مقدرة تفسيرية عالية، فهو لا يمكنه أن يفسّر ظاهرة مثل المنظمة الصهيونية أو دور الوكالة اليهودية التي تساعد سكان الدولة الصهيونية من اليهود وحسب، وتستبعد العرب، فهذه المؤسسة ليس لها نظير في أية «ديمقراطية» أخرى . كما لا يمكنه تفسير قانون العودة ولا ضخامة الدعم المادي والمعنوي الذي يقدمه العالم الغربي للجيب الصهيوني . كما أنهم يُخطئون من

الناحية النضالية والاخلاقية إذ أنه كيف يمكن الحديث عن ديموقراطية تستند إلى حادثة اغتصاب للأرض وذبح لبعض سكانها وطرد للبعض الآخر واستبعاد لمن تبقى من العملية السياسية ذاتها؟ والفشل الإدراكي المعرفي التفسيري هنا هو ذاته الفشل النضالي الاخلاقي، إذ أن التطبيع يخفي عن الأنظار (وعن الضمير) الظروف الخاصة بالكيان الصهيوني ككيان استيطاني إحلالي، وحقيقة أن استيطانية الكيان الصهيوني وإحلاليته واعتماده الكامل على الدعم الغربي هو القانون الأساسي الذي يحكم ديناميته ومساره في الماضي والحاضر. فهذه الاستيطانية الإحلالية هي التي تُفسّر عدم وجود دستور حتى الآن في إسرائيل، وتُفسّر أهمية قانون العودة ومركزيته. وهذه الاستيطانية الإحلالية هي التي تجعلنا نكتشف أن الأحزاب الإسرائيلية ليست أساساً أحزاباً وإنما مؤسسات استيطانية استيعابية تضطلع بوظائف لا تضطلع بها الأحزاب السياسية في الدول الأخرى ويتم تمويلها عن طريق المنظمة الصهيونية العالمية. وهذه الاستيطانية الإحلالية (ودور إسرائيل الوظيفي) هي التي تُفسّر ضخامة الدعم الإمبريالي لإسرائيل.

وإدراك الإسرائيليون للطبيعة الاستيطانية الإحلالية لدولتهم ولاعتمادها الكامل على الولايات المتحدة ولأسباب وجودهم وسر استمرارهم هو الذي يُحدد سلوكهم وحربهم وسلمهم، وما ينكروونه علينا وما قد يُقررون منحه إيانا. وإسقاط هذه الأبعاد الخاصة يجعل من عملية التطبيع المعرفية المنهجية عملية تسويق وتبرير غير واعية للوجود الصهيوني وإضفاء درجة من الشرعية عليه.

٢ - الإدراك والتبعية للحضارة الغربية

ولا بد وأن تثير هنا قضية أخرى مرتبطة تمام الارتباط بسابقتها وهي ما سماه أحد علماء الاجتماع الغربيين «إمبريالية المفولات» - أي أن تقوم إحدى القوى بتحديد النماذج المعرفية والمفولات التحليلية الأساسية بطريقة تعكس إدراكها للواقع وتخدم مصالحها وتعتمد إدراك الآخرين وتهمل مصالحهم. ويبدو أننا نخضع تماماً لإمبريالية المفولات الغربية وأنها مقطننا بشكل شبه كامل في التبعية الإدراكية. فقد استوردنا لمادجتنا المعرفية ومفولاتنا التحليلية فيما نستورد من أشياء من الغرب.

ولذا فنحن حينما نتحدث عن الحضارة الغربية وحينما نتحاور بشأنها ونستخذ مواقف معها أو ضدها تتضح تبعيتنا الإدراكية، إذ أننا عادةً ما نفعل ذلك بناءً على المعطيات التي تسمح لنا هذه الحضارة بالاطلاع عليها ودخول أطر جاهزة ونماذج معرفية مسبقة أعدها مفكرون غربيون ونطرح نفس الأسئلة التي يطرحونها هم عن حضارتهم ومن منظورهم، أي أننا ندرك الحضارة الغربية لا بشكل مباشر وإنما كما يشاء أصحابها لنا أن ندركها . بل إننا بلدنا ننظر إلى أنفسنا من خلال مقولات الغرب التحليلية ونماذج الإدراكية . ولذا بدأ الإنسان العربي يرى نفسه متخلفاً مهماً بل من جهد ومهما أنتج من روائع، وبدأ يحكم على نفسه بالهزيمة في المعركة قبل دخولها . والتبعية الإدراكية ليست تبعية اقتصادية وحسب (وإن كانت تترجم نفسها إلى ذلك)، وإنما هي تبعية عميقة كامنة تنصرف إلى أسلوب الحياة (كما في ذلك النشاط الاقتصادي) وإلى رؤية الذات ورؤية الآخر .

ولنبداً برؤية الآخر، ولأضرب مثلاً على ما أقول من الثورة الفرنسية التي يعرف معظمنا أحداثها ابتداءً من اجتماع ملعب التنس وانتهاءً بحروب الثورة الفرنسية وظهور نابليون . نحن نعرف كل هذه الأحداث تمام المعرفة . ولكن ماذا عن فندي Venetec ؟ بل ما هي فندي هذه؟ يجب عليّ أن أتملى بشيء من الشجاعة وأعترف أنني لم أكن قد سمعت عنها قط من قبل إلى أن قامت معركة في فرنسا بين بعض مؤرخي الثورة الفرنسية فيها، فعرفت أنها ثورة اتلعت في غرب فرنسا (١٧٩٢ - ١٧٩٣) (أشار لها أحد المراجع بأنها «ثورة مضادة») وقضت عليها قوات الثورة بوحشية بالغة حتى أن المؤرخ الفرنسي بيير شونو (الاستاذ في السوربون) قال : " إن قوات الثورة الفرنسية لم تكن تحاول إخماد التمرد وحسب، وإنما قامت بعملية إبادة (هولوكوست) كانت في فظاعة الإبادة النازية وأكثر فاعلية منه " . وقد قال ومترمان، جنرال الثورة الفرنسية الذي أعدم التمرد : " لقد دس على الأطفال بسنابل خيالي وذهبت النساء حتى لا يلدن أي متمرد بعد ذلك " . ويجب أن نذكر أن هذه هي كلمات تمثل ثورة الحرية والإخاء والمساواة (التي أرسلت بقواتها الاستعمارية إلى مصر والشرق) .

وقد يقول البعض ان كل هذا في سبيل «التضخم»، ولكن يذهب بعض المؤرخين الآن إلى أن الثورة الفرنسية أبطأت عملية تحديث فرنسا التي كانت قد بدأت تحت حكم الملكية المطلقة، ومن ثم أعطت إنجلترا الفرصة لتصبح القوة الصناعية الكبرى في القرن التاسع عشر. وأهتف أنني لا يمكنني إلا أن أجد برأي هذا الفريق أو ذاك، وبالذات بخصوص ثاندي التي لا أعرف عنها شيئاً، أو بخصوص تطور أوروبا الاقتصادي، فالذي أعرفه عن هذا الموضوع هو أحداث بعضها تعبر عن رؤية محددة للثورة الفرنسية، تتناولها المراجع العربية، والمراجع العربية التي تنقل عنها. أما تلك الأحداث التي قد تتحدى هذه الرؤية فيتم استبعادها تماماً أو يتم تهميشها

كما أننا حينما نطرح أسئلة بخصوص أي ظاهرة نحس لا نطرحها من وجهة نظراً وإنما نسأل دائماً وراء تلك الأسئلة التي يطرحها العرب، وهي أسئلة تعبر عن رؤيته ومصلحه. ولناحد على سبيل المثال قضية الأسرة، وهي قضية أصبحت لا تعني الإنسان العربي كثيراً بعد تصاعد معدلات التحديث والعلمنة وتآكل نظام الزواج والأسرة وقبوله التام لهذه الحقيقة كنتيجة حتمية «للتقدم». ولهذا لا نسأل كتب التاريخ العربية عن عدد الأطفال غير الشرعيين بعد الثورة الفرنسية، وعما حدث لنسبة الطلاق؟ هل ارتفعت أم انخفضت أم ظلت على ما هي عليه؟ ولكن ليس من الواجب علينا، ونحن على عتبات هذا المستقبل العقلاني المادي الحديث، الذي يُشعر بعض كبار مفكرينا، أن نسأل مثل هذه الأسئلة حتى نعرف بطريقة «علمية» شاملة ومركبة أحداث الثورة لا كمجرد وقائع وإحصائيات «برانية» وإنما كمحتائق «جوانية» تركت أثراً عميقاً على الإنسان الفرنسي؟ وقد فتشت عن الإجابة وعرفت أنه بعد اندلاع الثورة بثلاثة أعوام ردت حالات الطلاق زيادة ملحوظة، كما أن عدد الأطفال غير الشرعيين زاد زيادة هائلة

وقد دبت على إثارة الشكوك بخصوص قضية «إعلان حقوق الإنسان»، لا لأنني معاد لهذه الحقوق أو رافض لها، وإنما لأنني أدرك أنها قاصرة إلى حد ما، لأن هذا الإعلان قد جعل الفرد المعزل البسيط (الإنسان الطبيعي البورجوازي) هو نقطة البدء والانطلاق. واقترح بدلاً من ذلك «إعلان حقوق الأسرة» كوحدة

اجتماعية أساسية مركبة . ولعل الحقائق الخاصة بالأطفال غير الشرعيين بعد الثورة العربية (وفي أوروبا منذ ذلك التاريخ، وفي كل العالم عما قريب) قد تغطي شيئاً من الترجيح للمفهوم الذي طرحه، لأنه من الواضح أن حقوق الإنسان لا تتضمن الأطفال الذين لم يولدوا بعداً والأطفال غير الشرعيين هم نتاج ذكر وأنثى استمتعوا بـ «حقوق الإنسان» وحرياته (كما حدثها العرب) في لحظات لم يمحروا أثناءها من حقوق الأطفال . ولا يمكن أن نصور إعلان حقوق الإنسان ثم نحاول الآن إصدار إعلان تكميلي بحقوق المرأة ثم إعلاناً ثالثاً لحقوق الأطفال وهكذا، فهذه العملية غير عقلانية بالمرّة لأنها أهملت في البداية الوحدة التحليلية والاجتماعية الحقيقية الواحدة، وهي الإنسان ككائن اجتماعي ينتمي إلى أسرة ومجتمع، وأحلت محله الإنسان ككثرة متعزلة، كائن مكعب بلباته (وكانه وحش العابة) لا وجود له إلا في ذهن روسو وهولباخ وفولتير وغيرهم من مفكري عصر العقل والاستنارة البيوجولاري .

وتظهر التبعة الإدراكية بدرجة فكلية في تحديد مؤشرات التقدم والتخلف . فعلى سبيل المثال، حتى بداية السبعينيات (قبل «اندلاع» ثورة البيئة) كان استخدام الميادات والاسمدة الصناعية يعدّ من مؤشرات التقدم . وقد قبلتها ساعتهنا وكنا نحاسب أنفسنا على هذا الأساس، إلى أن اكتشف العرب أن هذا التقدم يؤدي إلى السرطان وتدمير التربة، فأصبح استخدام الميادات والاسمدة الصناعية من مؤشرات التخلف . وقد أصبح استخدام التليفونات والسيارات ودرجة التنقل من مؤشرات التقدم (دون حساب تكلفتها كما حدث مع الميادات) . وقد ضرب الامتياز عادل حسون مثلاً طريفاً على التبعة الإدراكية في مجال مؤشرات التقدم (استقاء من كتابات الأستاذ أحمد حسين رحمه الله) فإشار إلى أن بعض «العلماء» يتبنون استخدام الكرسي كمؤشر على التقدم والتخلف، فمن استخدمه كان متقدماً ومن لم يستخدمه كان متخلفاً . ولكنه يشير بعد ذلك إلى حقيقة في غاية الأهمية وهي أن الكرسي جرم من التشكيل الحضاري العربي، استخدمه الغريون حينما كانوا في أدنى مراحل تحللهم وكان بعضهم لا يزال يُقدّم الضحايا البشرية (لبي بعض أجراء أوروبا، مثل البلاد السلافية) . وقد استخدم الغريون الكرسي لا لتقدم أحزروه وإنما

لنبت مادي وجيه للعاية وهو برودة الارض، ولعلهم قدّموا بعض الضحايا البشرية جلوساً على الكراسي ا وهناك شعوب أخرى مثل اليابانيين والعرب لم يستخدموه وهم في أقصى تقدمهم ولا يمكن الزعم مثلاً أننا أصبحنا أكثر تقدماً من عرب مصر العباسي الأول لأننا لمجّلس على الكراسي من طراز لويس السادس عشر أو حتى الخامس عشر، بينما كانوا هم يترشون الارض، كما لا يمكن أن نرغم أن وكيل وزارة الصناعة مثلاً أكثر تقدماً من مدير شركة «سوني» اليابانية لأن الأول يعود إلى مرته ويجلس على كرسي، بينما يعود الثاني فيخلع رداءه الأوربي ويرتدي رداء الياباني التقليدي ويجلس على الحصير ويستريح ولكن الكرسي تحول إلى مؤشر على التقدم بسبب انكسارها من الداخل وتبصيتها الإدراكية . وقد سمعت مرة بحثاً لأحد جهابذة علم الاجتماع المصري امستخدم اعدد ساعات الاجتماع للموسيقى السيمفونية كمعيار للتقدم والتخلف - وباله من معيار هرلي صحيح يؤدي إلى نتائج عنصرية كريهة، إنه يشبه من بعض الوجوه عائماً غريباً يحكم على فنون بلد بالتخلف لأنها لا تصمم من الخط Colligraphy، ولأن المباني العامة فيها لا تربطها حكم مكتومة بحط جميل، فمن الخط فن مقصور على الحضارات الترفية وقد وصل هذا الفن إلى قمة ازدهاره عند العرب والمسلمين لأسباب دينية وحضارية خاصة بهم وحدهم، ولا يصلح كمعيار عالمي لقياس التقدم والتخلف .

ونفس الشيء ينطبق على كثير من الأفكار والنظريات التي ترد لنا من الغرب، إذ تلقاها في سلبية موضوعية ملغلة ويقوم بتطبيقها على أنفسنا بكفاءة شديدة دون أن ندرس شيئاً عن جذورها ولا نعرف شيئاً من خصوصيتها الغربية ولا نعرف إلا القليل عن تصميماتها الفلسفية، فنحن نقل ما يرد لنا نقله داخل الأطر القائمة الحاضرة ولناخذ مرويد على سبيل المثال، قام الباحثون العرب بنقل كثير من أفكار وترجمة أعماله بدرجات متفاوتة من الرعاية والدقة، ويمكن للإنسان العربي الآن أن يحيط إحاطة كافية بفكره وأعماله من خلال المكتبة العربية ولكن إن طالعت هذه الكتب العربية لن تجد أثراً منها يتعدت مثلاً عن حلجية مرويد الاجتماعية والإثنية في حيناً في القرنين التاسع عشر والعشرين . هل كان المجتمع

الذي يعيش فيه فرويد والسدي زوده بالقيم مجتمعة متماسكة صحبياً أم مجتمعة غير متماسكة متآكل (حتى لا يستخدم مصطلحات أخلاقية مثل «مصحل» و«مريض» فتثور ثائرة «العلماء» عديا وهم يعضلون لغة علمية محايدة؟؟ وإن فعلنا ذلك فإننا سنكتشف أن فيينا قبل الحرب العالمية الأولى كانت من أكثر المجتمعات العنصرية في أوروبا وازدهرت فيها الأحزاب ذات التوجه المصري. وبما له دلالة أن أكثر الكتب شيوعاً في أوروبا في هذه الفترة كانت الكتب العنصرية. وهذا أمر منطقي، فهذه هي المرحلة الإمبريالية وتقسيم العالم التي شاعت إبانها العنصرية النازية والبيشوية والتي أعلنت أن الخالق قد انسحب من الكون أو حل فيه ثم مات (حسب رأي ينشئ للمعلّى ورأي داروين النكاس ورأي معظم فلاسفة عصر التحديث والتقسيم). ويبدو أن مجتمع فيينا كان متمركزاً بشكل غير عادي ومتطرف حول فكرة اللذة. يلاحظ انتشار الأمراض السرية بين أعضاء النخبة في أوروبا في تلك الفترة. (و بما له دلالة أن كلاً من ينشئ فيلسوف العدمية والعنصرية والنازية وهرتزل فيلسوف العنصرية الصهيونية، كانوا مصابين بمرض سري مجهول بؤاة كل منهما). ولا يوجد عدي إحصائيات عن أعضاء الجماعة اليهودية، وهم عادة ما يمثلون بشكل منسوخ ما يحدث في المجتمع، وفرويد يتمي إلى هذه الجماعة. ولعلنا لو عرفنا بعض هذه الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والحضارية من خلفية فرويد لأمكننا أن نكتشف ملامح جديدة في فكره كانت حافية علينا، ولأمكننا أن نطرح عليه أسئلة مختلفة عن تلك التي يطرحها العلماء الغربيون الذين يعيشون تحت نفس الظروف.

وماذا عن القبالة اللوربانية وميراث فرويد اليهودي؟ إن بحثت في المكتبة العربية لن تجد كتاباً جاداً واحداً في هذا الموضوع (إلا كتاب الدكتور مصري جرجس التراث اليهودي الصهيوني والفكر الديني الرائد، وهو كتاب كتبه عالم معروف يشار إليه بالبنان ومع هذا يتم تجاهله تماماً من قبل المتخصصين). ويبدو أن القبالة اللوربانية هذه تشكل إطاراً معرفياً لأفكار فرويد وكافكا والفلسفة التحكيكية (وصفت هذه القبالة بأنها تولد الحس وتحمس الإله). وقد يكون من المفيد أن نعرف علاقة القبالة اللوربانية بالخصوصية التي يتواتر ذكرها الآن في الكتابات الأدبية والعلمية والأدبية وكأنا في القرن الأول الميلادي. واعتقد أنه

من الصعب فهم التحليل والحفاة وما بعد الحفاة دون فهم كامل للقبالة (اليهودية ثم السحبة) .

وفي الأونة الأخيرة ثارت روعة بيوية ثم أخرى تمككية، كما بدأت ثوار روعة ما بعد التمككية وما بعد الحفاة وما بعد هذا وذلك فهل حاول أحد من يرمض هذا الفكر الأدبي والفلسفي أن يبين علاقته بمدارس تفسير التوراة عند اليهود؟ ويحدثنا رولان بارت عن «لغة السحر» وهي لغة ذات طابع جنسي (ولنا يتلاعب هذا «الفيلسوف» بكلمات مثل «سبي تكستوال» Sexuality و«سبي سبكشوال» Sexuality و«سبي سبي» حتى يمكننا أن نلعب نحن أيضاً)، هل يعرف أحد من تحدث عن لغة النص هذه أن هذا مفهوم قديم عند المفسرين اليهود، وأن إحدى مدارس التفسير (الناثرة بالقبالة الطورانية) تشبه التوراة بأمرأة عارية تقب حلب حجب، يتساقط الواحد تلو الآخر إلى أن يصل إلى أعرق مستويات الفراءة الذي يشبه بالجماع الحسبي؟ وإذا كنا نتحدث عن التمككية والسدة فهل لكل هذا علاقة بتآكل فكرة المسي في الحضارة العربية؟ هل التمككية هي الأخرى تعبير عن ترايد معدلات العلمنة؟ هذه هي بعض الأسئلة التي كان يجدر بمن يتقنون الفكر البيوي والتمككي وغيره من الأفكار أن يطرحوها، بدلاً من نقل الأفكار وكأنها حقائق مطلقة ظهرت كاملة دون مقدمات أو أسباب، فيزيدون من تبسنا الإدراكية بدلاً من أن يبدوننا معرفة وحكمة .

٣ - القعية الإدراكية والمصطلحات السياسية

وتظهر القعية الإدراكية في الخطاب السياسي العربي والمصطلحات التي يستعملها المحللون، فمن الواضح أننا نعيش دائماً في أن سمي الأشياء ونترك الآخر يسميها ويسميها لنا، ومن يسمي شيئاً فقد صنفه ووضعوه داخل خريطة إدراكية كبرى، تسبغ من إدراكه ومصلحه فحسن على سبيل المثال حينما نكب تاريخ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في العالم، فبدنا عادة ما نتحدث عن «السالة الشرقية» وعن «رجل أوروبا المريض» ي يجعلنا ننظر إلى الدولة العثمانية (التي كانت تحمي شعوبها - رغم ضسعهما واستبدادها - من الهجمة

الاستعمارية العربية التي عصفت بالعالم بأسره) فننظر إليها باعتبارها «رجلاً مريضاً» وحسب، ويسمى «رجل أوروبا النهم المفرس»، أي الإمبريالية الغربية التي كانت تبتدئ سكان أفريقيا آنذاك بعد أن كانت قد أبادت أعداداً هائلة من سكان الأمريكتين الأصليين، وبعد أن أبادت سكان أستراليا ونيوزيلندا، والتي كانت تقوم باستبعاد سكان آسيا، وتحوّص حرباً لتسويق الأفيون في الصين لشر التمدد في ربوعه! سعى هذا الرجل النهم الذي دس السم في طعام الرجل المريض، كما سعى أنه لو تُرك الرجل المريض وشأنه لربما شفاه الله وعافاه عصى يد «رجل مصر الفتى». ولكنه النموذج الإدراكي المستورد من العرب الذي يجعلنا ننظر إلى أنفسنا وتاريخنا من خلال عيون غربية.

وتظهر نبعثاً الإدراكية للعرب في المصطلح الذي نستعمله لوصف الصهيونية، فنحن نصف الصهيونية بأنها «الصهيونية العالمية»، وهي ترجمة موضوعية وأمنية لمعارة World Zionism (وحتى مترجم حتى حينها فكراً)، ولو نظرن حولنا بضعة دقائق وتخلينا عن المقولات الإدراكية المسنودة والكامنة في المصطلح لوجدنا أن الصهيونية لا أثر لها في الصين أو الهند أو أفريقيا (باستثناء جنوب أفريقيا) ولا في كل آسيا (باستثناء الحلب الاستيطاني في فلسطين) ولا في أمريكا اللاتينية (إلا في داخل الجيب اليهودي في الأرجنتين) - أي أن الصهيونية (وهي إفراز حركات التاريخ الغربي ولا يمكن فهمها إلا داخل هذا الإطار) توجد أساساً في العالم الغربي ولذا كان من الضروري أن سميها «الصهيونية الغربية» فهذه هي التسمية الصحيحة الدقيقة التي تستند إلى رؤية عميقة للواقع. ولكننا لم ندرك هذه الحقيقة البديهية لأننا وقعنا ضحية ما صُنِّعَ لنا من مصطلحات تُجسد نموذجاً معرفياً غريباً، والتصفت كلمة «عالمية» بالصهيونية وأحرزت شيوعاً لا نظير له. وكلمة «عالمية» تُصغي على الصهيونية هبة لا تستحقها، ورمية لا تتبع منها، وقوة لا تمتلكها. كما أن الكلمة تعبر عن مضمون متصري كاس، فحينما نُحت مصطلح «صهيونية عالمية» كانت كلمة «عالمية» مرادفة في العقل الغربي لكلمة «غربية»، ومن هنا مطالبة هرتزل مثلاً بإنشاء «دولة يحجبها القانون العام (أي

الدولي» وهو يعني في واقع الأمر القانون العربي أي القوة الغربية ويمكن القول أننا نقول «الصهيونية العالمية» مثلما نقول «الإمبريالية»، ونحس في هذا نكون قد تجاوزنا الحقيقة أيضاً فمجال الصهيونية ليس العالم، إذ تظل فلسطين ساحتها الأولى والاساسية وإن قامت الدولة الصهيونية منشاط عالمي فهي تفعل ذلك بهدف تأميم الجلب الاستيطاني في فلسطين

ومن أكثر الأمثلة درامية على فشلنا في تسمية الأشياء وإدراكها من منظورها «سحر» لا من منظورهم «هم» تسميتنا للمستوطنين الصهاينة، فنحن نسميهم «رواد» ويتعسف بعضنا بمن يسمون العبرية ويقولون «حالوتسيم» أي «رواد» والـ «حالوتسيوت» أي «الريادة» وهكذا تولد الحقيفة، ويصبح المثلي العربي في محاولة يظن كلمة أعجمية مخارجها الصوتية غريبة عليه كما أن كلمة «رواد» تحمل لفحمة غير عادية وإيهامات إيجابية، فالرائد دائماً في المقدمة يرتاد الصعب والمجهول نقول هذا ونحن نحرف فيما بين أنفسنا أنهم معتصبون لأرضنا وأنهم استولوا عليها بقوة السلاح العربي، لا بسلاحهم هم، ويدهم من العالم الاستعماري لا بجهودهم الذاتية أما الفلاحون الفلسطينيون، في أواخر القرن الماضي فكانوا ينظرون إلى هؤلاء الرواد/ الحالوتسيم ويسمونهم «المسكوب» نسبة إلى موكو (مسكنا أو مسكينا) وهي نعي عندهم الأجانب أو الدخلاء - ويالها من تسمية بسيطة دالة تصل إلى جوهر الظاهرة كما نجدها نحن، لا كما سماها صاحبها الذي يود إحصاءها وتسميتها .

ونظهر سخافتنا غير العادية في قولنا «معاداة السامية» وهي ترجمة للمعارة العربية anti-Semitism وهي عبارة ملهء تعادل بين اليهود والساميين ونُقرن بينهما، مع أن العبرانيين القدماء كانوا لا يشكلون سوى حلقة حصارية صغيرة، تابعة بشكل يكاد يكون كاملاً للتشكيلات السامية الكبرى مثل تشكيلات البابليين والآشوريين والآراميين، وهي التي ورثها التشكيل العربي/ الإسلامي وتُعد اللغة العربية أهم اللغات السامية على الإطلاق حسب رأي علماء اللغات السامية، فلو صبح استخدام المصطلح للإشارة إلى أحد فلنما يجب أن يشير لنا نحن العرب .

ولكن الحضارة العربية في القرن التاسع عشر لم تكن قد وصلت إلى هذا المستوى المعرفي بعد، ولهم عندهم عالمرة لا تأتي دفعة واحدة كما أن الفكر المتصري العربي المعادي لليهود كان يحاول استبعادهم كمناصر داخل التشكيل الحضاري الغربي ففرق بين الأريين والسامين وقسّم الفريق الأول على الثاني . فكان عبارة «معاداة السامية» هذه تعبير عن جهل غربي وعن عنصرية غربية وعن صهيوية غربية كاملة تهدف إلى التخلص من اليهود والإلقاء بهم في أرض فلسطين . ويقوم نحن بموضوعية بلهاء بترجمة المصطلح ويقول «معاداة السامية» - مع أنه كان من الممكن ببساطة شديدة أن نقول «معاداة اليهود» دون أن ستورد المصطلح التحير ضدنا» الحافظي في حذائه .

والصراع العربي / الإسرائيلي يُعد في شكل من أشكاله صراعاً على تسمية الأشياء ، نحن سمي تلك الأرض الواقعة بين سوريا والأردن ومصر «فلسطين» ، بينما يسميها الصهاينة «إسرائيل» . وسمي نحن سكانها «الفلسطينيين» ويسمونهم هم «سكان المشرق» . إذ أنه لا وجود لفلسطين ولا للفلسطينيين في المصطلح الصهيوني . ونحن سمي الوجود الصهيوني في فلسطين «استعمار استيطاني إحلالي» واعتصام ، ويسمونه هم «عودة لأرض الأجداد» أو «أرض الأجداد» وقد تبّه الصحفي الإسرائيلي رويت روزبرج لهذا الجانب في الصراع فقال في مقال له في الجيروزسالم يومت بمسوان «يامون بمشق في إسرائيل» . قل لي كيف نصف الماشق وراء الخط الأخضر سأقول لك من أنت . محتلة؟ محررة؟ مهزومة؟ مفارة؟ يهودا والسامرة وعرة؟ قل لي كيف نصف الأحداث التي تقع هناك وسأقول لك من أنت؟ اصطرابات عادية؟ شعب؟ هيجان؟ قمع؟ مبالغة؟ إعلامية مؤقتة؟ حرب؟» .

المصطلحات لا توجد في فراغ وإنما داخل أطر إدراكية تُجسد نماذج معرفية وقد تمت آخر محاولة لسلب الإنسان العربي حقه في تسمية الأشياء بحسن نية حينما طالب بعض الكتّاب العرب إسقاط كلمة «انتفاضة» ذاتها وإحلال كلمة «ثورة» محلها لأن الثورة في تصورهم هو عمل أكثر عنفاً وجلوية من الانتفاضة

ولما لا أعتز على كلمة «ثورة» كسمية عامة لما يحدث هناك، ولجميع بينها وبين الظواهر المماثلة كجزء من تراث عالمي، ولكن مع هذا يظل للاتصاف خصوصيتها التي يجب أن نعبّر عنها . ونحن لو حللنا تمكيز الكتاب الذين يعترضون على كلمة «انتفاضة» لاكتشفنا أنهم متأثرين بالثراث اللغوي والمعرفي العربي، حيث ترتب للحوالات الإنسانية لرفض القهر تراثاً هرمياً يستند إلى تجربة الإنسان الغربي التاريخية، بحيث يوجد في قاعدة الهرم «أهمال الشعب» riots تعلموها «التمردات» insurrections ويعلموها «المعصيان» rebellion، ثم أخيراً في قمة الهرم توجد «الثورة» revolution، يكن ما تحمل من معاني الانقطاع الكامل والرفض التام للنظام القديم وطرح رؤية جديدة .

وهذه التسميمات اللغوية نابعة لا من صفوة اللغات الأوروبية وحسب وإنما من التجربة الحضارية التاريخية العربية ذاتها حيث توجد عدة انقطاعات كاملة . فعصر النهضة كان رفضاً للمصور الوسطى ورفضاً للدين والكنيسة، وهناك كذلك الثورتان الفرنسية والبلشمية وهما تحريتان تاريخيتان ليس لهما ما يشبههما في التشكيلات الحضارية الشرقية، فهما يشكلان ما يشبه الانقطاع انكامل عما سبق وهذا كاملاً للنظام القديم، ورفضاً جذرياً للدين وللقيم الأخلاقية المرتبطة به وطرح رؤية جديدة للعالم والإنسان . وكل هذا أمر مهموم داخل التاريخ الغربي، وعلينا فهمه واحترامه .

ولكن يبدو أن التعبير داخل التشكيلات الحضارية الشرقية يأخذ شكلاً مغايراً يحتفظ بقدر من الاستمرارية (وبما سبب الاستناد الرمزي لهذه التشكيلات وكتائنها التاريخية) فالثورة المأوية في الصين، رغم كل ديباجاتها الماركسية اللينينية، احتفظت بكثير من التقاليد الصينية، سواء على مستوى العقيدة أو السياسة وانتقال اليايان إلى العصر الحديث ثم في إطار الحفاظ على التراث والهوية (بما حدا ببعض علماء الاجتماع أن يطرح مصطلح «رأسمالية إقطاعية» لوصف النظام الاقتصادي الياباني) . والإسلام يطرح نفسه كدين توحيددي جديد لا يشكل انقطاعاً عن الأديان التوحيدية التي سبقته وإنما استمراراً لها وتصحيحاً لمسارها

واعتقد أن الشرق الإسلامي ظل يتمتع بقدر كبير من الاستمرارية حتى مهابات القرن التاسع عشر .

وكلمة «انتفاضة» مناسبة تماماً لوصف هذه الاستمرارية وهي مشتقة من فعل «نفض» مثل «نفض الثوب» بمعنى «حركه ليريل عنه العار أو نحو» ولعل هذا وصف دقيق للاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي لم يضرب جذوراً في تراثنا الجغرافية والتاريخية، فهو مثل العيار الذي علق بالثوب الفلسطيني ولم يمس الجوهر ويقولون أيضاً «نفض للكان» أي «نظر جميع ما فيه حتى يعرفه»، وهذا تكتيك معروف لدى شباب الانتفاضة ويقولون أيضاً «نفض الطريق» أي «طهره من الصخور» ويقال «النفقة» وهي الجماعة الذين يمشون في الأرض متحسرين لينظروا هل فيها عدو أو خوف، وهذا أيضاً تكتيك آخر للمستعمرين وتحمل الكلمة أيضاً معاني الخصومة فيقال «نفض الكرم» أي «فتحت عافيده» ويقال، وهذا هو الهم، «نفضت المرأة» أي «كثرت أولادها»، «المرأة لنفوس» هي المرأة الكثيرة الأولاد، أي المرأة التي لا تكف عن الإنجاب تماماً مثل «الأنثى الفلسطينية» وانظر كذلك إلى تعبير مثل «نفض عه الكسل» و«نفض عنه الهم» وكذلك «انتفض وقفا» وهي كلها اصطلاحات تعني أن ما يحدث الآن كان هناك دائماً، لكنه كان متوارياً وحسب .

وبحسب ما لا يرفض كل المصطلحات والكلمات الغريبة ولا يطالب بضرورة اتحاد «بدائل» عربية لها، فهذا في تصوري شرء كامل وقبيل غير مشروط للمودج المعرفي الغربي، بل ويساهم في ترويجه، إذ أنه يعطيه وجهاً عربياً إسلامياً يحمي واقعاً غربياً وهذا الموقف يشبه من بعض الوجوه مهنتس الذيكور الذي يبي شقة عربية من جميع الوجوه، ثم يصيب لها «حنة أوابسك» أو «ركن عربي» ليمسك شلايب هوبه آحدة في التآكل . أنا لا أتحدث عن بدائل (وكان المصطلحات قطع غيار)، وإنما أطالب بمودج معرفي متكامل وسق لصوي يعبر عنه، ونقطة ابتداء معيارية لرصد واقعنا وواقعهم، وهذا المودج الجديد لا يرفض البامح الأخرى بل على العكس يتمتع عليها كلها دون خوف أو وجل، لأنه رائق من نفسه .

وظاهرة «الثورة» يمكن دراستها داخل التشكيل الحضاري الغربي ودخل التشكيلات الأخرى، وتذكر مصابيحها العديدة وقوانينها المتنوعة (الثورة ليست ظاهرة طبيعية بسيطة لها قانونها المادي العام) وتعامل معها وتأخذ منها دون التخلي عن خريطتنا المعرفية. إنني أحترم خصوصيتي مثلما أحترم الخصوصية العربية وكل الخصوصيات الأخرى التي سأذكرها. وهي تصوري أنتهي من خلال إدراكي لخصوصيتي سأذكر خصوصية الآخرين. واصطلاح «ثورة» كما هو متداول يتسم إما بكثير من العمومية أو بكثير من الالتصاق بالتجربة الغربية في التمرد على الظلم، ولذا فهو لا يصلح لوصف التجارب المغايرة بسبب عموميته الزائدة وخصوصيته المنطرفة، أي أنه ليس اصطلاحاً علمياً بالمرّة، ويمثل محاولة فرض مفاهيم واصطلاحات من التاريخ الغربي على أحداث التاريخ العربي. يجب أن ندرك، منطلقين من خصوصيتنا، التجربة العربية في الثورة (وفي التحوّل عنها، ولا نم نعرض ما حدث في الاتحاد السوفيتي؟) ويجب أن نتعامل مع هذه التجربة دون أن نضطر إلى تسمية «الانتفاضة» (بما تحمل من معاني الخصب والاستمرار والتجدد اللواتي من نفعه) «ثورة» (بكل ما تحمل من معاني الاحترق والبدائيات الجديدة) فعمل ذلك دون أن نفصل الانتفاضة عن التراث الثوري الإنساني الذي لا تشكل التجربة الغربية فيه سوى جزء من كل.

إن الثورة انقطاع، أما الانتفاضة فعودة لما سبق واسترجاع للهوية التي سُلّبت حتى تصبح «إسرائيل» مرة أخرى «فلسطين» كما كانت دائماً عبر التاريخ، وكما ستكون بإذن الله في المستقبل. والماصلون الفلسطينيون في احتجازهم لكلمة «انتفاضة» قد وضعوا يدهم على واحدة من أهم خصائص تحركهم التاريخي المبارك، وهو أنه تحرك داخل إطار للهوية التي تمتد من الماضي عبر الحاضر إلى المستقبل، ورفض للتمعية السياسية والاقتصادية والإدارية. ولا يمكننا أن نسب لشياب الانتفاضة الذين اختاروا المصطلح معرفة بكل هذا وإدراك واعي له، ولكن لا يمكن أيضاً أن نكر إحساسهم الحضاري السليم بدعوتهم التاريخية أو ارتباطهم المباشر بترائهم أو عراضهم المعنى والمعرفي عن النموذج الهرمي الهرمي. فقد أثروا أن يحملوا علم الانتفاضة بكل مفردات الكلمة العميقة والدالة والتي لا

منظير لها في اللغات الأوروبية وفي العالم العربي ذاته أدركوا خصوصية الانتفاضة ولقد فهم يكتبون الكلمة كما هي محروفة لائنية دون محاولة للبحث عن مرادف لها في معجمهم اللغوي .

٤ - الاستعارة والصورة والإدراك

سألاحظ القارئ أنني في هذه الدراسة (وغيرها من الدراسات) كثيراً ما أتناول الاستعارات والصور الكأمة والواضحة هي أقوال العرب والصهيانية، كما أنني لا أحجم أحياناً عن استخدام الاستعارات في التعبير عن بعض الأفكار وكثيرون يظنون أن الصور رخرة وأن الاستعارات إضافة ومحبذات لغوية، ولكننا نعرف تماماً أنها أبعد ما تكون عن ذلك، فهي وسيلة إدراكية لا يمكن للمرء أن يدرك واقعه أو أن يعبر عن مكون اسمه دونها . فالاستعارة إذن مرتبطة تمام الارتباط بالمادح المعربة والإدراكية وخير وسيلة للتعبير عنها . وإذا أراد الفارس أن يصل إلى هذه المادح ويعرف هويتها فلا يمكنه قط أن يطرح الاستعارات والصور جانباً باعتبارها زخارف . بل إن يعرف أن الاستعارة جزء أساسي من نسج اللغة دائنها وعملية التفكير الإنسانية ومن هنا تناولي الاستعارة بالتحليل واستخدام إياها في كتابي عن الانتفاضة قمت بتحليل استخدام شامير لصورة «عملاق حنجر» وبيئت أنها مغلوب الصورة الصهيونية القديمة «دود وجالوت» واشترت إلى التحول الذي دخل على الرأي العام العالمي بحيث أصبح يستلهم صورة داود الذي يمسك بالمقلع لإدراك العربي . ونحن إذا كنا نحاول دراسة السلوك الإنساني وأن نرصد الإنسان في كل تركيبه، علينا لابد أن نرصد المعنى، والمعنى يتجلى في الاستعارات والصور أكثر من الخطاب المباشر

وقد اشترت في كتابي عن الانتفاضة إلى واقعة دالة وطريقة ذكرها ضابط إسرائيلي، إذ شاهد شاباً فلسطينياً يرفع علم فلسطين فوق مثذبة في يوم مظير وقد أجهز الشاب ما يريد بعد جهد جهيد . وقد تركت الصورة أثراً عميقاً في نفس الضابط الإسرائيلي، واعتبر أن المجاهد الفلسطيني هو عكس صورة المستوطن الصهيوني الباحث عن الدعة والراحة . وقد تصادف أن بعض المعلقين السياسيين

العرب المهتمين بالانتصاصة استخدموا نفس المقال الذي وردت فيه هذه الواقعة كأحد مصادرهم . وقد فوجئت أنهم أسقطوا كلمة «متلدة» وحولوها إلى «برج عال» (أي أنهم علموها وطبعوها وجعلوها جسماً مادياً عالياً والسلام) . وأنا هنا لا أتحدث عن عدم التزامهم الدقة العلمية، فالمتدة في نهاية الأمر برج عال . ولكن ما يهمنا في عملية الرصد الدقيقة أن الإسرائيلي شاهد فلسطينياً يتسلق متلدة وأن هذا هو ما رآه في أحلامه تلك الليلة، وهذا ما رواه لأصدقائه، وهذا ما سجله سلوكه . ولذا فإسقاط الواقعة التي تحولت إلى استعارة وصورة محددة هي دهنه (مخودج إدراكي) متشقل من قدرتنا على تصوير سلوك هذا الإسرائيلي وبالتالي التنبؤ به . وكما تحدثنا عن إمبريالية المقولات، يمكننا أيضاً أن نتحدث عن إمبريالية الاستعارات، وهي الاستعارات الأساسية التي تعبّر عن إدراك الآخر وعن أحاسيسه الوجودية المتعينة وعن نموذج المعرفي . وكثيراً ما نقنعنا هذه الاستعارات ونهيمن عليها وبالتالي يهيمن عليها النموذج المعرفي الكامن فيها

وقد قمت في هذا الكتاب بتحليل بعض المصطلحات السياسية لأبّين الجانب المجازي فيها مثل «رجل أوربا المريض»، و«الحماثم والصقور» . واكتشفنا أن الحماثم والصقور مجاز (أي أن الحماثم مثل الحماثم والتشديد مثل الصقور) وسحتنا استعارتين أخرتين، دجاج ونعام، وولّدنا استعارات مختلطة مثل الدجاج والنعام التي تأخذ هيئة الصقور . إن الاهتمام بالمجاز والصور هو في نهاية الأمر اهتمام بال إدراك والدوافع والسلوك المتعين للإنسان وبتركيبته التي تعجز اللغة الإخبارية المباشرة عن نقلها .

وأخيراً....

يجب ألا ننطلق في رصدنا للبشر ولكل الظواهر المحيطة بنا من مقولات ثابتة مسقة، أو من إدراك الآخرين لهم، إذ يجب أن نؤسس دراستنا على تجربتنا وتفاعلنا نحن مع الظواهر وأن ننمض عنا أي تبعية إدراكية . كما يجب ألا ندرس البشر وكأنهم انعكاس مباشر لواقعهم المادي، أشياء صماء تتأثر بقوانين الحركة المادية، ظواهر طبيعية تُرصد من الخارج كما تُرصد الأشياء، إذ يجب دراستهم كبشر يحسون بما حولهم بطريقة محددة ويسقطون عليها معنى داخلياً هو الذي

يحدد أهميتها بالنسبة لهم ويحدد مدى نجاحهم وفشلهم وهم كثير قابلين أيضاً للتماسك والمو دون احتميات مسبقة تشبط الهمم دون ميرر أو تشجدها دون أساس، أي علينا أن نستعيد الإنسان كعامل، قابل للانتصار والانسكاف من الداحل والقتسارح ونحن إن فعلنا ذلك، زاد إبداعنا، وبدأنا ندرك الآخر في أبعاد المركبة المختلفة .

ومحن في كل هذا وإدراكنا لخصوصيتنا وخصوصية الآخر لن بهون من قدر الآخر (سواء كان من الصهاينة أم من الحضارة العربية) ولا من قدر أنفسنا كما أننا لن نهول من قدره أو قدر أنفسنا . بل برصده ومرصده أنفسنا بكل ما نضم داخلنا من قوى إيجابية وسلبية، مادية وروحية، حقيقية وكامنة . ونحن لو فعلنا ذلك نكون قد نزعنا من الآخر أية حالات صجانية يكون قد حلقها على سمعه (والعظمة "في نهاية الأمر" لله وحده) دون أن يسكر قوته الذاتية الحقيقية . ونكون أيضاً قد استعدنا للإنسان العربي إمكانيات الحركة الكامنة داخله وأدركنا أن ما قد علانا من غار الهرطقة يمكن أن ننفضه وأن نتطلق لعللي كلمة الحق والفضيلة في زمن الكلدانيين والصحفيين المأجورين والإعلام المصفق وأدوات القمع الكعب .

وكما قست في بداية المقدمة هذا الكتاب يدور حول قضية الإدراك وعلاقته بالسلوك وأثر كل هذا على التحليل السياسي ورغم أن كل الحالات التي نتناولها مستمدة من عالم الجماعات اليهودية والصهيوية إلا أن موضوع الكتاب هو أولاً وأخيراً قضية الإدراك

ويتناول الفصل الأول خريطة الإدراك الصهيوني للعرب ومحاولة تجريدهم وتعييبهم أما الفصل الثاني فيتناول نفس القضية وإن كان للجدال بتعبير، فهنا الفصل يتناول الإدراك الإسرائيلي للعرب ومدى علاقة هذا الإدراك بسلوكهم، كما يركز هذا الفصل على إدراك الإسرائيليين للدولة الفلسطينية والاستعصاء وفي جميع الحالات نحاول الدراسات أن نركز على المحسى الخاص للإدراك وترصد تطوره عبر الزمان ويتناول الفصل الثالث الإدراك العربي لليهود وكيف يتحول

اليهود إلى مجرد عنصر نافع بل وإلى «مسلمين» في الوجدان العربي، ويتناول هذا الفصل تصور العالم العربي للدولة الصهيونية باعتبارها عنصراً نافعاً كما يتناول رؤية العالم العربي والصهاينة لحروب المرحمة (الصليبية) رؤية النازيين لمفهوم الحكم الذاتي واحتمال تأثر الصهاينة بهذه الرؤية . ويحاول الفصل الرابع (والأخير) أن يقوم بتفكيك الإدراك الصهيوني وتوضيح كيف يعمل هذا الإدراك وكيف يعيد صياغة الواقع بما يتفق مع رؤية الصهاينة ومصالحهم . كما يبين هذا القسم أن التعامل مع الحقائق العملية خارج سياقها التاريخي ودون دراسة البُعد الإدراكي والمعنى الداخلي فإنها تصبح إما لا معنى لها أو يفرض عليها أي معنى . ويوضح هذا القسم أهمية عملية التفكيك والخطوات اللازمة اتباعها لإعجازه والله أعلم

د . عبد الوهاب محمد المصري

دمشق والقاهرة يناير ١٩٩٦

الفصل الأول:

في الإدراك الصهيوني للعرب

١- من العربي المتخلف إلى العربي الغائب

٢- الاستجابة الصهيونية للعربي الحقيقي

١- من العربي المتخلف إلى العربي الخائب

من الحقائق الأساسية التي لا بد من إدراكها أن الفكرة الصهيونية استمدت ملامحها الأساسية، ثم مقومات وجودها، من الحضارة الغربية (الراسعالية/الإمبريالية) في القرن التاسع عشر، خاصة في الجزء الأخير من تلك الحضارة في تلك المرحلة الرمية قد وصلت سطحاً خطيراً وهاماً للغاية من تاريخها، ومن تاريخ البشرية جمعاء، يعد الانعجار الذي حدث في إنتاج السلع نتيجة للثورة الصناعية، إذ تحولت إلى حضارة نهمة مقترسة جعلت من الإنتاج غاية لا وسيلة، وجعلت العرض من إنتاج السلع هو الريح لا سد حاجة إنسانية ما.

وقد أدت هذه الانعجاجة الإنتاجية (المتفصلة عن أي سياق إنساني أو أي إطار أخلاقي) إلى نمو الظاهرة المعروفة بالإمبريالية التي وصلت إلى ذروتها في المقدين الأخيرين في القرن الماضي (وهي المرحلة التي ولدت فيها الصهيونية واقتسم العرب فيها العالم).

وكان لا بد من ظهور اعتذاريات تبرر هيمنة الإنسان الغربي على مصائر كل البشر، واغتصابه لكل الثروات على وجه الأرض، واقتسامه لآسيا وأفريقيا وأمريكا، وإبادته لساكنة عدة قارات بأكملها (الإمبريكتين وإستراليا) ولاستعباده ونقله لأعداد هائلة من سكان قارة أخرى (أفريقيا) ولاستغلاله لشعوب قارة ثالثة واحتلاله لبلدانها (آسيا، خاصة الهند). وقد شهدت هذه المراحل بالعمل تطور وتبنو الفكر العنصري الغربي وظهور كل كلاسيكياته المعروفة ابتداء من فكر هيجل الذي يحتوي داخله على النظرية العنصرية العربية بشكل جلي، ومروراً بفنحه ونريشكه وميتشه ونشاميرلي، وأخيراً هتلر ومظري البارية.

ومن الصعب التلخيص هذا التراث الفسحيم والمركب من الكتيبات العنصرية العربية، وهو أمر على أية حال يقع خارج نطاق هذا البحث، ولكن قد يكون من المفيد أن نحاول أن نصل إلى بعض ملامحه الأساسية لأننا بذلك سدرنا ألبها الملامح الأساسية للفكر الصهيوني، ويمكن القول أن جوهر الرؤية العنصرية في

العرب هي تحويل الذات القومية، أو «أثنية» الإنسان، إلى المصدر الوحيد للقيمة والمطلق الوحيد الذي يؤمن به الإنسان، بحيث يصبح ماهر حارج هذه الذات مجرد وسائل يمكن استخدامها (على أحسن تقدير) وعوائق يجب إزالتها (على أسوأ تقدير).

وقد افترقت هذه الرؤية نظرية «المقوق» الأولية التي لانتخض للنقاش والتي لا يتمتع بها سوى صاحب لائحه. ولكن كان الحل الإسرائيلي لمشاكل أوروبا هو تصديرها إلى الشرق، ولذا عرفت هذه الهوية على أنها متعقبة أيضا بحيث اتسع نطاق نظرية الحقوق ليشمل حقوق الآخرين «المختلفين» في آسيا وأفريقيا والأمريكيتين حيث توجد تشكيلات حضارية بدائية لأثنية إنسانية لها، كما كان يدعي الإسرائيليون، ومواد خام يمكن استخدامها لتزويد الآلة الصناعية الرهيبة، وسوق صالحة لتلج كل السلع التي أنتجت بهدف الربح

ويمكس القول -بكثير من الاطمئنان- أن نية الرؤية الصهيونية لكل من اليهود والعرب اكتبت نفس هذه الملامح. فالحركة الصهيونية قد بدأت بين اليهود بإعلان التمرد على الدين اليهودي والشريعة اليهودية وقام الصهاينة بإحلال اليهودي ذاته والأثنية اليهودية محل العقيدة اليهودية كمصدر أساسي للقيمة، وأصبحت هذه الذات هي المطلق الذي يسمح من التحقق في التاريخ (وكانها كلمة الله). ولذلك نجد أن منطق الرؤية الصهيونية للذات الصهيونية وتحققها يعني اختفاء العربي وعيابه (لاسيما أو بعته بالتخلف وحسب على الطريقة العربية) بحيث يصبح هذا الغياب هو محورها الرئيسي وغرضها النهائي، وقصدها الحتمي في معظم الأحيان، وللمعلن في أحيان قليلة.

وإذا افترضنا أن تحقق هذا المتصل الإدراكي أو ذروته هو الغياب الكامل للعربي فإن كل الأجزاء والمراحل الأخرى تنزع نحو ذلك وفي نظاما التصنيفي سبداً بأقصى اليمين وهي لحظات إدراكية مادية يدرك فيها العقل الصهيوني وجود الإنسان العربي الحقيقي وتاريخه وسفاله بل وحقوقه، وفي أقصى اليسار توجد الرغبة الصهيونية المعارمة في أن يقبب العربي حتى تخلص له الأرض دون سكانها. ومن

الطرف الأول إلى الطرف الآخر ثمة انهما تدريجي نحو التخلص إدراكيا (وعلما) من هذا العربي ابتداء من معته بأنه إنسان شرقي ملون متخلف، ثم رؤيته على أنه يمثل للأغبار مكل وحشيتهم وقسوتهم وبذلك فهو يستحق صايحل به، ثم محاولة تهيمشه، وانتهاء بإنكار وجود العربي أساسا.

ويلاحظ أن الحركة هنا هي حركة نحو مريد من التجريد فبدلا من رؤية الإنسان العنصري كإنسان حقيقي مزارع يعيش في أرضه وأرض أجداده يردعها ويتج أشكالاً حصارية تستحق الاحترام، يتحول إلى إنسان شرقي متخلف لا يستغل الأرض على أكمل وجه. ثم ترددا درجة التجريد ليصبح ممثلاً للآخر، عليه أن يدفع ثمن الكوارث التي حاقت باليهود عبر التاريخ، ثم يظهر هذا الإنسان على أنه شخصية هامشية تمتد أية هوية قومية أو حضارية أو أية دوافع سياسية. ثم يصل التجريد بروته (والرؤية لحظة تحققها) حينما تكرر الأدبيات الصهيونية وجود هذا الإنسان أساساً وتغفل الإشارة إليه. وفي بقية هذا الفصل مستأنول بشيء من التفصيل مقولات الإدراك الصهيوني الأربعة:

(أ) العربي المتخلف.

(ب) العربي ممثلاً للآخر.

(ج) العربي الهامشي.

(د) العربي العائيب.

العربي المتخلف

نظرت الصهيونية لنفسها على أنها جزء من التشكيل الحضاري الاستعماري العربي حتى تستفيد من نظرية الحقوق والواجبات السائدة في الغرب في القرن التاسع عشر، والتي هرّقت واجب الإنسان الأبيض بأنه إدخال الحضارة في المناطق الاقل تحضرأ في آسيا وأفريقيا وذلك عن طريق الاحتلال الفعلي للقارتين^(١)، حتى لو أدى ذلك إلى إبادة السكان الأصليين^(٢)

وقد عرّف معكرو حركة الصهيونية اليهود بأنهم جزء من الجنس الأبيض المتقدم، وكان هرتزل يرى مشروعه الصهيوني في إطار فكرة عبء الرجل الأبيض (٣) وثبته في ذلك زاغويل (٤) وآخرون.

ولذلك نجد في الكتابات الصهيونية حديثاً طويلاً ومبلاً عن النظافة العصرية والنظام العربي والحضارة الغربية التي سيأتي بها الصهاينة كممثلين للحضارة الغربية في «الشرق لمبوء» (٥)، وهذا موضوع أساسي كامن متواتر في الأدبيات الصهيونية يمكن أن يشاء أن يعود لأعمال معظم المفكرين الصهاينة ليجد أطناً من الأنوال تدعم رأياً هذا

هذه الرؤية للذات الصهيونية العربية المتقدمة تصرّح صورة العربي الشرقي المتخلف، وهي صورة محورية في الأدبيات الصهيونية. وقد لاحظ المفكر الصهيوني أحمد همام عام ١٨٩١ أن المستوطنين الصهاينة يعاملون العرب باحتقار وقسوة، وينظرون إليهم باعتبارهم «متوحشون صحراويون»، «شعب يشبه الحمير، لا يرون ولا يفهمون ما يدور حولهم» (٦) كما لاحظ أحد الرواد الصهاينة في أوائل القرن أن الصهاينة يعاملون العرب كما يعامل الأوروبيون السود (٧). أما هارون أروسون، أحد رعاة المستوطنين في أواخر القرن ١٩ وأوائل القرن العشرين، فقد حذر الرواد الصهاينة من أن يقطّوا بجوار «الصلاح (العربي) القدر، الجاهل الذي تتحكم فيه الخرافات»، كما أنه كان يؤمن «بأن كل العرب صرثين» (٨).

والعربي، حسب تصور وايمان، يتصف بنفس الصفات تقريباً التي ذكرناها من قبل، فهو «عصر منقطع» (٩) يحاول «الحري قبل أن يستطيع الجبر» (١٠)، وهو شعب غير مستعد للديموقراطية ومن السهل أن يقع «تحت تأثير البلاشفة والكتالونيك» (١١). وقد أرسل هذا الزعيم الصهيوني خطاباً لسترومان رسم فيه صورة مشرقة للذات الصهيونية المتقدمة في مقابل الصورة الكئيبة لمجتمع العربي الأمي الفقير في فلسطين (١٢). واعتقد أنه لا عهد كثيراً أن تأتي بمريد من «الأدلة» والمفرائس والبراهين من أعمال بن جوريون أو جابوتنسكي أو غيره من الكتاب

الصهاينة إذ أن مثل هذا سيكون مجرد غشغش أفقي لا يغير من الصورة كثيرا وبما أن لنا في مجال محاكمة الفكر الصهيوني وإعنا نهدف إلى فهمه وتصنيفه فلتوقف قليلا لندرس هذا النمط من الإدراك الصهيوني للعرب.

صورة العربي المتخلف تعود بجذورها إلى الاعتداليات والكتابات العنصرية التي تحدثت عن عبء الرجل الأبيض ولذلك فهي لا تنسب أية خصوصية صهيونية للعربي المتخلف لا يختلف كثيرا عن الأفريقي المتخلف أو الآسيوي المتخلف أو حتى الأمريكي الأسود المتخلف، فكلهم سواء من وجهة نظر الإنسان الحربي المتقدم. ولذلك نجد أن الوصف هنا يتسم بالعمومية والتجريد والانتفاء، وهذا أمر حتمي في أي تفكير عنصري لأنه إن لم يتسم بذلك وجد العنصري نفسه أمام وجود متعين محسوس له قيمة تاريخية متعينة محددة وأصبح من العسير استغلال صاحب هذا الوجود واقتلاعه وإبادته.

ولكن إذا كان العربي متخلفاً إلى هذا الحد، والصهيوني متقدماً إلى هذا الحد، أليس من المنطقي أن نتوقع أن يأخذ الثاني بيد الأول - وهذا يجب أن نهيى بمنطق التاريخ قليلاً طارحين جانباً منطق الأمطورة - ومكشف أن ويزمان العقلاني، الذي كان يقدح في العرب لتخلفهم، لم يحاول قط أن يأبى بالبور والحداثة والتقدم، بل ساعد على تكريس التخلف، ولذا بذل قصارى جهده ليستعيد من الخلفاء المربية للحنطة ومن الاحتكاك بين الملاحين والبدو، ومن الثورات والصراعات بين المسلمين والمسيحيين وبين العناصر الحضرية والريفية^(١٢). بل وحاول الصهاينة في صيف عام ١٩٢١ تأسيس «منظمة قومية إسلامية» تتخذ موقعا محالاً للبريطانيين وتعارض المنظمات الإسلامية / المسيحية والمعارضة للاستعمار، وقد تمجها بالعمل في تأسيس مثل هذه المنظمات في حيفا والبصرة وطبرية^(١٣) ولكن يبدو أنها لم تدر طويلا وقد فضل الصهاينة دائما التعامل مع القيادات التقليدية و سحق القيادات الحديثة.

والصهاينة محقون في ذلك تماماً، فلقد أدركوا منذ البداية أن تحديث العرب وتقديمهم يعني تحقيق الإسكانية العربية الكامنة، وتحقيقها سيؤدي لا محالة إلى الغياب الصهيوني، وهو أمر لا يمكن لحركة سياسية ذات مصالح حصارية/ طبقية محددة أن تسمح به. لكل هذا يمكننا القول أن الإدراك الصهيوني للعربي من خلال هذه المقولة لا يجعل منه إنساناً شرقياً متخلفاً وحسب، وإنما يود أن يبقى عليه في هذا الوضع.

العربي ممثلاً للأغيار

تتم الرؤية الصهيونية للذات بالتنوع بين والتناقض أحياناً، والصهاينة الذين يرون أنفسهم كشكل من أشكال التعبير عن الحضارة الغربية يرون أنفسهم أيضاً كتعبير عن الجوهر اليهودي الخالص، وبهذا يصبح المشروع الصهيوني ليس ممثلاً للحضارة العربية المتقدمة وإنما ممثلاً للشعب اليهودي الذي عانى الولايات عبر تاريخه على يد الأغيار. ولكن رؤية الذات -كما أسلفنا- مرتبطة برؤية الآخر، ولذا نجد أن العربي، في هذا السياق الجديد، يستحوّل من العربي المتخلف إلى العربي ممثلاً للأغيار. والموقف الصهيوني من الأغيار يتم بالاستقطاب المتطرف، فالعالم ينقسم إلى الضحايا اليهود والأغيار الذئاب - شعب محتار وشعوب متربعة به - دائماً وأبداً. وإذا كانت الاستراتيجية الإدراكية الاسامية عند المنتصرين -كما أسلفنا- هي تجريد الضحية من إنسانيته التاريخية المتعينة وبالتالي من حقوقه، فإن عملية التجريد هنا تكتسب خصوصية تزيد التجريد حدة وصرارة. مقولة الأغيار أكثر تجريداً من مقولة الرعي في الأدبيات العنصرية البيضاء، ومن مقولة اليهودي في الأدبيات النازية، ومن مقولة العربي كشرقي متخلف في الأدبيات الصهيونية. وينبع تجريدها من أنها لا ترتبط بزمان أو مكان محددين وإنما تضم كل الآخرين في كل زمان ومكان. فالعربي شرقي متخلف مرتبط علي الأقل بمكان ما هو الشرق، وزمان ما هو الماضي، أما حينما يصبح ممثلاً لكل الأغيار فهو يصبح لا تاريخ ولا أرض له، ويعفد كل ملامحه وقسماته ولذا تحقق الاستراتيجية الإدراكية خطوة كبيرة إلى الأمام (نحو الغياب الكامل).

ومرة أخرى يجب أن ندرك أن الصهاينة كانوا يتبعون في ذلك التشكيل الحضاري العربي. فالصهيونية ذات الدياجة المسيحية والتي يسبق تاريخها تاريخ الصهيونية ذات الدياجة اليهودية قبلت مثل هذا التقسيم للعالم كيهود وأعيار ولذلك يتحدث وعد بالفور عن «الجماعات غير اليهودية» أي جماعة الأعيار التي تشغل الأرض. وقد أشار هرتزل أثناء تفاوضه بشأن كيريت كي تصبح موقعا للاستيطان الصهيوني- أشار إلى سكانها بطريقة تنم عن عدم الاكتراث والتجريد، فقد وصفهم بأنهم مجرد أعيار، «عرب، يواسيون، هذا الحشد المحتلط من الشرق»^(١٥)

هذا الإدراك للعربي ممثلا للأعيار ساعد الصهاينة على «تفسير» الثورات العربية الفلسطينية الثنائية تفسيراً بثلاث مع مصالحتهم وتغييرهم ورويتهم، إذ تصبح المقاومة العربية جزءاً من مؤامرة الأعيار الأولية فقد وصف إسحق بن تروفي، رئيس اسراييلي سابق، المقاومة العربية بأنها مجرد مذبة أخرى يرتكيبها المعادون لليهود قام فنصل روسيا في فلسطين بالتحريض عليها^(١٦) وحيما اختفى القنصل الروسي بعد الثورة البلشفية كانت القيادة الصهيونية ترى عملاء المختلث ثم عملاء فرنسا في العشرينات، وعمالء ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية في الثلاثينات كمحرضين على هذه الثورة^(١٧) أما في الأربعينات فقد أصبحت سلطات الانتداب والإدارة العسكرية في فلسطين- حسب هذه الرؤية- هي للحرك الرئيسي لثورة العالاجين الفلسطينيين^(١٨) وقد لحص أحد المستوطنين الصهاينة هذا الموقف بقوله أن ثورة العالاجين الفلسطينيين ليست محاولة لرد العدوان والظلم الواقع عليهم وإنما هي تعبير عن العداء الأيدي الذي يديه الأعيار نحو اليهود، بوصفهم شعباً طرد من بلاده^(١٩).

وهكذا من خلال هذا الإدراك يستوعب الصهاينة الثمرد العربي ويضمونه داخل قالب مجرد يفرغه من مضمونه الإنساني بحيث لا يشكل أي تهديد حقيقي للمغتصب، بل أنه يحول المغتصب، -مهما بلغ جرمه من بشاعة- إلى ضحية أبدية^١.

وقبل أن نتقل للمثولة الثالثة قد يكون من المفيد أن نذكر أن الإدراك الصهيوني للعرب يركز دائماً على الماضي وعلى الحاضر ويكاد يسقط المستقبل تماماً في معظم الأحيان، وإذا تم التعرض له فإن المستقبل يُنظر إليه باعتباره امتداداً كبيراً للماضي وليس محالاً للتحوّل السلمي. ومثل هذا الموقف هو نتيجة طبيعية لإسقاط التاريخ والزمان ونموذج العربي إلى كم متخلف غير قادر على الحركة أو ممثل لا رمي للأغيار يخطئ الحاضر والمستقبل.

العربي الهامشي

بدأ في نهاية الفصل أن الترجمة الكاملة للرؤية الصهيونية هي العياب الكامل للعرب وقد لاحظنا أن عملية التجريد التي تحدثنا عنها هي أيضاً عملية إسقاط لإسانية هذا العربي وبالتالي تجريده من أية حقوق إنسانية ونصل هذه العملية إلى قمتها في مثولة العربي المغائب. ولكننا لا نصل إلى هذه الذروة مباشرة إذ يمكن ملاحظة استراتيجيات إداركية مختلفة تسبق ظهور العربي الغائب تنميتها «تهميش العربي»^{٢١}.

ويمكن القول أن عملية تهميش العربي تأخذ أساساً شكل إنكار أي وجود سياسي قومي للعرب عامة وللفلسطينيين على وجه الخصوص. فالصهيانية في إدراكهم للثورات العربية قسدهم يكررون طبيعتها القومية والسياسية ويؤكدون لأنفسهم ولرؤساقهم أن الدافع لهذه الثورات ليس حب الأرض أو الوطن أو تمسك الإنسان بشرائه، وإنما هي ثورة تعبر عن «التعصب الديني»^{٢٢}. وكان الصهيانية أحياناً يقومون ليجيب العرب باعتبارهم الأعداء الحقيقيين لمشروعهم الاستيطاني، ويصورون المسلمين باعتبارهم طيين يمكن التماهم معهم؛ وأحياناً أخرى كانوا يفترون العكس فيؤكدون أن العدو الحقيقي هم المسلمون أما المسيحيون فهم على استعداد أكبر للتعاون^{٢٣}. وكانت الجماهير الفلسطينية نالسة لهم مجرد غوغاء لا تحركها الدواعي القومية يتلاعب بها الإقطاعيون والأقندية^{٢٤}. ونمود هذه الجماهير ليس تعبيرا صادقا عى حركة قومية حلاقة وإنما تلمية الاعتبارات الإقطاعية والقبلية الصيقة^{٢٥}.

إلى جانب هذا كان الصهاينة يرون الفلسطينيين أو العربي حيوياً أو محلوقاً اقتصادياً محضاً تحركه الدوافع الاقتصادية المباشرة، ولذا يمكن حل المشكلة العربية- حسب هذا التصور- في إطار اقتصادي ليس بالضرورة سياسياً^(٢٤). ولعل من أول الأمثلة على هذه الاستراتيجية الإدراكية وشيد ذلك، هذا العربي المحلوق حسب المواصفات الصهيونية في رواية هرتزل الأرض الجديدة القديمة، الذي يؤكد أن الوجود الصهيوني قد عاد علياً بالنفع الكبير لقد زادت صادرات البرتقال عشر مرات، وكانت الهجرة اليهودية حيراً وبسكة خاصة بالنسبة لملاك الأراضي لأنهم باعوا أرضهم بأرباح كبيرة^(٢٥). وظل لعيب من الصهاينة يؤمن إيماناً راسخاً بأنه يمكن التغلب على محارسة الفلسطينيين عن طريق توصيح الزايا الاقتصادية الجملة التي سيجلبها الاستيطان الصهيوني، وعن طريق ختمهم على الرحيل إلى البلاد العربية [بعد إعطائهم التعويض الاقتصادي المناسب عن وطنهم]^(٢٦). وكانت إحدى قذعات ويرمان الإدراكية أن تطور فلسطين الاقتصادي سيؤدي إلى أن يفقد العرب الاهتمام بالمعارضة السياسية^(٢٧).

وتعبيراً عن هذا الإدراك للعربي يتواتر في الكتابات الصهيونية موضوع أساسي كامن يمكن تسميته «شراء فلسطين» فكثير من الصهاينة كذلك ينظر إلى الامتيطان الصهيوني باعتباره عملية شراء أراضي بسعر أعلى من سعر السوق، وأنهم بذلك يكومون قد أعطوا العرب «حقهم»- والحق هنا قد حُرف تعريباً اقتصادياً وحسب، وفلسطين هنا ليست وطناً وإنما سوقاً عقارية. وتؤكد لنا يوميات هرتزل أنه كان يؤمن إيماناً راسخاً بإمكانية شراء فلسطين بالتقسيط المريح وبأسعار مخفضة. وحينما قامت ثورة المراق عرّض بعض الصهاينة شراء حائط المبكى

ولعل موضوع شراء فلسطين متطرق بعض الشيء، ومع هذا يمكن القول أن إدراك العربي كمحلوق اقتصادي ليس له حقوق سياسية أو وعى قومي كان معلماً أساسياً في الوجدان الصهيوني. ويؤكد والتر لاكير وغيره أن السياسة الرسمية للصهيونية في العشرينات (ويمكن أن نضيف وبعداً) هو عدم الدخول في مناقشات سياسية مع العرب وأن ينصب أي تفاوض على التفاوض الاقتصادي وعدم التعرض لطبيعة النظام السياسي.

وبلاحظ ان الاستراتيجية الإدراكية هن تهتف لإسقاط الطبيعة القومية لردة الفعل العربية لأنه لو تم تصنيفها على أنها قومية، لجم من ذلك الاعتراف بأن هذا التشكيل القومى له أرضى قومية وتراث قومى ومجال قومى ومجموعة من الحقوق القومية تنسف ادعاءات الصهيونية «القومية»

ومع هذا كانت القومية العربية تفرغ نفسها قرصاً على الإدراك الصهيونى كدافع محرك لمجماهير العربية، وهنا كان ينسب الصهاينة استراتيجيتين أخريين، هما فى جوهرهما تعتران أكثر حذاقة وصقلاً عن محاولة «تهميش» العربى ورمع الصبغة السياسية منه. أما الأولى فهى الاعتراف بالطبيعة القومية للشورات العنصرية مع تفسيرها تفسيراً يجردتها من مضمونها الإنسانى أو السياسى ويفصلها عن الحركات القومية المماثلة، وبالتالي تصبح قومية نافعة لاستحقاق أن تحصل على كل الحقوق القومية. «القومية العربية»- حسب هذا الإدراك- هى أساساً قومية محالقة عميلة للانجليز وللقرى الخارجية^(٢٨). (وقد أشرنا من قبل أثناء حديثنا عن العربى نمثلاً للآليات عن الإدراك الصهيونى للتمرد العربى كنتيجة لتدخل الفصل الروسى أو الإنجليزى أو الفرنسى أو الألمانى أو الإيطالى). كما أنهم أحياناً كانوا يرون القومية العربية على أنها مجرد «ردة فعل» للاستيطان الصهيونى ليس لها وجودها الحقيقى، وأنها محاولة سلب للصهيونية، ليس لها ديمامه ذاتية مستقلة^(٢٩).

كما كان الصهاينة العماليون يمثلون العالم الغربى الإنسانى وفكرة التقدم الاشتراكية يسمون القومية العربية بأنها قومية «رجعية»^(٣٠)، أو كما قال أرنولد تودور أنها قومية تهيمن عليها قوى الرجعية الاجتماعية والطمعان السياسى وأنها لم تنتج قيادات سياسية مثل من يات من الصين أو غاندى^(٣١)

أما الاستراتيجية الإدراكية الثانية هى مجاهدة القومية العربية كأمر واقع يعرض منه فرضاً، فهو الاعتراف بها كقومية كاملة مع تقليص مجال فعاليتها بحيث لاتنضم الفلسطينىين ويقول أحد مؤرخى الحركة الصهيونية أن إسهام وايزمان

الاسامي للرؤية الصهيونية للعرب تلتخص في تميزه بين العرب والفلسطينيين، إذ كان يرى إمكانية التوصل إلى توافق مع القومية العربية بل ومساومتها في مقابل أن يتحلى العرب عن مطالبهم في فلسطين^(٣٢). وكان هو أيضاً صاحب نظرية أن فلسطين جرة غير هام من الوطن العربي الكبير^(٣٣) وكان ارلوزوروف موافقاً على التعاون مع العرب، ولكنه كان مستثماً بخصوص التعاون مع الفلسطينيين^(٣٤) ويمكن أن يرى معارضات وايمان/ حسين ومعظم اتصالات الصهاينة مع العرب في هذا الإطار بل إن الصهاينة قدموا عام ١٩٣٠ مشروعاً، طرحه موشيه بيكسون، نائب رئيس تحرير دافار، وكان تأييد بن جوريون الحذر، هو في جوهره تعبير عن هذه الاستراتيجية. وكان المشروع يدعو إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين تكون جزءاً من اتحاد فدرالي يضم الشرق العربي بأسره، وفي هذه الدولة يكون الفلسطينيون أقلية ولكن الدولة ذاتها تشكل أقلية داخل الاتحاد العربي^(٣٥)

ولعل هذه لاستراتيجيات الإدراكية من أدنى الاستراتيجيات على الإطلاق وأكثرها فائدة ودهاءً وتعبيراً عن خصوصية الصهيونية كحركة استيطانية إحلالية لا تهدف إلى عرو العالم واستعباده (على طريقة النازية) ولا حتى السيطرة على العالم العربي، وإنما الاستيلاء على الأرض الفلسطينية وحدها دون ساكنيها. فعملية التمهيش هنا تصبح قاصرة على الضحية المباشرة وحسب، أي الفلسطينيين، دون حاجة لاستجلاب عدو الآخرين سواء في الشرق أم الغرب

العربي الغائب

يمعي من المعاني يمكن القول أن كل الاستراتيجيات الإدراكية السابقة هي من قبل محاولة تمييز العربي. فالعربي المتخلف، والعربي مثلاً للأعباء، والعربي الهامشي والذي ليس له حقوق قومية هو عربي مُعَيَّب مُفْتَقِد للحقوق الواضحة إن كل هذه المحاولات هي تعبير عن النزوع الصهيوني نحو إحصاء العربي وكما أسلفنا يصل الإدراك الصهيوني للعربي إلى دروته ولحظة تحفته السماجية في الإنكار الكامل لوجود العربي، فلا يُذكر بحير أو شر، ويتم إظهار عدم الاكترات الكامل به بل والتزام الصمت حياله. وهذه الرؤية للأحر مرتبطة برؤية النازي وهي

رؤية اليهودي الخالص - وهو اليهودي المطلق ذو الحقوق المطلقة الخالصة التي لا تتأثر بوجود أو غياب الآخرين بل إن وجود الحقوق اليهودية الخالصة يجعل حقوق الآخرين مجرد حقوق «خارجية وعرضية ومؤقتة» (٢٦)، وجودها مثل غيابها لا يؤثر في علاقة اليهودي بالأرض وحقوقه فيها. ومن هنا كان النضال الصهيوني بأن «فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، فمن عليها من بشر غائب لا وجود له، وإن كان له وجود فهو وجود عرضي وغير هام (أما اليهود فشعب بلا أرض لأن حقوقهم اليهودية الخالصة تربطهم برباط لا تنصم عنه، بهذه الأرض وهذه الأرض وحدها، مما يؤدي إلى تمسكك أوامر الارتباط بأية أرض أخرى) وكما قال بن جوريون إن فلسطين «بلد بلا سكان» (٢٧)، فامتلاك فلسطين ليس من حق السكان الأصليين، ولا يمكن للبشر يهوداً كانوا أم عرباً أن يتعاملوا من معنى هذا الفرار، لأن محور مشكلة فلسطين «وفقاً لما قاله بن جوريون» يتلخص في حق اليهود المشتتين في المردة (٢٨)، وهو حق مطلق قائم منذ بداية التاريخ وحتى آخره. ولذا يمكن أن يؤكد في خطاب له في أكتوبر ١٩٣٦ أنه لا يوجد أي صراع بين القومية اليهودية والقومية الفلسطينية لأن الأمة اليهودية ليست في فلسطين (بعد) ولأن الفلسطينيين ليسوا أمة (٢٩)

وقد مر بعض المفكرين الصهاينة هذا الإصرار على العربي العائد أنه ضرورة نفسية راسخة؛ لأن تحقق الصهيونية كان يعنى بالضرورة بقل (أو تعصيب) العرب (٤) ومواءة أكان ذلك ضرورة نفسية أم لا، فإن غياب العربي - كما أسلفنا هو المحور الأساسي وسفلة النخبة الكاملة للاستعمار الصهيوني الاستيطاني الإحلالي - الذي تتبع صهيويته (نقل الشعب اليهودي إلى أرض الميعاد) من إحلاليته (تفريغ الأرض من سكانها الأصليين). وذكر العرب، ولو في مجال التشهير بهم، هو اعتراف ضمني بهم، كما أن دعاءهم وراء مقولة الاعتبار بطوى أيضاً على لفظ من الاعتراف ونفس القول ينطبق على التهميش، إذ أنه يمكن رؤية دماء الضحية السائلة أما الإفعال الكامل فهو عملية منظمة للغاية إذ يتم الذبح كما يتم مواراة الجثة ١.

ورصد مقولة العربى العائب وتوثيقها أمر صعب للغاية؛ لأنه لا يمكن رصد وتوثيق ما هو عائب بالطريقة التقليدية من حشد الاقتباسات والنصوص وتحليلها. ومع هذا يوجد عدد كبير من التصريحات والمفاهيم الصهيونية لا يمكن فهمها إلا فى إطار مقولة العربى العائب. ويمكن أن يتخرج تحت ذلك كل هذا الحديث المستفيض عن «الأرض المقدسة» «إسرائيل» و«صهيون» و«أرض الميعاد» فهو حديث يستند فى نهاية الأمر إلى اعتراف صليب فلسطين العربية بعبارة مثل «أرض إسرائيل» تعيب كلمة «فلسطين» تماماً، وبالتالي تغيب الفلسطينيين، وتؤكد الرابطة العضوية والأولية بين اليهود وهذه الأرض. ولهذا نجد أن الصهاينة يكتبون دراسات «علمية» رصينة عن الجماعة اليهودية فى طريقة أو دور اليهود فى الدفاع عن القدس إبان الحروب الصليبية ويكتشف المرء فى طي مثل هذه الدراسات أن عدد ساكنى طبرية من اليهود لا يتجاوز المائة، وأنهم كانوا من المتصورين اليهود، وأن المدافعين لليهود عن القدس، إن كان هناك مدافعون، لا يتجاوز بضعة أشخاص، ولعلمهم وجدوا أثناء المعركة بالصدفة. ولكن هذه التواريخ «العلمية» تنظر هؤلاء باعتبارهم لأساس والجوهر وما عندهم من جماعات بشرية فلا أهمية تذكر لها وحديث عن استيطان المهاجرين من روسيا الفيصرية باعتبارها «عالياً» أى «صعوداً» وعهدهم باعتبارهم «مسيحيين» هو أيضاً حديث يعترض غياب العرب بل ويمكن القول أن المصطلح الصهيونى ككل (نقى، وعودة، تجميع المنفى، إلخ) يعترض هذا اليهودى الخائف الذى يعترض بدوره العربى العائب وحيثما يتحدث الصهاينة عن «التاريخ اليهودى» يتحدثون فى واقع الأمر عن تشكيل يهودى حضارى على مركزه أرض إسرائيل (أى فلسطين)، وأن تاريخ هذه المنطقة الجغرافية هو «تاريخ يهودى» وحسب، أما «التاريخ الأخرى» - سواء تاريخ الكنعانيين مئات السنين قبل النسل العربى - أم التاريخ العربى لمئات السنين بعد الفتح الإسلامى وتواريخ كل الأقوام الأخرى التى كانت تعيش فى أرض كنعان/ فلسطين فهذه كلها أمور ثانوية. والحديث عن «النقى والعودة» و«تجميع المنفى» هو تعبير عن نفس الرزية والإدراك قفى اليهود يعنى أن الوجود العربى هزماً مؤقتاً، و«العودة» تعنى ضرورة «الخروج» أو «النقى العربى»، و«تجميع المنفى» يعنى تشريد الفلسطينيين

إن أحرار صابرا وشاتيلاً كامة في الخطاب الصهيوني. وقد صدر بالغور من بعض المنطق والرؤية حينما تحدثت عن الغالبية الساحقة لسكان فلسطين في بداية هذا القرن باعتبار أنهم «الجماعات غير اليهودية». فالمنطق الصهيوني والاستعماري اتفقا على الإدراك وعلى المحط وهو تقييد العرب عن طريق «نهم» تحويلهم إلى كم مهمل (منهما كان حجمه) قابل للقتل وربما للإبادة إن منحت الفرصة. ومن هنا الحديث في كتابات الصهيونية حتى الآن عما يسمى «الترانسفير» أو نقل العرب أي تهجيرهم بالقوة، أي تضييقهم إن قراءة أي نص صهيوني ومهم أي برنامج صهيوني أمر صعب للغاية، إن لم يكن مستحيلًا، دون افتراض مقولة العرب العائب.

الصمت إذن يلبغ في حالة العرب الغائب، ولكن ثمة مصوص وبرامج سياسية صهيونية تصح رغم أنها عن مقولة العرب العائب الكامة، ويحدث هذا حينما يفرض العرب الاسريفي بمسح مرساً، كوجود موجود، ككيان بيولوجي من الصعب تجاهله - كجثة ترفض أن تلوث في السحب أو تحتفي تحت التراب. هنا يلجأ الصهيونية إلى تضييق. ومن الأمور التي لها دلالة عميقة أن كثيراً من المفكرين الصهيونية (من المسيحيين واليهود) الذين لم يكونوا قد احتكوا بعد بالعرب بل ولم يعرفوا بوجودهم الفعلي اقترحوا نقلهم أو إبادةهم وعلى سبيل المثال لا الحصر يمكن أن يذكر الحاجام كاتشر الذي لم يكن قد ذهب قط إلى فلسطين ومع هذا كتب عام ١٨٦٢ يتحدث عن «خطر المعصاة العربية»^(٤١)، وبدأ يفكر في طريقة إزاحتهم عن الطريق الصهيوني. ويمكن أن يذكر سير لودانس أولسمات ولورد وشاتشيري وغيرهم من الصهيونية المسيحيين الذين اقترحوا ضرورة نقل العرب ورضعوا الخطط لذلك. ومن بعد ذلك يمكن أن نشير إلى هرتزل هذا الليبرالي الرقيق الذي تحدث عن طرد السكان الأصليين سواء كان يتحدث عن مشروع استيطان صهيوني في قبرص أم فلسطين، ومن بعده نورداو، وزانجويل الذي اقترح تهجير العرب على نمط هجرة البوير إلى الترسفال وعلى نمط هجرة السيوانيين أو الأتراك كل إلى بلده^(٤٢). ولم يكل الصهيونية التمسحيون بطبيعة الحال والرؤية

عن تأكيد ضرورة «تطهير» الأرض ومن سكانها. وهي نفس العبارة التي استخدمها وايمان «العقلائي» وغيره من الصهاينة لوصف طرد الفلسطينيين العرب عام ١٩٤٨^(١٣). وعلى كل حال وايمان مد البداية يرى في نقل و تهجير العرب حلاً للمشكلة الصهيونية^(١٤).

أما بوروحواف المفكر الصهيوني، والذي يقدم اعتذريات اشتراكية ماركسية، فقد اقترح أن يكون مصير العرب هو الانصهار في المستوطنين الصهاينة، وهي طريقة تعيب ثورية اشتراكية منكزة^(١٥). وقد تبعه الممارسون العماليون مثل بن جوريون وموتركين وغيره. وقد قمت في كتابات أخرى، كما قام هيري، بتوثيق هذا الحجاب في الإدراك والمشروع الصهيوني، ولا يوجد أي مبرر لتكراره

ولكن يجب أن نؤكد مرة أخرى أن الصهاينة لم يكونوا منفردين في ذلك، فالمطلق السائد في التشكيل الإحصائي الغربي كان يستبعد الآخرين وبهمل كل حقوقهم نظرياً. وإذا كان إهدار الحقوق في حالة الصهيونية يأخذ شكل تهجير العرب، فإن هذا يعود إلى سمة الصهيونية ذاتها والتي تستمد خصوصيتها من طبيعة المشروع الصهيوني الخاصة. ولذا يجب ألا نفسر هذا الجانب من الإدراك الصهيوني تفسيراً أخلاقياً فتحت الصهاينة بأنهم أكثر شراً وانحلالاً خلقياً من الاستعماريين التبليبيين أو الاستعماريين الاستيطانيين العربيين، لأننا لو فعلنا لتصورنا أن المسألة تستند إلى الإرادة، وكأنه يمكن للصهاينة أن يتوبوا يوماً ما عن فعلتهم ويرعوا ويدوا الندم ويمودوا عما ارتكبوه من سوء، وبذلك يعيب عن إدراكنا مدى حدة الصراع وأبعاده البنيوية الموضوعية

اليهودي كعربي والعربي كيهودي

وقبل أن ملخص نتائج هذا القسم نود أن نذكر موضوعين أساسيين يستدعيان بعض التوضيح إن لم يكن لأي شيء فملى الأقل لطرافتهما، وإن كنا لا يمكن أن نذكر أيضاً إكنايتاهما التفسيرية والتحليلية، هذان الموضوعان الأساسيان هما اليهودي كعربي، ونقيضه العربي كيهودي.

والموصوعان رغم أنهما بقيصان إلا أنهما يعان من إحدى الأفكار الأساسية الثائرة في الفكر الصهيوني، وهي فكرة تصفية الدياسورا (أي أعضاء الأقليات اليهودية في العالم) وتجميع اليهود في الوطن القومي. فالصهيونية تنطلق من الإيمان بأن الدياسورا غير جذيرة بالبقاء. فيهود المنفى شخصيات حليمة مريضة طعميلة. وقد يجدر ذكره أن أدبيات معاداة اليهود تحتوي على نقد متكامل متماسك لما يسمى بالشخصية اليهودية، وقد أصبح هذا الانتقاد جزءاً من ترسانة الصهيونية الإدراكية التي طرحت نفسها على أنها الحركة التي ستطبع اليهود- أي تجعلهم قوماً طبيعيين وتحلصهم من الصفات السلبية المترصة المصيبة بشخصيتهم.

وقد تواتر المصوغ الأساسي الأول، أي اليهودي كمعربي، في الكتابات الصهيونية التي صدرت قبل أن تتحدد معالم المشروع الاستيطاني الصهيوني تماماً، وقبل أن تتبلور خريطته الإدراكية، وقبل أن يتحول العربي إلى الآخر (ولعل هذا قد حدث بعد وعد بالمرور). وفي هذه المرحلة كان من الممكن النظر إلى العربي على أنه الشرقي ويمثل الأعباء والأصحاء الذي يمكن التشبه بهم والتوحد معهم للشعب من أمراض المنفى. وحسب هذا الإدراك يتحول العربي إلى رومانسي تحيطه غلالات أسطورية كثيفة^(٤٦) ويبدو أن بعض المستوطنين الصهاينة الأول، انطلاقاً من الرؤى الرومانسية التي كانت سائدة في أوروبا آنذاك، كانوا ينظرون إلى استيطانهم فلسطين على أنه نوع من «العودة إلى الشرق» الطاهر (في مقابل القرب المساس الملوث بالشرور). وأن «العربي» هو الحكيم الذي سيعلمهم كل الأسرار ويأخذ بيدهم ويهديهم سواء السبيل. وقد تبسبى هذه الرؤية أحد رعماء موجة الهجرة الثانية، مانير ويلكانسكي، وتبعه في ذلك حوزيم لويبور (صديق الرعيم الصهيوني حاييم برنو والذي حر صريماً مع صديقه في إحدى المعارك مع العرب) ويلاحظ أن أول جماعة عسكرية صهيونية والتي كانت تدهي الهاشومير كانت ترتدى زياً عربياً وأن بعض أعضائها كانوا يحشون مع الدوا ليعلموا طرقهم

وكان الادب الصهيوني في هذه المرحلة الأولى معهم بهذه الرؤية الرومانسية فكتب موشيه سميلانسكي الكاتب الصهيوني سلسلة من الكتب تحت اسم مستعار هو «الخواجه موسى» يصور فيها -ويعجبنا شديد- حياة الفلسطينيين الذين تحولوا في هذه الكتب إلى سلو ورعاة جائلين يدفرون القارئ يشخصيات العهد القديم. وفي قصة قصيرة كتبها زئيف باقتس عام ١٨٩٢ يرد وصف لطفل يهودي في مشوطة نتاج تكما يتعلم من العرب كيف يدرب جسد على «الحرارة والمصقيع وعلى الفصانات والفتحة».

ومن أكثر الأمثلة تطرفاً وطرافة مسرحية آرييه أورلوف/ أورلي التي نشرت عام ١٩١٢ في مجلة هاشيلواح (لسان حال الحركة الصهيونية في روسيا والتي كان يحررها ويصدرها آحاد همام في أوديسا) تصور مسرحية جماعة من المستعمرين الرواد من موجة الهجرة الثانية كانوا يعيشون في مزرعة جماعية. وبطلة المسرحية هي المستوطنة الصهيونية ناعومي التي ترفض حب اثنين من زملائها وتؤثر عليهما دائماً جزئياً عربياً يدعى عليا ١ وحيما يقتل أحد الرواد شاباً عربياً ينتقم على لصنيمة العربي المذبوح بأن يقتل الصهيوني ١ ولكن حتى هذا الفعل لا يعبر من حب ناعومي له وتنتهي المسرحية بمبولوج عاصف تقول فيه ناعومي محاطة إخوانها الصهاينة «إن روعي تحتفركم أيتها الديان المتحضرة لقد تعلمت من العربي الصاري شيئا، لقد تعلمت من هذه الكلمات الله كريم (وهذا هو عنوان المسرحية)».

ويبدو أن هذا التيار كان شائعاً لدرجة كبيرة حتى أن مجلة هاشيلواح نشرت مقالاً لجورجيف كلاورير، الناقد الصهيوني، وجه فيه اللوم للكاتب الصهاينة المستوطنين في فلسطين «الذين يصورون كل اليهود في فلسطين كمتحذرين العرية يشبهون العرب في كل شيء» وقد استمر هذا التيار وأحد شكلاً منابراً وهو الدعوة إلى الوحدة السامية والإيمان بأصول العرب واليهود السامية المشتركة والتي عبر عنها فكر الحركة الكنعانية التي انتشرت بعض الوقت بين المثقفين الصهاينة (٤٧).

ويجب ملاحظة أن هذا الموقف من العربي كبدوي وكطل رومانسي يتسم هو الآخر بفكر كبير من التجريدية، فالعربي هنا ليس إنساناً حقيقياً تاريخياً وإنما مقولة رومانسية مجردة ليس لها حقوق متينة. كما أن العربي هنا ينوي أي إنسان متفعل غير مرتبط بالأرض، الأمر الذي يحل المصالح الصهيونية ولا شك. فتمجيد العربي هو في واقع الأمر فصل له عن أرضه وعزله عن إنسانيته المتينة ليصبح شيئاً يشبه الآثار الساكنة (التي سميها الأنثيكة هي مصر) والصهيونية هي هذا مرة أخرى لا تختلف كثيراً عن العنصرية العربية، التي كانت لا تمنع متناً في الإعجاب «بالماضي التليد» والامجاد العابرة، طالما أنها تظل شيئاً متحياً مثل الآثار العرهابية لا علاقة لها بالواقع، وطالما أنها لا تستخدم كمؤشر على ما يمكن لصاحب هذا التراث أن ينجزه في المستقبل.

لما مقولة العربي كيهودي فهي أكثر وضوحاً فصح إذا ما نظرنا لكثير من المقولات الإدراكية السابقة العربي كمثقف ونهميش العربي والعربي كحيوان اقتصادي، والسحري كشخص يحركه التعصب الديني، والقومية العربية كقومية عميلة للإجبار، للاختنا أن هذه هي ذاتها صفات اليهودي هي أنبيات معاداة اليهود في العرب، والتي كانت تهدف لإسقاط حقوق اليهود وطرده باعتباره شخصية طفيلية هامشية هير مستتمة وإلى إبادته في نهاية الأمر. وكما قلنا كانت هذه المقولات جزءاً من ترسانة الصهيونية الإدراكية نشبت بها ونبتتها وصفتها على الآخر أي يهود المنفى، ثم أسقطتها على الآخر الآخر، إن صبح التعبير، الآخر مضاعف الآخرية، أي العربي، كمحاولة لتحييه ونهميشه وطرده وإبادته واجتثاث علاقته بالأرض، تماماً كما فعل المصادون لليهود باليهود داخل التشكيل الحضاري الغربي.

تلخيص وتناج

١- تأخذ الخريطة الإدراكية أو الطيف أو التصل الإدراكي الصهيوني للعرب الشكل التالي:

العربي الخفيف- العربي المتحلف- العربي ممثلاً للأغيار- العربي الهامشي- العربي العائب، ويلاحظ الاستبعاد التدريجي عن العربي الحقيقي والوصول إلى الدوة ومقطة التحقق وهي العربي العائب عبر درجات متزايدة التجريد.

٢- يلاحظ أن ثمة تلازم لرؤية الذات ورؤية الآخر، ففي مقابل اليهودي يمثل الحضارة العربية وحامل مشعلها يوجد العربي الشرقي المتحلف، وفي مقابل اليهودي الخائن صاحب الحقنق المطلقة نجد العربي العائب الذي لا حقوق له على الإطلاق لأنه غائب تماماً من منظور الأرض المقدسة.

٣- أطلقنا على هذا الإدراك أحياناً إستراتيجية إدراكية لا لأنه طريقة مستعمدة في الإدراك (من وجهة نظر هذا البحث لا يهم سواء أكان الإدراك واقعياً أم غير واقع) وإنما لأنه إدراك تصوري وتخلده مصالح المدرك وتحييزات ومشروعه الاستيطاني. وقد كان هذا الطيف الإدراكي أساسياً بالنسبة للصهاينة فقد ردهم بإطار تفسيرى وفسر لهم الواقع بطريقة تتناسب مع هذه المصالح وسرع لهم عمليات الاغتصاب والاقتلاع والشمع وأحياناً الإساءة، بل وحولهم إلى انضعية من وجهة نظرهم، وبالتالي أمكنهم الاستمرار في إنجاز مشروع استيطاني يتم بالشراسة الفريدة إذ لا يعرف مشروها استيطانياً إحصائياً آخر في القرن العشرين.

٤- حاولنا في هذا الفصل أن نبتعد عن عملية التشهير بالصهاينة وهي عملية أثيرة لدى الكثير من الكتاب العرب في حقل الصهيونية، فالتشهير له طبيعة عملية إعلامية وله أهمية شعبية بالنسبة للجماهير أو في مجال تحسين الصورة في الخارج ولكنها لا تفيد كثيراً في عملية فهم الآخر والتنبؤ بسلوكه، وهو أمر

أساسي في عملية إدارة الصراع. ومعتقد أن صنائع الفرار العربي لابد وأن يأخذ الإدراك الصهيوني العربي في الاعتبار؛ لأن هذا الإدراك أحد المكونات بل والمحددات الأساسية للكيان الصهيوني. وأعتقد أن فشل مخابرات العدو عام ١٩٧٣ في التنبؤ بالهجوم العربي المجيد إنما كان نتيجة جمودهم الإدراكي، إذ أن الإنسان في نهاية الأمر يقع صريع تحيره، والعربي الحقيقي القادر على أن يهض وأن يملك ناصية الأسلحة الحديثة ويوقع الهزيمة بالمعتصب ليس جراً من ترسانة الصهاينة الإدراكية، ولذا لم يتوقع العدو ولم «ير» رغم أنه كان «يشاهد ويراقب ويسجل».

ومع هذا، هل يبطل الإنسان الصهيوني قائماً داخل تحيره، أم أنه شمة لحظات إدراك للإنسان العربي الحقيقي؟ وما نتائج هذا الإدراك؟ وما هو أثر الإدراك الصهيوني الذي تشكل قبل عام ١٩٤٨ على الاسرائيليين؟ هذان هما السؤالان اللذان سأحاول الإجابة عليهما في الفصل الثاني من هذا الكتاب

- 1 - Richard Crossman, **A Nation Reborn: The Israel of Weizman, Bevin, and Ben Gurion**, (London: Hamish Hamilton, 1969), P.58

٧ - نفس المرجع

- 3 - Rapael Patai, ed., **The Complete Diaries of Theodore Herzl**, (5 vol), (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), Trans. Harry Zohn, vol. 3, p.1361

سيشار إليه من الآن فصاعداً بـ «يوميات هرتزل»

- 4 - George Jabbour, **Settler Colonialism in Southern Africa and the Middle East** (Beirut: Palestine Liberation Organization Research Center, 1970), p.28.

٥ - يوميات هرتزل، الجزء الأول، ص ٣٤٣، ٣٣٨

- ٦ - صبرى جريس، تاريخ الصهيونية، الجزء الأول - لاسيروت . منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، (١٩٧٧)، ص ١٣٩

- 7 - Walter Lacquer, **A History of Zionism** (New York, Holt, Rinehart and Winston, 1472), p.217.

سيشار إليه من الآن فصاعداً بكلمة «لاكير».

- 8 - Simha Flapan, **Zionism and the Palestinians** (London: Croom, Helm, 1979), p.55-56

سيشار إليه من الآن فصاعداً بكلمة «فلابان»

٩ - نفس المرجع، ص ٣٩.

١ - نفس المرجع، ص ٢٦.

١١ - نفس المرجع، ص ٧١.

- 12 - Harry Truman, **Memoirs 2 Vols**, (Garden City, New York: Doubleday, 1955), Vol I, p.159.

١٣- فلايان، ص ٦٤

١٤- نفس المرجع.

15 - Amos Elon, *The Israelis: Founders and Sons* (New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1971), p. 172.

16 Ehud Ben Elzer, ed., (New York: Quadrangle The New York Times Book, 1974), 183

سيشار اليه من الآن فصاعداً بكلمه عين عيزر.

١٧ - لأكير، ص ٤٧

١٨ - فلايان، ص ٥٦.

١٩- بن عيزر، ص ٣٢٤-٣٢٥

٢٠- لأكير، ص ٢٤٧.

٢١- نفس المرجع.

٢٢- نفس المرجع، ص ٢٥٠.

٢٣- فلايان، ص ١٩.

٢٤- نفس المرجع، ص ٦٩.

٢٥- لأكير، ص ٢١١.

٢٦- فلايان، ص ٦٥.

٢٧- نفس المرجع، ص ٢٦

٢٨- نفس المرجع، ص ٦٥

٢٩- نفس المرجع.

٣٠- لأكير، ص ٢٦٣

٣١- نفس المرجع، ص ٢٥٨

٣٢- فلايان، ص ١٩، ٣٩.

٣٣- نفس المرجع، ص ١٩.

٣٤- لأكير، ص ٢٥٨.

٣٥- ميمري جريس: السنوات الخمس السمان في تاريخ الوطن القومي اليهودي في فلسطين (١٩٣١-١٩٣٦)، ٤- محاولات التفاهم مع العرب، شئون فلسطينية (نور- أغسطس ١٩٨٥) ص ٤٩

36-Meir Ben-Horin, Max Nordau:Philosopher of Human Solidarity (New York Conference of Jewish Social Studies, 1956),p. 199

٣٧ - ايلون، ص ١١٥.

38 - David Ben Gurion, Rebirth and Destiny Of Israel, (New York,Philosophical Library, 1954)p.38.

٣٩- فلايان، ص ١٣١.

٤٠- بن حير، ص ٢٠٣.

٤١- لأكير، ص ٢١٠.

٤٢- نفس المرجع، ص ٢٣١.

43 - Abdelwahab M Elmessiri, The Land of Promise: A Critique of Political Zionism (New Brunswick, New Jersey North American, 1977),p. 143.

٤٤- فلايان، ص ٨٢.

45 - Shlomo Avineri, The Making of Modern Zionism: The Intellectual Origins of the Jewish State (London. Weidenfeld and Nicolson, 1981),pp. 139-150.

46 - Amnon Rubinstein, The Zionist Dream Revisited: From Herzl to Gush Emunim and Back (New York Schocken Books, 1983),pp.56-60.

مشير إلى هذا الكتاب من الآن فصاعدا بكلمة «روشتاين»

٤٧- لأكير، ص ٢٢٨.

٢- الاستجابة الصهيونية للعربي الحقيقي

من أوائل المعكرين الصهيونية الذين أدركوا العربي كإنسان حقيقي تاريخي، المفكر الصهيوني الروسي آحاد همام، الذي أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى احتجاجه ضد البغاية على طريقة معاملة الصهيونية للعرب وقد نههم إلى أن العرب - على عكس ما تدعى الأسطورة الصهيونية- ليسوا غائبين، وهاجم مقاطعة الصهيونية للعمال العرب (في خطاب له بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩١٣)^(١)، واعتارها محاولة صارخة لتهميشهم وتغييبهم. وقد وصل إدراك آحاد همام الذروة حينما أدرك المخاض الروسي أن حلم العودة إلى صهيون، كما فسره الصهيونية، وكما أحد في التحقق يؤدي إلى تدمير نوابها بدم الأبرياء- أي أنه رأى الحفة التي يحاول الصهيونية إخمادها - ولذا فعلى الرغم من أن فكر آحاد همام فكر عنصري يتشوى إلى أقصى درجة (فهو صاحب فكرة اليهود «كسوير أمة» ، وهو صاحب فكرة تحول فلسطين إلى مركز ثقافي لليهود واليهودية) إلا أن العربي الحقيقي فرض نفسه فرضاً علي وعيه ولذا لم يملك المخاض إلا أن يقول: إن الله قد أنزل بي العذاب إذا مد في حياتي حتى أرى بعيني رأسي، أنني قد جئت عن عبادة الصواب إذا كان هذا هو الماشياح (المسيح المخلص اليهودي)، فإني لا أود رؤية هودته؟^(٢)، أي أنه لا يود رؤية تحقيق الحلم (أو الكابوس) الصهيوني- فتحقيق الحلم يعنى تغييب العربي، وتغييب العربي، كما رأى هو نفسه، يعنى القتل والقتال والدماء المازقة.

حزب الفلاحين

ومن أهم المعكرين والمستوطنين الصهيونية الذين تحطوا التحير الإدراكي الصهيوني ورأوا العربي في كل تركيبته التاريخية والإنسانية إسحق إشتاين، أحد كبار المسؤولين عن الاستيطان الصهيوني في فلسطين، والذي حذر الصهيونية من سطوتهم وعجزهم عن العوص لباطن الأمور^(٣)، والذي حاول أن يبين لهم أن الحق قد يكون في جانبهم من الناحية القانونية (السلطوية) ولكن الموقف يصبح أكثر تركيبياً إن تمت رؤيته في إطار سياسي أخلاقي^(٤).

وقد حذر ابشتاين في محاضرة له ألفاها على بعض مندوبي المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) (وشرت فيما بعد في هاشيلواح عام ١٩٠٧) حذر من الموقف الصهيوني الشائع (التبريري في واقع الامر) القائل بأن فلسطين غير مملوكة سبب نقص في الأيدي العاملة أو كسل السكان، ويؤكد أنه ليس هناك حقول مغمورة، بل على العكس، يحارب كل فلاح أن يضيف إلى أرضه من أرض البور للمحاورة لها وعندما تشتري قطعة أرض كهذه، نبعث منها مزارعيها السابقين تماماً فنحرم بهذا أشخاصاً بالأسى من ممتلكاتهم الصبيلة وسلب لقمة عيشهم. ولا يزال حتى اليوم يرث في أدنى نحب النساء العربيات عندما تركت عائلاتهن قرية الجاعونة، وهي مستوطنة روش ييبا، وانتقلن للسكن في حوران شرقي نهر الأردن. فقد ركب الرجال على الحمير ومشت النساء وولدهم ماكينات، يملأ السهل نحيبهن ولحظات وقوا وقلوا الحجارة والتراب. إن شراء [أراضيهم] على هذا الشكل يترك في قلوبهم جرحاً لا يندمل. وسيذكرون دائماً ذلك اليوم الملعون الذي انتقلت فيه أملكهم إلى أيدي الغرباء. لأنه إذا كان هناك فلاحتون يروون حقولهم يحرقهم وحليبيهم، فهم العرب. وفي النهاية سيعملون على استرجاع ما سبته منهم قوة الذهب. وبعد أن يرسم ابشتاين صورة الملاح العربي الحقيقي الذي يحب أرضه، ويكد ويتعب من أجلها، يصممه في إطار سياسي عربي تاريخي واسع: «وهذا الشعب، والذي لم تستفد المدينة حتى الآن قواه وتصعقه، ليس إلا جزءاً صغيراً من الشعب الكبير الذي يسيطر على كل المناطق المجاورة سوريا والعراق والجزيرة العربية ومصر. ولهذا من المستحسن أن نعرف من هو الفريق الآخر. وإن نأخذ بالحسبان قوتنا والقوى التي تواجهها يمكننا القول أنه، حتى الآن على الأقل، لا توجد حركة عربية بالمفهوم القومي والسياسي لهذا التعبير ولكن لا حاجة لهذا الشعب لمثل هذه الحركة، إنه كبير وكثير ولا حاجة لبعثه، لأنه لم يمت أبداً، ولم ينقطع وجوده يوماً، ويقف في تطوره الجسدي كل شعوب أوروبا. يبقى إلا يستنف بحقوقه، وألا نستغل صده حيث بعض أحوته الذين يظلمونه. لا تهرشوا بأسمائهم ولا تأمسوا جانب الرعاد الذي يغطي الجمر، فقد

تنطلق شرارة نسب حريقاً لا يطاق. ولم يكف اشتباي بالشكوى والنحيب على طريقة أحاد عمام بل قدم توصيات محددة ماقتراح على المستوطنين ممارسة نشاطهم الاستيطاني في فلسطين من خلال اتعاقي مع «حرب العلاحين» وبعد الحصول على موافقتهم، لأنهم أكثرية سكان البلد^(٥). كما اقترح محاولة إقامة تحالف عربي صهيوني بدلاً من التحالف التركي الصهيوني المقترح آنذاك^(٦).

ويلاحظ أن إدراك اشتباي للعربي يختلف جذرياً عن الإدراك الصهيوني العام، وكان إدراكنا ولاشك شجاعاً لم يحاول تهميش العربي أو تضييقه ولم يحثي وراء أية مقولات صباية كاذبة، إذ اعترف بحقيقة القومية العربية والطامع السياسي القومي للنضال الفلسطيني، وبين عباد مقولة «شراء فلسطين»

ولم يكن إدراك العربي الحقيقي أمراً قاصراً على الشخصيات الصهيونية المهمة أو الهامشة مثل أحاد عمام أو اشتباي، بل إننا نجد أن كثيراً من زعماء الصهيونية ومكبريها قد عاشوا لحظة الإدراك هذه. فهرتزل على الرغم من عمق سطحته (إن صح التعبير) وعلى الرغم من عدم فهمه لكثير من الأفكار السياسية في عصره كان قادراً على إدراك تاريخية الواقع العربي وتركيبته، فحينما كان في القاهرة يتماوص بخصوص واحد من مشروعاته الاستيطانية الكثيرة استمع إلى محاضرة عن الري، ويسلو أنه رأى بعض العرب المصريين واستمع لأستلتهم، فكتب يقول: «إن المصريين هم سادة المستقبل هنا. ومن العجيب أن الإنجليز لا يرون ذلك، فهم يعتقدون أنهم سيتعاملون مع العلاحين إلى الأبد». ثم أحد هرتزل بعد ذلك يصف كيف أن الاستعمار ذاته يخلق الحضوثة التي تقضي عليه. وذلك لأنه «يعلم العلاحين الثورة»^(٧). ثم أذى هرتزل دهشته لفشل البريطانيين في إدراك هذه الحقيقة السطية. ونلاحظ هنا أن هرتزل لا يجري العرب أمامه إلى مسلمين ومسيحيين أو أثرياء أو فقراء، وإنما يدرك وجود تيار تاريخي له ماضي وحاضر ومستقبل، وأنه تيار سياسي قومي يهدد أعتى الإمبراطوريات

حرب وليس إرهاب

وحى من جوربون ذاته لم يفلت من لحظة الإدراك هذه. ففي عام ١٩٣٨ كتب التقييم المستفيض التالي لثورة الفلسطينيين آنذاك، والذي سقته يرمته بطلا لأهميته «انتداء أحب أن أبدأ كل الأوهام التي سادت بين الرفاق بين الإرهاب [العربي] هو مسألة مجموعة من العصابات ممولة من الخارج . نحن هنا لانجابه إرهاباً وإنما مجابهة حرباً، وهي حرب قومية أهلناها العرب علينا. وما الإرهاب سوى إحدى وسائل الحرب هذه مقاومة فعالة من جانب الفلسطينيين لما يعتبرونه اغتصاباً لوطنهم من قبل اليهود- ولهذا يحاربون ووراء الإرهابيين توجد حركة قد تكون بذاتة ولكنها ليست حالية من المثالية والتضحية بالذات. ومنذ زمن الشيخ عر الدين القسام أصبح واضحاً لي أننا مجابهة ظاهرة جديدة بين العرب. هذا ليس الشاشيبي أو المفتي، هذه ليست مسألة مصالح سياسية أو مالية شخصية إن الشيخ القسام كان زيلوتياً [يهودياً دينياً]، على استعداد للتضحية بحياته من أجل مثل أعلى ونحن اليوم لانواجه واحداً وحسب مثله وإنما مواجهه الثبات بل الآلاف [أمثاله] ووراءهم كل الشعب العربي نحن نقتل من أهمية المعارضة العربية في أحداثنا السياسية في الخارج، ولكن يتبع علينا ألا نتجاهل الحقيقة فيما بيننا إن احتراماً للحقائق السياسية هو الذي يجعلني أصر على ذكر الحقيقة. والاعتراف بهذه الحقيقة يؤدي بنا إلى نتائج حتمية وخطيرة بخصوص عملنا في فلسطين. يجب ألا نبني الآمال على أن العصابات الإرهابية سينال منها التعب، إذ إذا ما نال من أحدهم الشعب، سيحل آخرون محلّه فالشعب الذي يحارب ضد اغتصاب أوطانه لن ينال منه التعب سريعاً فمن الأسر لهم أن يستمروا في الحرب ولا يكلوا ولا يتعبوا مما هو بالنسبة لنا والعرب الفلسطينيون ليسوا بمجردهم، فالسوريون سيمدون لهم يد المساعدة فمن وجهة نظرنا هم عرباء، ومن وجهة نظر العائون هم أجانب، ولكن بالنسبة للعرب هم ليسوا أجانب على الإطلاق . إن مركز الحرب هو فلسطين، ولكن أبعادها أوسع من ذلك بكثير. وحيثما يقول إن العرب هم البادئون بالعذوان ويدافع عن أنفسهم- فلما يذكر مصف الحقيقة وحسب، فالنسبة لامتنا وحياتنا، نقوم بالدفاع عن أنفسنا، ووضعنا المعمور والحسدى ليس شيئاً . ويمكننا مواجهة العصابات. . وإذا ما سمح لنا بشحنة كل

قوانا فإنه لا يوجد أدنى شك بالنسبة للنتيجة ولكن القتال ما هو إلا جانب واحد للصراع الذي هو صراع في جوهره سياسى. ومن الساحة السياسية نحن البادئون بالسودان وهم المداقمون عن أنفسهم. إن الأرض أرضهم لأنهم قاطنون فيها بينما نحن نريد أن نأتى ونستوطن، وبأحدها عنهم، حسب تصورهم. يجب ألا ننظر أن الإرهاب هو نتيجة لدعابة هتلر أو موسوليسى - قد يكون هذا عاملاً مساعداً، ولكن مصدر المعارضة يوجد بين العرب أنفسهم^(٨)

وقد اقتبسنا كلمات بن جوريون بشئ من التفصيل نظراً لجديتها وجدتها، فتحليل بن جوريون للوضع في فلسطين لا يختلف إلى حد كبير عن أى تحليل ثورى عربى أو إسلامى لطبيعة الصراع وهو يضع القضية في إطارها السياسى القومى الصحيح، ويراها في بعدها التاريخى- فى الماضى والحاضر والمستقبل والأكثر من هذا تبدل كلماته على احترام لعدوه وعلى تمييز بين الأصلية والشيوخ من جهة (أى القيادات التقليدية) والقيادات العدائية الجديدة من جهة أخرى.

وقد غير موشيه شاريت هو الآخر فى أحاديثه وبياناته وخطبه عن إدراكه للحرى الحقيقى. ففي خطاب له فى ٩ يوليه ١٩٣٦ أمام اللجنة السياسية لحزب الهاياى عرّف الثورة العربية بأنها ليست ثورة الأفندية الذين ينادمون عن مصالحهم الشخصية إنما هى ثورة الجماهير التى تمثلها المصالح القومية الحقة، وأصاب أن الفلسطينيين يشعرون أنهم جزء من الأمة العربية التى تضم العراق والنجار واليمن، فلسطين بالنسبة لهم هى وحدة مستقلة لها وجه عربى، وهذا الوجه أحد فى التعبير، محيماً من وجهة نظرهم كانت بلده عربية، وهامى ذا قد أصبحت يهودية. ورد الفعل لا يمكن أن يكون سوى المقاومة. وفى ٢٨ سبتمبر من نفس العام، كان شاريت قاطعاً فى تشخيصه للحركة العربية على أنها ثورة ومقاومة قومية وأن القيادة الجديدة تختلف عن القيادات القديمة^(٩)، كما لاحظ وجود عناصر جديدة فى حركة المقاومة. إشتراك المسيحيين العرب بل والنساء المسيحيات فى حركة المقاومة^(١٠)، كما لاحظ تعاطف المثقفين العرب مع هذه الحركة، وبين أن من أهم دوافع الثورة هو الرغبة فى إنقاذ الطابع العربى الفلسطينى وليس مجرد معارضة لليهود^(١١).

بين الإدراك والسلوك

من كل ما تقدم يمكن القول أن إدراك الصهاينة للعربى كان يتخطى في بعض الأحيان التحيز والمصلحة المباشرة وسُحِبَ الاعتذاريات ليصل إلى الحقيقة التاريخية الحية. ومن هنا يطرح السؤال نفسه، لِمَ لَمْ تعد هذه الملاحظات الإدراكية، رغم مدرونها، تشكيل الرؤية الصهيونية؟ وإن لم تعد تشكيلها، لِمَ لَمْ تدخل عليها قدراً من التركيبة على أقل تقدير؟

لعل الإجابة على هذا السؤال عسيرة بعض الشيء لأننا هنا لانتعامل مع عالم الأفكار ولاحتي مع كمية شونها وتحددتها واكتسابها ملامح محددة، ورغم تعامل مع مدى تأثير الأفكار في الواقع، وهذه الرقعة التي تلتقي فيها الأفكار بالواقع رقعة مبهمة غامضة ضبابية ليس لها قوانين محددة، وإن كانت تحكمها قوانين ما، فهي لم يتم اكتشافها بعد.

ومع هذا من يصيبنا القنوط ومنحاول أن نجيب على الأسئلة التي طرحناها، ولكن يسمى مع هذا أن نبيه القارئ للطبيعة الدخيلة لمحاولتنا التفسيرية ويجب أن يؤكد ابتداء أن الإدراك مهما كان عميقاً وجذرياً لا يترجم نفسه بالضرورة إلى فعل فاصل أو سلوك بعينه. وإذا أردنا أن نكون أكثر حيادية ووضوحاً قلنا إن الإدراك الجذري، باعتباره أنه يصل إلى الواقع وجذوره، جذري وحسب، وقد يؤدي إلى راديكالية ثورية نطمح إلى تغيير الواقع أو إلى راديكالية قاضية تحاول الحفاظ عليه بكل شراسة. ويمكن لإدراك ما أن يتحدى الرؤية القائمة ولكنه يمكنه أيضاً أن يعتمدها، ويتوقف ذلك كله على مركب هائل من العوامل التاريخية والسياسية والاجتماعية والنفسية والعصية. ولذا رغم أن إدراك العربى الحقيقى يمثل لحظة كشف لبعض الحقيقة بالنسبة لكل الصهاينة، إلا أنها تترجم نفسها إلى استجابات صهيونية وأشكال سلوكية متباينة مسحاولة دراستها بتفسيرها إلى ثلاث أنماط أو نماذج

(١) هناك نمط من الصهيانية أدرك طبيعة الجرم الكامن في عملية تعيب العرب هذه فتكر لسوقية الصهيونية تماماً وتسخرها، وعاد إلى أوروبا. وهناك كثيرون من حرب بوهالي صهيون (عمان صهيون) عادوا إلى الاتحاد السوفيتي بعد الثورة البلشفية حتى يشاركوا في الثورة الاجتماعية وحتى لا يشاركوا في الإرهاب الصهيوني. ولكن هؤلاء فئة مادرة على ما يبدو، وعلى كل فإنهم يحتسبون تماماً من التواريخ الصهيونية ومن الإدراك الصهيوني (اليهودي الغائب؟). ولذلك فهم لا يؤثرون من قريب أو بعيد في البرنامج السياسي الصهيوني أو سلوك الصهيانية نحو العرب. ولكن لعلنا لو أعدنا كتابة تاريخ الصهيونية وفتشنا عن هؤلاء الغائبين لوجدنا أن هذا النمط أكثر شيوعاً مما نتصوره، ولعله قد يكون من المفيد والطريف في ذات الوقت أن يقوم أحد الباحثين العرب بكتابة دراسة في هذا الموضوع

(٢) وهناك نمط ثان من الصهيانية أدرك العرس الحقيقي ولكنه لم يطرح رؤيته الصهيونية جانباً، وبدل محاولات بائسة أن يعيد صياغة المشروع الصهيوني بطريقة تشويع وجود العربي الحقيقي وتأخذ في الحسبان. ولكن من الملاحظ أن مثل هذه الشخصيات تحولت بالتدريج إلى شخصيات مبهمة وهامشية، من وجهة نظر صهيونية، تنتمي إلى منظمات هامشية وتذافع عن رؤية هامشية لا تؤثر على المركز أو الممارسات الأساسية. ولعل سيرة ابشتاين وآرثر روبين (وهو مسئول صهيوني آخر عن الاستيطان) وغيرهم خير دليل على ذلك. هؤلاء الصهيانية، نظراً لاحتكاكهم الدائم بالواقع العربي، أدركوا مدى تركب الموقف فطرحوا صيفاً مركبة نوعاً مثل الدولة ثنائية القومية وطالبوا بالتعاون مع الحركة القومية العربية وأسسوا جمعية برت شالوم ثم جمعبه إسحود لإجراء حوار مع العرب يعترف بهم ككيان قومي ولا يتعامل معهم كمجرد مخلوقات اقتصادية. ولكن المحاولات كلها ظلت في نهاية الأمر تعبيراً عن صميم معتقد أكثر منها ممارسات حقيقية. ولعل يهودا ما جيس من أكثر الشخصيات المماوية في تاريخ الصراع العربي الصهيوني، فقد أدرك

الحلل العميق في وعد بالفور منذ البداية بإنكاره وتعييبه للعرب، وأدرك مدى عمق الصراع المحتمل بين المستوطنين الصهاينة والعرب؛ ولذا قضى حياته كلها يحاول أن يصل إلى صيغة صهيونية تثيرها لحظة الإدراك المادية دون جدوى وانتهى به الأمر أن تنكر له مجلس الجامعة العبرية التي كان يترأسها (الصهيوني الهامشي؟).

ويمكن أن نذكر في هذا السياق أحاد معام نعسه الذي تعلم أن يعيش مع التنافس الحاد، بعد أن رأى الدماء العربية الازفة وبعد أن ولول، وكأنه أحد أنبياء العهد القديم، يستمطر اللعنات على شعبه لم اقترف من آثام، ومع هذا مجده بعد ذلك في لندن مستشاراً لحاييم وايزمان، في العترة التي مسقت إصناز وعد بالفور، بذلى له بالصيغة بخصوص كيفية الاستيلاء على فلسطين، ولا يذكره من قريب أو بعيد بالعربي الحقيقي أو بالدماء الازفة وينتهي به المطاف أن يستقر هو ذاته على الأرض الفلسطينية، بكل ما يحمل ذلك من معان اغتصاب وقهر. ولكنه حتى وهو في فلسطين، بعد وعد بالفور، ظلت نحامه الشكوك بخصوص المشروع الصهيوني وظل موقفه مبهما حتى النهاية

وهكذا نجد أن محاولة إعادة صياغة الرؤية الصهيونية وتأكيد وجود العربي الحقيقي أدى إلى تهميش مثل هؤلاء الصهاينة ودفع بهم بعيداً عن المركز وعن مجال صنع القرار، ولذا لم تظهر سياسة صهيونية فعالة لتجسد الإدراك الصهيوني للعربي الحقيقي ١.

(٣) وهناك أخيراً النمط الثالث، وهو أكثر الأنماط شيوعاً وهو النمط الذي يؤدي إدراكه للعربي الحقيقي إلى مزيد من الشراسة الصهيونية.

وهنا يجب أن نطرح هذا السؤال: لم هذه الاستجابة الشرسة من جانب هؤلاء؟ والأهم من ذلك: بم نفس شيوخ هذا النموذج؟ ومرة أخرى سنجادل أن نطرح التفسيرات الأخلاقية جانباً، فهي تفسيرات نهائية مطلقة ولن يعيدنا كثيراً أن نقول أن استجابة هذا النمط الثالث نابعة من عمق الشر الكامن في أنفسهم (نفسية الشر واحدة تقريباً في كل البشر). ولذا فلنجادل أن نصل إلى تفسير يمتق إدراكاً تفاصيل الواقع وألياته.

وقد ذكرنا من قبل أن ثمة أسباب مختلفة هي التي تحدد كيفية تحول إدراك ما إلى سلوك، وقبلنا أنها أسباب سياسية واجتماعية ونفسية وعصبية. ولكننا لا يمكن أن نعوص، في هذا البحث، في الجوانب العصبية أو النفسية (مع إدراكنا لأهميتها)، لأن مثل هذا يتطلب معرفة حقائق ومعطيات ليست متوفرة لباحث الآن. كما أن الجوانب العصبية والنفسية قد تفسر الاختلافات الفردية بين الزعماء والمكرس الصهاينة، ولكنها لا يمكنها أن تفسر بأية حال الاختلافات العامة ذات الطابع السياسي والاجتماعي.

ولذا قد يكون من المفيد أن نحاول التفكير في الأسباب السياسية والاجتماعية وحدها. وقد يتنا من قبل أن التحير الايديولوجي هو أحد المحددات الأساسية للإدراك، ويمكننا أن نضيف هنا عنصراً آخر وهو ميراث القوى: ففي عام ١٩٤٨ كانت الإمبريالية الغربية مهيمنة على معظم العالم بما في ذلك العالم العربي، ولم تكن القومية العربية قد تحدت معالمها بعد بقوة بحسب حسابها. ولم يكن الوضع في فلسطين أحسن حالا، إذ أن القوى الاجتماعية هناك لم تكن هي الأخرى قد تبلورت، وبالتالي لم يكن قد تبلور بعد تفكير ثوري نضالي قادر على تصفية الجماهير من كل الطبقات والأديان ضد عدو يتهدها كلها بالطرد والمناه. لكل هذا كان العربي الحقيقي، حينما يظهر على شاشة الوعي الصهيوني، يبهت ويشتت ثم يصبح هامشياً ويحتجى أمام موازين القوة التي لم تكن في صالحه. فلو أن هذا العربي الحقيقي كانت تساقه القوى اللارمة لثبت الإدراك في وهي الصهاينة ولظل العربي الحقيقي حقيقياً ثابتاً يقام له حساب ووزن، ولتحول هذا الإدراك إلى برنامج سياسي وإلى سلوك محدد يأخذ العرب في الحسبان. وربما أمكن حينئذ لشخصيات الصهيونية مثل إيشتنس أن تصبح هي الشخصيات القيادية صاحبة القرار. ولكن العربي كان صميماً ولذا أصبح من الممكن تعييه أو تهيمشه.

إن ما اقترحه، من الناحية المنهجية، أن نرى سبة الإدراك وشكله (الطيف الإدراكي) لا هي ضوء التحيزات لايدولوجية وحسب وإنما هي ضوء بيئة القوة الموضوعية (أو موازين القوى) إذ لا يمكن أن يرى الواحد دون الآخر، ولا يمكن تفسير الواحد دون الآخر، فالعربي ككيان امبريقي كان هناك موجوداً أمام الجميع،

والإحصائيات لا بد وأنها كانت متوفرة، والصراعات كانت دائمة، واستعدادات الصهاينة «للدفاع عن أنفسهم» ضد العرب كانت قائمة على قدم وساق منذ أول يوم ومع هذا ظهر العرب متحلفا وهامشيا في وجدان الصهاينة، وحينما ظهر حقيقياً فقد تقرر تهنيشه وتعييه - حسبما يتطلب التحير الأيديولوجي الذي تساندته القوة. هذا هو الذي يفسر موقف النمط الثالث (وهو الأكثر شيوعاً) من الصهاينة الذين يسمون «بالمطرفين» والذين سمهم «بالواقعيين». هؤلاء أدركوا العرب الحقيقي فأصبحوا أكثر ضراوة وشراسة بسبب هذا الإدراك لأرغما عنه «بالآخر» إذا أصبح حقيقاً فإنه يشكل تهديداً حقيقياً للذات، أما إذا كان هامشياً فإنه لا يمثل خطراً كبيراً. إن الصهاينة المتطرفين هم أكثر الناس إدراكاً لخطورة العرب الحقيقي ولطبيعة المشروع الصهيوني ولمازين القوى في ذات الوقت.

الحائط الحديدي

ولتصرب مثلاً على ذلك فلاديمير جابوتسكي - رعيم الحركة الصهيونية الناصحية - الذي أدرك منذ البداية أن الصراع بين الصهيونية كحركة استيطانية معتصبة للأرض والعرب أمر حتمي، فلم يحتشئ وراء السحابة الكثيفة من الاعتداليات الصهيونية أو الحديث عن اليهودي كعربي أو حقوق اليهودية الأزلية، فقد كان هو ملحداً علمانياً، يؤمن بالقومية كقيمة مطلقة، كما لم يحتشئ وراء الحجب الليبرالية عن شراء فلسطين، أو وراء الحجب الاشتراكية عن رجعية القومية العربية وحلله من الاستراتيجيات الإدراكية، وإنما أكد دون مواربة أن الصهيونية جزء من التشكيل الاستعماري الغربي الذي لم يكن بمقدوره أن يحقق انتشاره إلا بحد السلاح، ولذلك طالب منذ البداية بتسليح المستوطنين الصهاينة (تماماً مثلما يتسلح المستوطنون الأوروبيون في كيبا وفي كل مكان) (١٢)، أي طالب بتعديل موازين القوى بطريقة تغدّم التحير الصهيوني. فالعرب - حسبما صرح - لن يقلوا بالصهيونية (وتحيزاتها ورؤيتها) إلا إذا وجدوا أنفسهم في مواجهة حائط حديدي (١٣)

ومضى النتيجة توصل لها بن جوربون أن إدراكه للعرب الحقيقي والتزامه في ذات الوقت بالرؤية الصهيونية وحقوق اليهودي الخالص جعله يترك أي لأمراض من عرض هذه الرؤية عن طريق القوة وحده السيف. ولذا لم يبحث المرعيم الصهيوني عن سلام مع العرب، فمثل هذا السلام - على حد قوله - مشحيل، كما أنه لم يحاول أن يعقد اتفاقية معهم، فهذا ولاشك سراب. إن السلام مع العرب، بالنسبة لبن جوربون، «إن هو إلا وسيلة وحسب، أما الغاية فهي الإقامة الكاملة للصهيونية، لهذا فقط نود أن نصل إلى اتفاق [مع العرب] إن الشعب اليهودي لن يوافق، بل لن يجسر على أن يوافق، على أية اتفاقية لا تخدم هذا الغرض». ولذا فالاتفاق الشامل أمر غير مطروح الآن، [العرب] لن يمشلموا في إترس إسرائيل إلا بعد أن يستولى عليهم الأسس الكامل، يأس لا يتجم عن فشلهم في الاضطرابات التي يشيرونها أو الثمر الذي يقومون به وحسب وإنما يتجم عن ثوبا [نحن أصحاب الحقوق اليهودية المطلقة] في هذا البلد ثم استمر يقول لا يوجد مثل واحد في التاريخ أن أمة قمتحت بوابات وطنها [لآخرين] إن تشخيصي للموضوع أنه سيتم التوصل إلى اتفاق [مع العرب] لآس الأمن بالقوة، قوتنا التي ستتم، وهي إن حققت هذا النمو، فإن الاتفاق سيتم [برامه] (١٤) وهكذا تم عقد اتفاقيات السلام مع العرب.

ومادا عن شاريت الذي عرف العربي الحقيقي عن قرب وكتب عنه مذاحه ها أبف مسجد أن المثل الأعلى الصهيوني الذي تستند القوة يعرض نفسه عليه ويحدد له الواقع، كما يحدد له طريقة سلوكه. ولذا صرح قائلاً إن معاناة العرب لأنهما لآسا مسحق قومينا (قومية اليهودي الخالص)، ويمكهم هم أن يحصلوا على بلاد أخرى نحن نهدف إلى إنشاء دولة ولكن يجب ألا نستخدم هذه الكلمة (١٥) وهو أبف يتبنى سياسة الحائط الحديدى، شأنه في هذا شأن بن جوربون وجابونسكى. لا اعتقد أننا متصل إلى اتفاق مع العرب حتى تسمو قوتنا ولكنى اعتقد أنه ستعين اللحظة حين يصبح أكثر قوة وسبرم اتفاقاً ثانياً مع بريطانيا العظمى، كقوة مع قوة أخرى، وستصل إلى اتفاق مع العرب كقوة مع قوة أخرى لكن الشرط الأساسي هو ألا يظهر لنا العرب باعتبارنا قوة محتملة وإنما

باعتبارها قوة فعلية»^(١٦) وهكذا يمكن القفز من العربي الحقيقي الى العربي الهاشمي ومنه الى العربي الغائب، كما يمكن القفز من يهودي المنفى الى اليهودي الخاص- أى يمكن القفز من الواقع الى المثل الأعلى الصهيوي المتحيز من طريق العنف والقوة، وكلما زاد العربي حقيقته فى الوعى الصهيونى لاسبس وان تكون القوة أكثر صراوة لسد الهوة بين الحقيقة والمثل الأعلى- هذه هى بنىة الابدولوجية هذه هى طبيعة الإدراك هذه هى موازين القوى وهاكم هى الوسائل

وقد طرح أحد الصهاينة الذين أدركوا وجود العربي الحقيقي السؤال التالى فى أحد المؤتمرات الصهيونية «هل تريد الحركة الصهيونية الحرب مع العرب أم لا»^(١٧)، ولعل طرح السؤال على هذا النحو يلقى كثيراً من الضوء على القضية موضع البحث فهل المسألة مسألة «إرادة» و«رغبة»، أم أنها مسألة بنية فكرية تحوى داخلها الحد الأقصى من العنف؟ وحيثما تأخذ هذه البنية شكلاً مؤسسياً تسانده القوة، فهل يمكن لإرادة الأفراد أن تتحكم فيها، أم أنها تتخطى تلك الإرادة وتصبح لها ديميكية مستقلة تدوس كل من يقف فى طريقها؟

ويمكن لوأيزمان أن يساعدنا فى الإجابة على هذا السؤال، فهو كانه يدرك تماماً أن الصراع موضوعى، له بنية مستقلة عن إرادة الأفراد، وأنه لو تم تعديل الرؤية الصهيونية التى تحاول تغييب العربي، بحيث يمكن لهذا العربي تحقيق وجوده، ولنقل داخل إطار حكومة ديموقراطية، فإن لمثل هذا الوضع هواقبه الوحيدة، اد أنه سيؤدى إلى «سيطرة العرب على الأمور».

هذه الحكومة ستتحكم فى الهجرة والأرض والشريع- وبذلك سيحقق الصهاينة السلام- ولكنه «سلام» ل«قابر»^(١٨) والصهاينة شأنهم شأن كل من فى موقعهم، كانوا لا يسيحون عن سلام المقابر لأنفسهم وإنما للآخرين، ولذا لابد من إسقاط العربي الحقيقي، وإذا مرض نفسه على وهى الصهاينة فإنه لابد من تهنيئه وتهنيئته وتعمييه وإن طما هذا العربي مرة أخرى على سطح الوعى فان ردة الفعل لابد وأن تكون مزيداً من التطرف فى مواجهة الخطر الحقيقي من العربي الحقيقي، ولذا فالاتفاق الذى يتحدث عنه جابوتسكى ثم بس جوربون وشاريت ووايزمان ليس اتفاق مع العربي الحقيقي إنما هو اتفاق مع طرف آخر تم تعييه أو

ترويضه عن طريق القوه والحاظ الحديدي، ولذا فهو يقيم بالبقاء حسب الشروط التي يفرضها تغير الآخر وإدراكه. وهذه رؤية ولاشك واقعية إذ كيف يمكن أن نتوقع من العرب أن يرضخو طواعية لرؤية تلغى وجودهم؟

الاستجابة العربية

وهذا ما أدركه العرب «المحالفون» المعيبون منذ البداية فرغم كل محاولات الصهاينة المعلقة عن الحوار والتفاوض والأخوة العربية اليهودية والاحذ بيد العرب، كان العرب يعرفون أن الصهاينة قد أتوا تحت راية الاستعمار الانجليزي وبمساعدة جيوشه وبارجه، وأن وعد بالפור قد وعدهم بفلسطين، وأنه أشار بشكل هابر إلى حقوق «الجماعات غير اليهودية»، أي أن الصياغة اللغوية ذاتها قد قامت متهمشهم وتنبئهم على مسترى المخطط، ولم يبق سوى التنفيذ والممارسة. ولم يكن العرب عاقلين عن المفاهيم الصهيونية مثل العمل العبري أو عن المؤسسات الصهيونية مثل الكيبوتس والهستدروت والهاجاناه التي تستبعدهم وتستبعدهم وتُهمشهم. وفي علاقاتهم اليومية مع مؤسسات إدارة الانتداب كانوا يعرفون أن بوابات وطنهم قد فتحت على مصراعيها ليهود العرب ليستوطنوا فيه، كما كانوا يدركون أنه بعض النظر عن بوايا بعض الصهاينة الطيبة تجاه العرب الحقيقي (مهما خلصت السنية) وبعض النظر عن مدى جذبتهم في دهاولهم (مهما بلغت درجة الجدية) فإن الواقع الذي كان آخذاً في التشكل كان واقعاً صراعياً، فالصهاينة كانوا يهدفون دائماً إلى زيادة عدد اليهود في فلسطين وإلى إقامة كيان اقتصادي اجتماعي (عسكري) منفصل، وفي نهاية الأمر مهيم.

وقد وصف نجيب غازوري، هذا المؤلف الفلسطيني العربي المسيحي، والذي كان أول من أدرك حقيقة ما يحدث، أن الصراع سيستمر إلى أن يسود طرف على الآخر (١٩). وهذا الرأي ليس رأياً متشائماً ينكر مثلاليات البشر، وإنما هو رأي يحكم على هذه المثاليات في ضوء الطموحات والممارسة، وفي ضوء ما تشكل في الواقع بالفعل، ونحن إن لم نعمل ذلك أصبح المثل الأعلى صيافاً يمشي الأبحار وليس منارة نصي للإنسان طريقه وتساعد على تغيير واقعه إلى واقع أفضل وهذا ما قاله أحد القادة الفلسطينيين لأحد أعضاء جماعه يرتست شالوم من دهاة السلام

مع العرب : « أحب أن أحيرك بكل صراحة أنسى أفضل أن أتعامل مع شخص من جابوتنسكى على التعامل معك . أعرف تماماً أن جابوتنسكى هو عدونا اللدود وأنا نسمي أن نحارب صيده، بينما يبدو أنك صديقاً ولكن بكل صراحة لا أرى أى مافق بين هدفك وهدف جابوتنسكى . أنت أيضاً تملكك بوعده بالفوز والوطى القومى والهجرة بلا قيد ولا شرط وشراء اليهود للأرض - أى بكل ما هو بالنسبة لى مسألة حياة أو موت» (٢٠)

إن ما يقوله العربى هنا ليس تعبيراً عن يأسه بخصوص الطبيعة البشرية، وليس نبيا للرؤية داروينية اجتماعية تشبه رؤية الصهاينة التى ترى أن الواقع هو حلبة صراع الجميع ضد الجميع، وإنما هى تعبير عن محاولة لفهم الآخر فى ضوء فكره وسلوكه - فإذا كان القول مشرقاً عادلاً والعمل مظلماً ظالماً فلا مناص من أن يصح النقط على الخروف، بل يكون من الأفضل فى هذه الحالة أن نتعامل مع عدو تطابق أقواله المظلمة أفعاله الظالمة، فهذا الموقف ، على الأقل، يتسم بمصيلة الوضوح .

وقد تبه أحد زعماء حرب الاستقلال فى فلسطين الى أن الرؤية الصهيونية للسلام مع العرب، مهم بلغت من اعتدال، رؤية فى نهاية الأمر وهمية (ايدولوجية بالمعنى السلبي للكلمة) وأن أى تحقق لها يعنى سلب حقوق العرب . ولذا حينما كتب له يهود ماجيس يقترح إمكانية التحلى عن فكرة الدولة اليهودية على أن يسمح لجماعة يهودية أن تتمتع بحكم ذاتى محدود فى فلسطين، رد عليه قائلاً : «لا أرى أى شئ فى اقتراحاتك سوى استفزاز صريح ضد العرب، الذين لى يسمحوا لأحد أن يقاسمهم حقوقهم الطبيعية . . أما بالنسبة لليهود فليس لديهم أية حقوق سوى ذكريات روحية مدعمة بالكوارث والسفصص للحرنة . . ولذا من المستحيل عقد لقاء بين زعماء الشعبين العربى واليهودى» (٢١) .

وكان العرب يفركون تماماً أن الحديث المطلب عن التقدم وحلقة إنما هو حديث عن التغيب وعن سلب الوطن . إن التقدم فى إطار غير مترن من القوة لصالح المنتصب يعنى أن العربى سيفقد كل شئ، خاصة إذا كان الآخر لا يعترف بالعربى

ككيان تاريخي وإعنا كمخلوق اقتصادي. ولذا نغير كثير من الشعوب المفهورة
استراتيجيتها التحررية وبدلاً من البحث عن التقدم نفضل الدفاع عن السقاء أو
«التشريق» إذا ما استخدمنا عبارة المفكر العربي المصري الدكتور شكرى عباد

ولعل هذا هو الذى يفسر رفض موسى العيسى لكلمات بن جورويون (الخلوة
العلية) حين نقابلاً عام ١٩٣٦ فى منزل موسى شاريت فطيقاً لما جاء على لسان
بن جورويون بدأ الحديث بتريد الغيمة (القديمة) التى أعدها من المستقعات التى
يجرى تجفيفها، والصهارى التى تردها بالحضرة، والرحاء الذى سيعم على
الجميع. ولكن العربى قاطعه قائلاً «اسمع يا حواجة بن جورويون، إننى أفضل أن
تظل الأرض ما جرداء مقفرة لائة عام أخرى، أو ألف عام أخرى إلى أن يستطيع
بعض استصلاحها ونأتى لها بالخلاص». وهما مارس بن جورويون إحدى خطوات
الإدراك الساذجة ولم يسمع إلا الاعتراف بأن العربى [الحقيقى] كان يقبل
الحقيقة، وأن كلماته هو [اليهودى الخالص] بدت مصحكة وجوقة أكثر من أى
وقت مضى (٢٢).

وهكذا أيقن العرب أنه لا يمكن التصالح أو التماهم أو الاستمادة من مستوطى
سهيوى يدرك الواقع بطريقة شكر وجودهم ابتداء أو نهقشهم على أحسن تقدير،
وهو إدراك تسانده موازين القوى العالمية وللحلبة التى لم تكن فى صالح أهل البلد.
وقد أثبت مسار التاريخ صدق حذمهم ودقة تقييمهم للموقف.

Hans Kohn, "Ahaad Haarn" in Gary Smith, ed., *Zionism*;

The Dream and the Reality: A Jewish Critique (New York, Barnes and Noble, 1974), P.23.

- 2- Published in *Haartz* in Sept 8, 1922, Moshe Menuhin and Cited by *Jewish Critics of Zionism* (New York, Arab Information Center.) P 2.

٣- صيري جريس، تاريخ الصهيونية،

٤- لاكير، ص ٢١٥-٢١٦.

٥ صيري جريس، تاريخ الصهيونية، ص ١٤.

٦- لاكير، ص ٢١٥-٢١٦.

٧- يوميات هرتزل، الجزء الرابع، ص ١٤٤٩

٨- فلابان، ص ١٤٠-١٤٢.

٩- نفس المرجع، ص ١٤٩-١٥٠.

١٠- لاكير، ص ٢٦٤.

١١- فلابان، ص ١٤٩-١٥٠.

١٢- ائمهاده مقدمة إلى اللجنة الملكية لفلسطين (١٩٣٧) في الفكرة

الصهيونية: النصوص الاساسية، إشراف الدكتور أنيس صانع (بيروت،

مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٧٠)، ص ٤٣٧.

١٣- لاكير، ص ٢٥٧.

١٤- فلابان، ص ١٤٣-١٤٤.

١٥- نفس المرجع، ص ١٥٣.

١٦- نفس المرجع، ص ١٥٦.

١٧- لاكير، ص ٢٤٢.

١٨- فلابان، ص ٧٦.

١٩- لاكير، ص ٢١٥.

٢٠- رويشتاين، ص ٥٦٢.

٢١- نفس المرجع، نفس الصفحة.

٢٢- بن هيزر، ص ٨٣.

الفصل الثاني:

في الإدراك الإسرائيلي

١- الإدراك الإسرائيلي للعرب

٢- الإدراك الإسرائيلي للدولة الفلسطينية

٣- الإدراك الإسرائيلي للإنتفاضة

١- الإدراك الاسرائيلي للعرب

يمكننا في هذا الفصل أن نترك الإدراك الصهيوني للعرب ونتقل إلى الإدراك الاسرائيلي. ولنبدا بطرح السؤال التالي:

هل نجح الاسرائيليون في تجاوز التحيز الإدراكي الصهيوني؟ وإن كانوا قد نجحوا، فهل تحول الإدراك إلى برنامج سياسي ماء، أو هل أئرادكهم في سلوكهم؟ بمعنى- هل ثمة إدراك اسرائيلي للعربي متفصل عن الإدراك الصهيوني، وهل أدى تحول المستوطن الصهيوني إلى الدولة الصهيونية إلى تحول مماثل في الإدراك؟

أعتقد أن الوجدان الاسرائيلي لا يزال حبيس الإدراك الصهيوني الغربي بكل تحيراته. وهذا ليس بأمر مستغرب، فالإنسان الاسرائيلي إنسان مستعبد من المشروع الاستيطاني الصهيوني، ولا يوجد له أي كيان خارجي، وظهور العربي الحقيقي يهدد هذا الكيان ويسف الادعاءات الصهيونية من جلدها (وقد بينا في مكان آخر كيف تساهم عملية تحويل الكيان الصهيوني من الخارج [عن طريق الولايات المتحدة ويهود الغرب] في فصل الاسرائيلي عن واقعه وبالتالي تساعد على تدعيم الإدراك الصهيوني المتحير للواقع وللإنسان العربي وتضمن له الاستمرار، إذ أنها قد هذا الإدراك بنية القوة التحتية)^(١).

العربي المتخلف

ولنبدا بمقولة العربي المتخلف (والصهيوني كممثل للحضارة العربية). هناك الكثيرون بطبيعة الحال في إسرائيل الذين ينظرون لأنفسهم على أنهم حملة شعلة الحضارة الغربية في جهة الشرق الأوسط، وأن العرب هم عثرة الشرق المتخلف. فعلى سبيل المثال يرى أبا إيمان أن إسرائيل في الشرق الأوسط ولكنها ليست منه، ويتبعه في ذلك بن جوريون وييجون ومعظم القيادات الصهيونية

بل إن سياسة إسرائيل بكاملها، ابتداء من نط تصويتها في هيئة الأمم إلى تحالفها الاستراتيجي مع الولايات المتحدة، هو ترجمة لهذه الرؤية للذات. ويمكن أن نضيف أن الأسلحة الإسرائيلية التي تشكل محيطات اللاجئين هي، في معظم الأحوال، أسلحة عربية متقدمة أو ثمرة من ثمرات التكنولوجيا الغربية. كما أن القنابل المتفجدة بدرجة فتكها العالية هي ولا شك نتاج حضارة متقدمة منظمة على أكمل وجه، والمعنونات التي تلتهمها إسرائيل أولاً بأول هي ممنونات عربية بشكل عام، وأمريكية على وجه الخصوص. وقارئ الصحافة الإسرائيلية يعرف أن الدولة الصهيونية لا تكف عن الحديث عن نفسها باعتبارها امتداداً للعرب وواحة الديمقراطية العربية، كما يعرف أن أسلوب الحياة هناك استهلاكي عربي (على الأقل بالنسبة للاشتكاز)

وتمكس هذه الرؤية الصهيونية للذات وللآخر على موقف الدولة الصهيونية الاشتكازية من يهود البلاد العربية، فهي تنظر لهم بالمخار العربي، وترى أنهم عنصر من عناصر التخلف الحضاري العام في الحيز الصهيوني. بل إن إنكار الإنجاز الحضاري العربي قد انسحب على إسهام اليهود العرب للمحضارة العربية، وعلى إسهام اليهود السفارذ حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط. ولذا لا يثنى ذكر لهذه الإنجازات، إلا نادراً، في الكتب المدرسية الإسرائيلية ومن السخرية يمكن أنه حتى سنوات القرن الثامن عشر، كانت إسهامات اليهود الاشكاز لحضارات بلادهم في حكم المنعنة، ولا تخرج عن نطاق الفناوى للتلمودية والإشرافات القبالية، فلم يتج يهود الغرب شخصية مثل موسى بن ميمون أو شاعر مثل يهودا هاليفي إلا مع تليان القرن الثامن عشر.

معتمدة على هذا المنهج، يمكن أن نرى أن الهدف الصهيوني هو صياغة الأرض الفلسطينية، أي العربي وكينس اليهودي الشرقي، ولا نجد أن صورة العربي تختلف نفس صورة مؤثره في الصحافة الإسرائيلية. لا تكف الأفلام عن إظهارها ولا تكف المهرجانات الدراسية عن تدعيمها غير إلا حقائق الأمر القيني. "موقف صهيوني، كسلاف، عربية هندية لتوثيق هذا الجانب من الإدراك الإسرائيلي للإنسان العربي.

وقد ذكر الصحفي الاسرائيلي (وعضو الكنيست) يوري الفيري في إحدى مقالاته (أثناء حرب الاستنزاف على الحدود المصرية) أن الطيارين الاسرائيليين يطبّرون بطائراتهم ويدكون المنازل والمدارس المصرية ثم يعوفون إلى منازلهم ولا يرون في أحلامهم صحابهم، وإنما يرون جيتو شرق أوروبا أثناء إحدى المذابح التي كانت تدبر ضد اليهود- أي أن الاسرائيلي يدرك نفسه على أنه الضحية الدائمة وأن العربي يمثل الأحياء والحزاء، حتى بعد أن قام هو شخصياً بدمجه

العربي الهامشي

أما العربي الهامشي فيظهر في الرؤية الاسرائيلية على أنه شخص له حقوق مدنية يمكن ممارستها من داخل مجالس البلديات ومجالس القرى، ولكنه ليس له حقوق سياسية أو قومية ينهى التعبير عنها من خلال مؤسسات سياسية، ومن هنا عدم السماح بقيام أحزاب حرية قومية والمفهوم الاسرائيلي للحكم الذاتي لا يخرج عن هذا الإطار. ومفهوم الإدارة الذاتية هو في جوهره تعبير عن ذلك، فهو مفهوم يفصل الإنسان العربي عن أرضه ويحقق الرؤية الصهيونية في مرحلة أصبحت الإبادة فيها شبه مستحيلة وأصبح تفرغ الأرض من سكانها أمراً صعباً. ويظهر التهميش كذلك في إصرار الاسرائيليين على التعامل لا مع العرب وإنما مع المسلمين والمسيحيين والدرود وسكان القطائع وسكان الضفة ومع القيادات التقليدية. بل إن الاستراتيجية الصهيونية الحالية تجاه المنظومة العربية بأسرها لا تزال تدور في إطار الإدراك القديم وهو إنكار القومية العربية والتعامل مع الجماعات الإثنية والقومية المختلفة، وهذا هو في نهاية الأمر إطار كامب ديفيد.

العربي الغائب

أما التعميب لبأحد الآن فكرة تهجير الفلسطينيين ودفع تعويضات لهم وتشجيعهم على الهجرة إلى العرب حتى يمكن تفرغ الأرض من سكانها. وقد دأبت أجهزة الدعاية الصهيونية على وصف تعيب حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وإرغامهم على الخروج من فلسطين عن طريق الإرهاب بأنه كان عملية «تبادل سكان» تم من خلالها توطين الفلسطينيين خارج فلسطين وتوطين العرب اليهود داخلها.

ولكن التبادل يحثى القبول من الطرفين، وهو أمر كما معلوم لم يحدث، فللملاحون الفلسطينيون لم يقبلوا أن يتركوا أراضيهم ليحلوا محل رجال الأعمال وللحامين من أعضاء الأقلية اليهودية في مصر أو العراق، وبالتالي فلم يكن هناك ثمة تبادل. كما أنه لم يتم تبادل أرض بأرض فسخن لا يعرف أن الحركة الصهيونية قد دبرت للفلسطينيين المقيمين قطعة أرض في مكان ما ولكنه مع هذا «تبادل» من وجهة نظر الإدراك الصهيونية باعتبار أن فلسطين هي المكان الطبيعي لليهودي الخالص، ولا يوجد فيها مكان للعربى العاث أو الذي يجب أن يُنَّسَب. ولذا حينما يخرج العربى (حتى ولو بقوة السلاح) ويحل محل اليهودى فإن فى هذا تحقيق لرؤية إدراكية مسبقة، وبالتالي يبدو أمراً طبعياً ومسلماً.

ومن أشكال التعبير عن تنقيب العرب الاصطلاح القانونى الاسرائيلى «العائون المحاصرون» وهو يشير إلى الفلسطينيين الموجودين بالعمل داخل حدود ٤٨، والذين مُنعوا من الوصول لأرضهم بأمر الحاكم العسكرى. ولو تُرجم هذا المصطلح إلى «المحاصرين المقيمين» يظهر معناه الحقيقى.

أما إغفال العرب فيظهر فى إنكار وجود حركة المقاومة الفلسطينية ورفض التعامل معها والإصرار على الإشارة للعنانيين على أنهم «متسللين وإرهابيين وقتلة»، وفى رفض التصريح بعدد ضحايا الهجمات العنانية، وفى وصف جريدها ماثير لنفسها بأنها «فلسطينية».

العربى كيهودى

ثم نأتى أخيراً لعملية الإسقاط الصهيونية التى تحول العربى إلى يهودى المنفى وينبؤ أن هذه الظاهرة أيضاً لها امتداداتها. وقد لاحظ أحد المؤلفين العرب (ذكرور رشاد الشامى فى جامعة عين شمس بالقاهرة) فى دراسة له فى قصة «حرية خرمة» لساميح يرهاو، أن الفكر الصهيونى الاسرائيلى بدأ يسبب إلى العربى السمات السابقة نفسها التى كان ينسبها لليهود المنفى، وهى السمات التى استوردتها الصهيونية بدورها من أدبيات معاداة اليهود.

وقد بدأ الدكتور علي جاد أستاذ أدب المهجري بجامعة الملك سعود الرياض، في نشر مجموعة من الدراسات عن هذا النمط الإسقاطي كما يرد في الرواية الصهيونية في الولايات المتحدة.

ومن الأمثلة الأخرى التي نسلها على هذا الإسقاط الصورة التي رسمها المفكر الصهيوني الأمريكي هوارس كالتن للفلسطيني في المستقبل كما يحب أن يراها، فقال «لوحصل اللاجئين على جوارات مصر وغيرها من الوثائق التي تمكنهم من التحرك بحرية، ولو حصلوا على مبلغ كاف من المال ليشقوا به طريقهم إلى مكان من المتوقع أن يجدوا فيه سبل العيش المعقولة، وقبل لهم أن هذا هو كل ما سيحصلون عليه ولا شيء آخر أبداً. لو حدث هذا لبدأوا عدل في الاعتماد على النفس»^(١). ونلاحظ أن الصورة الكامنة هنا هي صورة اليهودي الساتم الذي يرحل من مكان لآخر دون توقف، والذي لا يهمه سوى المبلغ الذي يحمله، أي أنها صورة اليهود في كتابات المعادين لليهود.

ومن الأمثلة الدرامية الأخرى على عملية الإسقاط هذا الحوار التالي الذي نشر في جريدة حاداشوت (٢٠ نوفمبر ١٩٨٤) والذي دار بين مراسلي الجريدة وزوجة موشيه ليمسجر زعيم جيش إيموسيم. أخبرت السيدة المراسل أن الأطباء العرب أقل نظافة ومهارة من الأطباء الاسرائيليين وأنها تفضل أن تعالج أسنانها عند أطباء يهود لأنني أثق في المعايير اليهودية وحسب فاليهود موهوبون في هذه الأمور، أما العرب فهم غير قادرين على تطوير صاعات متقدمة، وتستورد السعودية آلاف الفيين. إن كل أمة لها اتجاهاتها الخاصة، والعرب لا يصلحون إلا أن يكونوا عمالاً، إن العربي إما هو يهودي البروتوكولات، إن الساجر الإسرائيلي الطفيلي وهو أيضاً، يشابه شاب يهودي البروتوكولات، مصدر كل الشرور ويهدد أمن الدولة. فقد نشرت، على سبيل المثال، جال هاشمار (٢٣ نوفمبر ١٩٨٤) خبيراً معالجاً، الطليغ العربي أرسلوا خطاباً لإيهوا الكيست يهددوهم فيه بالبيع، وأنهم سيدمرون كل اليهود.

العربي الحقيقي

واحبراً ما تي للإدراك الإسرائيلي للعربي الحقيقي وسنكتشف أنه على الرغم من وجود مؤسسات حكومية إسرائيلية لدراسة العرب، وعلى الرغم من وجود احتكاك يومي بين الإسرائيليين والعرب إلا أنه يمكن القول أن الأمر لم يتغير كثيراً. الإدراك الإسرائيلي للعربي الحقيقي لا يترجم معه بالضرورة إلى فعل فاعل وإنما تنتج عنه الاستجابات الثلاث التي سبق وأشرت إليها:

- ١- أن يتخلى الإسرائيلي عن صهيونيته.
 - ٢- أن يعزل الإسرائيلي من صهيونيته في صوء إدراكه فيتحول هو إلى شخصية هامشية أو مبهمه.
 - ٣- أن يتمسك بصهيونيته، فيريد إدراكه من ضرائقه وشرائسته نظراً لتزايد إحساسه بالخطر المحقق.
- وهذه لأنماط الثلاثة هي ذاتها الأنماط التي كانت سائدة بين الصهيونية قبل ١٩٤٨، وقد لاحظنا شيوخ النمط الثالث، ويدعو أن الأمر لا يزال على ما هو عليه
- وإذا أردنا أن نضرب أمثلة على النمط الأول من أدركوا العرب كحقيقة تاريخية وتقبلوا هذا الإدراك وحيدوا سلوكهم في إطاره لذكرنا موشيه ماخوهر المواطن الإسرائيلي الذي تحول إدراكه إلى رفض للصهيونية، فغادر الكيان الصهيوني واستقر في لندن.
- وهناك كذلك المناهض الإسرائيلي اليهودي الذي اتهم لصمود المقاومة الفلسطينية ودخل السجن دفاعاً عما تضرره الحقيقة التاريخية والعدل الإنساني.
- أما بالنسبة للنمط الثاني فيمكن أن نذكر شخصيات مثل هتيتياهو وبيابد ويوري افيري وأبيه البياض فهم يدركون العرب كحقيقة تاريخية لا بد من التعامل معها،

ولكنهم مثل إشتاين والأخريين ينطلقون من تقبل الكيان الصهيوني كحقيقة قائمة، ولذلك يطلبون من الإنسان العربي التاريخي أن يتعامل مع الإنسان الإسرائيلي ككيان تاريخي قائم. وقد تسبب موقفهم هذا في تهميشهم تماماً، خاصة في حالة إيليا، الذي كان شخصية أساسية قيادية في المؤسسة العمالية ثم بدأ يدعو لفكرة التصالح مع العرب والاعتراف بهم فأخذ يتحرك من المركز إلى الهامش حتى فشل في الحصول على مقعد في الكنيست.

أما النمط الثالث، وهو النمط الأكثر شيوعاً، فيضم أولئك الذين أدركوا أبعاد الرفض العربي لهم، وأنه رفض تاريخي حقيقي مستمر، تحركه الدوافع القومية، فزادهم ذلك إصراراً وتمسكاً بموقفهم. وسنجد أن هؤلاء قد بنوا مفهوم إثنو-براري-أي «الانحياز» - أي أنه لا يوجد أمام الإسرائيلي سوى الحرب المستمرة. ومن أهم عملي هذه الرؤية موشيه ديان وهو من جيل المصابرا الذي نشأ على الأرض العربية وعرف العربي عن قرب. ومن أهم المفكرين الاستراتيجيين الذين تتسم رؤيتهم بالإدراك الواضح والعنف والشراسة شلومو أروسون الذي تبا بما يسميه حرب المائة عام بين إسرائيل والعرب. وهؤلاء الإسرائيليون بشهوان في كثير من الوجوه شاوليت وبين جوريون وجابوتنسكي حيث يترجم الإدراك نفسه لا إلى تعديل للرؤية وإنما إلى تعميق الإحساس بعدم الأمن الذي يترجم نفسه بدوره إلى مزيد من الضراوة.

القصور الإدراكي

بعد هذا العرض السريع للطف الإدراكي (الصهيوني/الإسرائيلي) تجاه العرب وبعد أن عرضنا لإشكالية التاريخ الحقيقي وأثره على السلوك الصهيوني، قد يكون من المفيد أن نحاول أن نشخص موطئ الخلل أو القصور الأساسي في هذا الإدراك. وثمة تحليل وقصور ولا شك، وإلا لم نفسر حالة الصراع الدائمة التي استمرت إلى ماينده عن مائة عام، والأخسلة في التصاعد والتي لا توجد أية مؤشرات على إمكانية انفراجها إلا على طريق استسلام أحد الطرفين للآخر. وفي

محاولة التوصل إلى طبيعة هذا الخلل مشير إلى مقال نشر عام ١٩٢٢ في مجلة كانت تصدرها جماعة صهيوية «اشتراكية» تسمى «فرقة العمل». وقد حاول كاتب المقال أن يعبر عن رؤيته لمستقبل كيبوتس بين هارود الزاهر الذي كان يجري تشييده آنذاك في وادي جزريل وقد تخيل كاتب المقال الكيبوتس بعد مائة عام، وتأمل ثرائه وإنجازاته الثقافية ومنازله التي سيشيد على «الطريقة الشرقية». وحلم المؤلف بأنه سيشيد في وسط الكيبوتس تمثالاً لرجلين «واحد عربي والآخر يهودي»، جالسين على صحرة ويحملان راية نُقشت عليها ثلاث كلمات «المساواة والأخوة والحرية»^(٦).

إن الصورة الإنسانية الموهجة التي رسمها المؤلف الصهيوني لكيبوتس المستقبل تجعل هذه حقائق:

١- لا ندري كيف صور المؤلف الصهيوني ذلك العربي الجالس إلى جوار اليهودي، ولكننا مع هذا يمكننا التعميم نحن معترف أن الصهاينة كانوا لا يعترفون بالتشكيل القومي العربي، خاصة داخل فلسطين، ولذا فالعربي الجالس هناك على الصحرة كان شخصية مجردة من حقوقها القومية وتراثها الحضاري، فرد قد يكون له حقوق مدنية وربما بعض الحقوق السياسية على أكثر تقدير، ولكنه كان عليه أن يتنازل عن كثير من حقوقه، ويقسمها مع اليهودي الذي انقسم معه الصحرة، وكان لهما نفس الحقوق ونفس الشرعية. وهذا ولا شك خلل إدراكي فالعربي حاش آلافاً السنين يملح هذه الأرض ولا يعرف له وطناً غيرها، ولا يمكنه أن يقسم فلسطين مع الصهيوني الجالس إلى جواره، فهنا الأخير جسم غريب غرس غرساً في هذه الأرض بمساعدة الاستعمار العربي.

٢- والصهيوني الجالس على الصحرة إلى جوار العربي، حتى لو كان من كبار المدافعين عن قيم الحق والعدالة، مختصم، موجوده في فلسطين عبوان، وكيبوتس بين هارود أسس على أرض غيب سكانها. ولذا فهذا الثوري اليهودي سيؤسس وطنه في أرض غيره. وهذه حقيقة لا تحتاج لمنظرين يارين أو ثورين، فهذا مافلك ملك إيطاليا لهرتزل. وإذا كان الصهاينة لم يروا هذه

الحقيقة البديهية فإن ذلك دليل قاطع - وكأننا نحتاج لثل هذا الدليل - على مدى
حلل إدراكهم للواقع .

لا يمكن تحقيق الحلم الصهيوني إلا بتعميب العربي أو تهيمشه على الأقل،
غيباب العربي هو تحقق الصهيونية، وتحقيق الصهيونية هو غيباب العربي وهذا
ما عرفه صابوتسكي صاحب فكرة الحائط الحديد، وتبعه تلميذه بيحن ومعظم
الاسرائيليين وقد أكد ييجن في خطاب له أمام سكان كيونس عبر هارود، وبعد
تأسيسه و«مجاهده» أكد على ضرورة تقييد العربي والتمسك بالزعم بأن فلسطين لا
توجد، وأنها كانت ولا تزال ومنظّل إرنس إسرائيل: «فلو كانت هذه هي فلسطين
[أرض العربي الحقيقي] وليست أرض إسرائيل [أرض اليهودي الخالص] إذن فأنتم
فاحشون ولستم مرارعين يفلحون الأرض، أنتم إذن غرة إذا كانت هذه فلسطين
[أي إذا اهتمنا بوجود العربي الحقيقي ذي الحقوق القومية والسياسية] فهي تنتمي
إلى لشب الذي عاش هنا قبل أن تأتوا إليها. لن يكون لكم حق العيش فيها إلا
إذا كانت هذه هي أرض إسرائيل»^(٧) وقد تولى ييجن رئاسة الوزارة فيما بعد،
ولم يعد نسمع عن ماجيس أو إشتاين وأمثالهما في كتب التاريخ، ولكن البشر لا
يوجدون داخل وعي الآخرين وإدراكهم، ولذا فهم يرفضون الغياب والتواري عن
الأنظار والتحول إلى كائنات إقتصادية، ويحملون السلاح دفاعاً عن وجودهم
وشرفهم ولذا مدلا من النصب التذكاري الذي حلّمه المؤلف الصهيوني يوجد
الآن في عين هارود نصب تذكاري شيدته الإسرائيليين للقتلى الصهاينة الذين
مقطوا في الحروب التي لا تنتهي مع العرب^(٨) والتي تشأ بها بن جوريون هي
إحدى لحظات الصفاء .

الاعتدال والتطرف الصهيونيان

لعل من أهم النتائج التي خلصنا لها في تقييمنا للإدراك الصهيوني للعرب
إنفصال الإدراك عن السلوك، إذ أن نفس الإدراك لنفس الظاهرة (إدراك الصهاينة
للعربي كأساس حقيقي له حقوق) قد يؤدي إلى أنواع متباينة من السلوك فإدراك
آحاد صهايم ويهودا ماجيس وبن جوريون للعربي الحقيقي قد لحم صه تلهذب من

جانب الأول، ومحاولات يافضة للتوفيق بين رؤيتين متناقضتين من جانب الثاني أدت إلى تهميشه هو شخصياً، ومزيد من الشراسة من جانب الثالث. وكما بينت من قبل تحتلف الاستجابات من فرد لآخر فتسبب لركب هائل من العوامل النفسية والعصبية والتاريخية والسياسية. وقد بينا أن موازين القوى تلعب دوراً هاماً في ترجيح صورة إدراكية على حساب الأخرى، ولذا في غياب القوة العربية وجلسنا أن النمط الثالث هو أكثر الأنماط الصهيونية شيوعاً، فهو النمط الذي كان يدرك منطق الرؤية الصهيونية والذي كان يعرف موازين القوة معرفة جيدة. ويمكننا أن نرسم مصطلحاً متكاملأ لطيف الإدراك الصهيوني في علاقته بموازين القوى.

١- في حالة انجلاء موازين القوى لصالح العرب وضد صالح الصهاينة فإنها تدعم الإدراك الواقعي ويساهم ذلك في تبديد الأوهام الايديولوجية، ويبدأ الإدراك الواقعي في فرض نفسه. وقد يتحول إلى برنامج سياسي يعكس الواقع - أي أنه يتم ترشيد العقل الصهيوني (وفي هذا الإطار قد تتحول لتشخصيات الهامشية «المجنونة» مثل اسرائيل شاماك والفنيري إلى شخصيات قيادية. ويمكن أن تظهر أيضاً قيادات سفارديه على استناد لتعديل أسطورة الذات الصهيونية).

٢- في حالة انجلاء موازين القوى لصالح الصهاينة وضد صالح العرب فإنها ستدعم الإدراك الصهيوني المتحيز ومساهم ذلك في أن يتحول الواقع التاريخي إلى شيء هامشي باهت وتدعم البرنامج السياسي الصهيوني كمرشد للتعامل مع «الواقع».

ويمكن أن يمر المتطرف والاعتدال الصهيونيين في ضوء الاحتمالين السابقين فإن ظل العربي الحقيقي ساكناً دون أن يتحدى الرؤية أو موازين القوى أصبح من الممكن قبوله كشخصية متخلفة هامشية غائبة، ويصبح من الممكن إظهار التناضح تجاهه، بل ومحوه بعض الحقوق (وهنا نكس المعارقة). أما إذا بدأ العربي الحقيقي في التحرك لتأكيد حقوقه ولرفض الهامشية وتحدي الرؤية

الصهيونية وحاول تمثيل موازين القوة لصالحه يصبح مصدر خطر حقيقي ويصبح من الضروري ضربه لتهديمه وتهيشه ويصبح التسامح مرفوضا

هذا لا يعني أننا نسقط أهمية الإدراك من حسابنا ونؤكد موازين القوى وحسب، فالواقع لا يفرض نفسه على عقل الإنسان بشكل مباشر وإنما من خلال طيف إدراكي وتساهم القوة في تقويض الإدراك أو تدعيمه، فهي علاقة مركبة إلى أقصى حد. ولذا يجب أن نعرف تماماً أننا نعيش في عالم ليس من صنعنا وهو عالم يؤمن بالحواس الخمسة وبكل مايقاس، ولا يعترف كثيراً بإحلق أو الخير أو الجمال. ولذا لا بد وأن نضبط على حواس أهدائننا الخمسة بكل ما أوتينا من قوة حتى يعرف الآخر أن العربي الحقيقي ليس مجرد صورة في وجدانه يمكنه تناسيها، وإنما هو قوة واقعية يمكن أن تسبب له خسارة فادحة إن هو تجاهلها أو حاول تهيشها وتهشيمها

ولعل هذا هو القصور الأساسي في محاولات التوصل للسلام في إطار كامب ديفيد. فقد ظن مهندسو هذه الاتفاقية أنهم عن طريق رفع رايات السلام سينبرون صورة العربي في وعي العالم، وأن هذه الصورة مستحقة دينامية تعرض على الاسرائيليين أن يصلوا إلى اتفاق عادل أو شبه عادل. ولكن الذي حدث عكس ذلك تماماً. فبعد الأسابيع الأولى وبعد أن طويت عدسات التلفزيون الساخنة ظهرت حسابات القوة الباردة التي فرضت منطقها الثلجي البارد القاسي على الجميع.

وقد جاء في مجلة نيويورك الأمريكية أنه بعد أن قبل الرئيس السادات بشروط كامب ديفيد كما فرضها بيجور، طلب تخصيص رقعة ما في القدس ترفع عليها الاعلام العربية حتى تكون «غنيمة أخرى» يعود ليتباهى بها، وكان تعليق أحد أعضاء الوفد الاسرائيلي هو أن ترفع الاعلام على المقابر العربية («سلام المقابر» الذي لم يردده وايزمان لنفسه). أما ديان فقال "السادات يريد بفشيش" أي أنه نظر إلى الرئيس السادات من خلال الطيف الإدراكي الصهيوني وحوّله إلى إنسان متحلف هامشي، شعاذ ليس له حقوق، يمكن أن «تهبه» شيئاً إن أردت من قبيل

الاعتدال الصهيوني. وقد كان ديان أكثر واقعية من الرئيس السادات، فحسابات القوة الباردة هي عالماً لا تعرف الحق والحقيقة ولو كان هناك وراء السادات ديانة عربية، تفك شامخة جميلة، لما وآه ديان شعاعاً يقف على عتبة

ومرة أخرى زعم معرفتي بمنطق القوة لا أكن له حياً ولا احتراماً، ولكنني كما قلت هي عالم ليس من صحناء، وهو عالم فيض صُح أساساً في الغرب في القرن التاسع عشر، وإن أردنا التعامل معه بكفاءة علينا أن نقيمه نقيماً موضوعياً ومع هذا أعتقد أنه يجب ألا نرفض فكرة الحوار مع الآخر. فالآخر موجود الآن في وسط، ومدجج بالسلاح، ولذا أطالب دائماً بالحوار المسلح- حوار يكتسي من مهم الاسرائيلي الحيفي ويكتنه من فهم العربي الحقيقي. ولكن الحوار بدون سلاح قد يطرح صورة إدراكية صادقة ولكنها معرضة للشحوب ثم الاحتواء لأنها تسائلها القوة. ولذا يجب أن تستند بنية الإدراك لبيئة القوة، وحيث قد يتحول الإدراك إلى فعل فاعل، وتتحول الحقيقة إلى عدل

(١) تم إقتباسه في:

عبدالوهاب محمد المسري، الأيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة
في علم اجتماع المعرفة (الكويت، سلسلة عالم المعرفة إصدار المجلس
الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٢-١٩٨٣)، انظر حاشية الفصل
الثاني عشر.

(٢)- بن عيزر، ص ١٨٣.

(٣)- المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

(٤)- المصدر نفسه، ص ٣٠٤-٣٢٥.

(٥)- يديعوت أحرونوت ٢٠ ديسمبر ١٩٧٤.

(٦)- روبشتاين، ص ٦٧

(٧)- يديعوت أحرونوت ١٧ أكتوبر ١٩٦٩.

(٨)- روبشتاين، ص ٦٧

٢- الإدراك الاسرائيلي للدولة الفلسطينية

وصمما المتصل الادواكي الصهيوني الاسرائيلي في الدراسات السابقة، وبيناً أن هذا الإدراك يصل لحظة تحققة السنادجية في التعيب الكامل، وهذا هو الحلم الصهيوني في لحظة تحققة الوهمية وعلى حله الأقصى ورغم أنه حلم، إلا أنه يشكل البية التحتية لكل أفكار ومواقف الصهاينة الأخرى، ولا يمكن أن يصف الاحتلالات والتممرعات الأخرى إلا بأخذ هذه النقطة في الاعتبار ويجب التأكيد على أن الأفكار تلعب دوراً أساسياً في تحديد سلوك المستوطن في الحيز الاستيطانية بشكل يصفى الدور الذى تلعبه في تحديد سلوك المواطنين في التشكيلات السياسية العادية. ففكرة القومية العرسية تحرك الجماهير العرسية وفكرة القومية اليونانية تحرك الجماهير اليونانية، ولكن القومية العرسية ليست مجرد فكرة أو مشروع قد يمشى أو يجمع، وإنما هو واقع تاريخى يمتد ترجم نفسه إلى مؤسسات وتراث، ولم يعد من الممكن وضع وجوده ذاته موضع تساؤل كما أن العرسيين ليسوا مهتدين شعب آخر كان يشعل أرضهم ولا بتأريخ آخر كان يشعل الخير الرماني في وطنهم. وبالتالي تكون فكرة القومية بالنسبة لهم مجرد تعبير عن واقع قائم راسخ، متعين مركب. أما بالنسبة للحيز الاستيطانية فهي عادة تستد إلى فكرة هي في الواقع كلمة تاريخية كبرى (إن السكان الأصليين غير موحودين)، وهذه الفكرة ليست واقعاً قائماً وإنما إطاراً عقلياً وعاطفياً. ولذا نجد أن هذه الفكرة (الحلم - الوهم) تلعب دوراً حيوياً في تحديد علاقة المستوطن مع واقعه، بل وعندها في كثير من الأحيان تحل محل الحقيقة

ومع هذا نظل الحقيقة التاريخية قائمة، ويخرج المستضعفون والمغبون من الدباب والقرى ومن بين شقوق الأرض فيظهرون على شاشات التليفزيون وعلى شاشة الوعي وبضموم في أحلام الضالمة الذى ظن أنه قد عبهم وإلى الأبد - فيتلصص الوهم أو يتبدد. وبدلاً من العربي المعب يدب بعض المستوطنين بالحديث عن إمكانية التمايش مع السكان الأصليين مع إعطائهم حق تقرير المصير المحدود

وتزايد الصنعة، قد تظهر قطاعات توسع من نطاق هذه الحدود، فيحدثون عن حق تقرير المصير الكامل، ولكن المشروط سرع السلاح، وهناك من يقبل بدولتين متساويتين في السيادة القومية وهكذا. وهناك أخيراً (كما أسلفنا) من يصل إلى نقل العربي الحقيقي ويدرك تماماً أن تاريخ فلسطين إنما هو تاريخ عربي، وهو في هذه الحالة يخرج على المشروع الصهيوني ذاته ويصبح معادياً للصهيونية، رافضاً لها.

الحد الأقصى الصهيوني

ولمحاول الآن دراسة نماذج من التفكير السياسي الاسرائيلي بخصوص فكرة الدولة الفلسطينية، هنا نجد أفكاراً متضاربة عديدة واقتراحات لا حصر لها ولا عدد تفتح على درجات مختلفة من المتصل الإدراكي الذي اقترحتاه. ولتبسيط الصورة حتى يمكن تناولها بشيء من التحليل سنقسم المواقف إلى ثلاث يفترب أولها من الحد الأقصى الصهيوني أى نقيض العرب ويكاد يلتصق به، ويتعد نالها عه حتى يبدو وكأنه نقيض، ويقف ثانيها في نقطة اعتبارية متوسطة بينهما وقد احترما شموئيل كاتس أحد مؤسسى حركة حيروت والذي شغل منصب منشار رئيس الوزراء مساحم ييجين عام ١٩٧٨ كممثل للمودج الأول^(١) وليعبر كاتس عن وجهة نظره يقتبس كلمات بي جوريون الذي يشير فيها إلى «تاريخ اليهود» وإلى «بلاد اسمها يهود» وهى التى سميها أرض اسرائيل. إن هذه البلاد جعلت ما شعباً، وشعبنا خلق هذه البلاد. ويضيف كاتس «احلال مئات السنين هذه التى تخللتها عمليات قتل وطرد وتغيير ومستوى معيشى سوء لم يأتثر الوجود اليهودى فى فلسطين ولم يتحلل اليهود عن عاداتهم وتقاليدهم».

واحلال هذه الفترة لم يأتثر التراث اليهودى كما لم تتأثر الثقافة اليهودية أى اللغة العبرية التى بدت باستعمالها فى القرن العاشر فى طبرية. ونحن لن نحاول نميد هذه الأفكار الصيانية أو الرد عليها فهى من الناحية بحيث لا يصبح أن يشمل المرء بها إلا بمقدار كوسها مؤشراً على حدود صاحبها الإدراكية. وكاتس لا يرى

سرى حضور يهودى كامل وثابت عبر التاريخ بقائه غياب عيسى كامل ويقتبس كلمات كاتب أمريكى، هو مارك توين، الذى زار فلسطين سالماً، للدلالة على رايه وكان مارك توين هو أحد كبار مؤرخي المنطقة العربية، فقد وجدنا البلاد حالية تماماً (عام ١٨٦٧) لا أثر للحياة فيها، ولم نجد في الطريق أية روح حية، وكانت أرضه إسرائيل أوصاً جرداء وكأنها لا تنتمى إلى هذا العالم».

ويستمر شموئيل كاتسل في التعيب فيكر حتى وجود العرب ككل، أما البشر الذين وجدوا في فلسطين هؤلاء مهاجرون من البلاد المجاورة (عاصر متحركة يمكن تحريكها مرة أخرى) ولدا هؤلاء الديس يطلبون بأرض إسرائيل ليسوا سوى مدعين حرب وإرهابيين فلسطينيين. وهو يختم مقاله بعبارة تصل إلى البنية التحتية لكل الأفكار الصهيونية «إذا انتصر العرب في الحرب فإن الدمار ميلحق شعب إسرائيل كله، أما إذا انتصرت إسرائيل فسيكون على العرب الرضوخ للأمر الواقع وتقبل إسرائيل».

ويلاحظ أن حل الصراع العربى - الصهيونى من المنظور الاسرائيلى لا يتم إلا من خلال الصراع المسلح - الانتصار أو الهزيمة والخصوع لشروط الاسرائيلية وللسلام على الطريقة الاسرائيلية.

الاعتدال الإسرايلى

أما السمودج الثالث فيمثلته مجير بعليل وهو من شيشلى مانام، ومن المنادين بالصهيونية ذات الديجاجة اليسارية. وأطروحاته العقائدية وإطاره التاريخى لا يحتلجان من أطروحات وإطار كاتس، فهو يعرف الحركة الصهيونية بأنها حركة تحرر وطنى، أى حركة تغيب للعلسطينيين. وقد استازت الصهيونية فإنها صممت يهوداً من مختلف الاتجاهات والميول الذين رأوا بأعيهم هدفاً مشتركاً وهو جمع شتات الشعب اليهودى وبهاء أمة يهودية متجددة على أساس العمل العبرى في أرض إسرائيل» فميل يخلق إذاً من الإيمان بأن للشعب اليهودى حقوقاً تاريخية كاملة

في أرض إسرائيل ثم يصير يعيل وجود الشعب الفلسطيني في أرض فلسطين على أساس صهيوي. «فلولا قيام الحركة الصهيونية لما ظهر المرح الفلسطيني التابع للحركة القومية العربية. ويمكس الاعتقاد بأن معنى اليهود إلى أرض إسرائيل واستيطانهم فيها كان هو الحافز الذي أدى إلى نشوء الكيان الفلسطيني» بل إنه يؤكد أنه «من الصعب أن نتصور اليوم كيف كانت ستبدو الأوضاع في أرض إسرائيل لو لم يتحقق فيها الفكر الصهيوي»

«وجود الفلسطينيين - حسب تصوره - عرسي، ولكنه - وما مصدر الاختلاف بينه وبين كاتس - ليس بالضرورة راقل، فهو يرى أن بعض الصهاينة قد اعترفوا بحقوق الشعب الفلسطيني «بصمته يمتلك حقونا طبيعية في بلاده» ولا يدري ما هو الفارق بين حقوق اليهود التاريخية وحقوق العرب الطبيعية، ولكن ما يهمنا في سياق هذا المقال أن ثمة اعترافاً ما بوجود العرب وبحقوقهم وهذا الاعتراف مانع من حروف عميق أن المصير الفلسطيني داخل الدولة الصهيونية يهدد هويتها اليهودية ويهدد الطسعة الإحالية للكيان الصهيوي، بل إن يعيل يطرح السيناريو التالي «هناك مخاوف من أنه إذا استمرت سيطرة إسرائيل على الضفة الغربية وقطاع غزة سوف تشتد حدة المقاومة الفلسطينية للاحتلال الإسرائيلي، لتتصل حمى المقاومة إلى العرب الإسرائيليين المقيمين في التلث الصغير وفي الخليل بحيث يطلب عرب إسرائيل سعد حويل أو حويلين الانضمام إلى المطالبين بحق تقرير المصير للفلسطينيين»

ر ولكن كيف يمكن التصدي لهذا الشأن ولتلك الحمى؟ يرى يعيل «أن ذلك يتم من خلال إقامة دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل وكعب سارعت إسرائيل على تقديم مبادرة السلام المقترحة للشعب الفلسطيني كلما كان أصعب لها» ثم يأتي بعد ذلك بحث هائل من التماصبل عن «الحمارك والكهرباء» وعن ارتباط الدولة الحديثة بالأردن، إذ لابد وأن تولد الدولة مقيدة، ليس لها من الدولة غير الاسم

أرض في مقابل السلام

ويمكننا اختيار شلومو اميرى كمثال على المودح الثاني واميرى من كبار المفكرين الاسرائيليين وشغل منصب مدير عام وزارة الخارجية فى حكومة العمال بين عامى ٧٦ - ١٩٧٧ وهو يتحدث أيضا عن أرض إسرائيل ذات التراث اليهودى المجيد وأرض الخلاص بالنسبة لليهود والصهيوية هى الحركة القومية اليهودية التى ستقوم بعملية الخلاص هذه (وهو فى واقع الامر تحليل للارض وتقسيم اصحابها الاصليين، أى العرب) وهو يرى أن المطالب الصهيونية فى كافة مناطق أرض إسرائيل مطالب عادلة، ولكن الحركة الصهيونية رضخت لقرار التقسيم لأن «أحداً فى العالم لم يكن يؤيد المطالب اليهودية» ثم يضيف إلى هذا دباحات أخلاقية عن «أن الصهيونية تجد صعوبة فى المطالبة بحق تقرير المصير لغيرها، ومعارضة منح هذا الحق لعنة سكانية أخرى» ويسمى اميرى نفسه بأنه من أتباع الصهيونى السوبولوجية (هى مقابل صهيونية لأراضى) وصهيونية تهتم بالطابع اليهودى للدولة، أما صهيونية كاتس فهى تركز اهتمامها على ضم الأراضى، ومن هنا حديث «المعتلين» عن الأرض فى مقابل السلام ولكن مهما كانت الأسباب، (الصموط الدولية أم عذاب الصمير الصهيونى أم الخوف على الطابع اليهودى للدولة) فإن اميرى يطرح الحل التالى الذى يسميه حلاً وسطاً ألا دولة إسرائيل الكاملة ولا دولة فلسطينية مستقلة فى الضفة الغربية وقطاع غزة، بل استمداد بعيد الأثر لقبول الحل الوسط فى إطار حل أودى به فلسطينياً، ودخل هذه المبادئ الثلاث تعطى لكل الاتجاهات التنابذية الاسرائيلية تجاه الدولة ترصع اجتلاء طغيانها فى القدس المحتلة، فجوش التلويح والتأكيد بالتصريح للشموات الأولى بينما، تنتمى لبعض الأفرغ الصعبة الغير نال فيه ومابهم المسموحج

الثالث، ويسمى المخرج المودح الثانى:-

خصوصية الإدراك الإسرائيلي

بعد أن رسما خريطة الإدراك الإسرائيلي لمكرة الدولة الفلسطينية وارتباطها بروية الذات ورؤية الآخر لابد وأن سوضح بعض النقاط الأساسية، كمحاولة لتوضيح المزيد من الأبعاد الخصوصية.

١ - يلاحظ أن جميع الصيغ الصهيونية، المتطرفة منها والمعتدل، اليمينية منها واليسارية، لا يتوجه السمة لقضية الفلسطينيين الذين طُردوا عام ١٩٤٨ واستوطنوا سوريا ولبنان والأردن ومصر وأنحاء أخرى متفرقة من أنحاء العالم العربي، وهو لا يذكر بتاتاً قضية الفلسطينيين الذين يطالبون بحقوقهم في حيفا وبهاوا وهكذا وكل بقعة في أرض فلسطين المحتلة والذين صدر قرار من هيئة الأمم لتأكيد حقوقهم في العودة إلى ديارهم أو للتعويض لمن لا يريد العودة.

٢ - لا يتحدث المصهاينة السمة عن الأراضي خلف الخط الأخضر التي خصصها قرار التقسيم للفلسطينيين مثل الجليل وغيرها من المناطق. وهكذا حول الخطاطب الصهيوني الخط الأخضر إلى مطلق صهيوني جديد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعليها الرصوخ والقبول. وهذا أيضاً أمر منطقي ومفهوم، فالمتناوص بشأن الأراضي عينا وراء الخط الأخضر وبشأن حق العرب في السكنى في فلسطين المحتلة قبل ١٩٤٨ هو في واقع الأمر تناقض بشأن ملك الكيان الصهيوني. وعليها أن معنى ذلك تماماً، فقلوبنا يعيه وإن كان لا يتحدث عنه.

٣ - يلاحظ أن كل الحلول مسببة على فكرة القسمة والرصوخ، وأن أحد الأطراف سيضطر الطرف الآخر للتسليم بوجهة نظره. فالمصهاينة يرون أن رؤيتهم للتاريخ هي الرؤية الوحيدة السليمة التي لا يمكن التراجع عنها على مستوى العقيدة حتى لو تم التراجع عنها على مستوى الإجراءات البرجماتية. وقد لخص ذلك الموقف اهارون ياريف بقوله: الصهيونية هي حركة التحرر الوطني للشعب اليهودي.

استخدمت بالحركة القومية العربية عامة والحركة القومية الفلسطينية خاصة، ولكنه يصيف^٤ فإن أقوالى هذه لا تنطوى على تنازل أو استعداد للتنازل عما يعتبره حقاً التاريخى فى إيزس إسرائيل وفى علاقتنا التاريخية بها^٥ هذا الموقف المبدئى السائد فى صفوف الجميع يخلق استعداداً كاملاً دائماً لدى كل الصهاينة، مهما كان موقفهم على خريطة المتصل الإذراكى الياسى، أن ينزلقوا دائماً نحو تعيب العرب وإنكار حقهم فى إنشاء دولة حقيقية خاصة بهم إن مسنحت الظروف، كما أنه يضى صيغة الشرعية على موقف دعاة إسرائيل الكبرى فالأصل فى الموقف الصهيونى هو ابتلاع كل الأرض وتعيب كل العرب، والاستثناء هو المروية والاستعداد للتفاوض بشأن الأرض خارج الخط الأخضر ويشاذ الفلسطينى خارجه. ولعل هنا يفسر كيف أن الاستيطان الصهيونى فى الضفة العربية قد بدأ إبان حكم العمال المتبدلين وأنهم اعتمدوا ملايين الدولارات لإنشاء مستوطنات هناك فى نفس الأرض التى بدأ بيريز بالإعلان عن استعداده للتنازل عنها فى مقابل السلام.

٤ - لا بد وأن نحدد خصوصية علاقة الإذراك الاسرائيلى للفلسطينيين وللمعركة الدونة الفلسطينية بالسلوك الاسرائيلى، فهى علاقة مركبة لأقصى حد، تختلف عن علاقة إذراك الحرى للدولة الصهيونية وسلوكه نحوها، إذ أن محدثات سلوك العربى نحو الدولة الصهيونية مختلفة عن محدثات سلوك الصهيونى نحو الدولة الفلسطينية.

أ - ومن أهم المعاصر التى يجب ذكرها ابتداءً أن الحركة الصهيونية منذ نشأتها حركة تمتد إلى الجماهير، فهى رأس دون جسد، وروية دون تجسد، وهذا يعود لأسباب تاريخية عديدة من أهمها أن الجماهير اليهودية فى شرق أوروبا آثرت الهجرة إلى الولايات المتحدة على الهجرة إلى فلسطين

ولا تزال الحركة الصهيونية حتى الآن تمنانى من هذه الظاهرة التى يعبرون عنها بعبارة «نصب المصادر البثرية» ولكن صاهمها فى هذا السياق أنه

بمقاب الجماهير كان النظري الصهيوني يحددون أطروحاتهم النظرية دون أحد الواقع التاريخي (سواء واقع الجماعات اليهودية في العالم أو واقع فلسطين) في الاعتبار. فنجد هرتزل يسجل عبارة «من النيل إلى الفرات» في مذكراته ولكنه في اليوم التالي يقلل بالتنازل عنها، ويرصو بصيغة برجماتية «كلما زاد عدد المهاجرين تزداد رقعة الأرض التي نستولي عليها» ثم لم يكن عبده مانع من الانتقال إلى شرق أفريقيا بل أن يورى أفيري يرى أن التوسعية الصهيونية لم تعد مرتبطة بأي إدراك صهيوني أو محطوط رهيب أو غير رهيب، وإنما أصبحت مرتبطة بقوة إسرائيل الذاتية وبما يُطلب منها من القوة الاستعمارية التي نراها. فما يحدد سلوك الصهيونية ليس إدراكهم أو رؤيتهم وحسب وإنما أيضاً وبالدرجة الأولى قدرتهم الذاتية المستمدة من الدعم الإمبريالي، ويمكن أن تضعف وتلدى قوة أو تضعف العرب.

ب - اعتمدت الحركة الصهيونية ثم الدولة الصهيونية على دولة عظمى تضمن لها السقاء وتحقق لها الأمن نظير أن تقوم الدولة الصهيونية على رعاية مصالحها في الشرق الأوسط وقد ازداد اعتماد الدولة الصهيونية على الولايات المتحدة لدرجة غير عادية، حتى أنه يمكن القول أن الولايات المتحدة أصبحت طرفاً في العقد الاجتماعي الذي يستند إليه التجمع الصهيوني هنا بمعنى أن الإدراك الصهيوني للدولة الفلسطينية ليس هو العنصر الوحيد الذي يحدد سلوك الصهيونية، فالولايات المتحدة، التي تقع خارج نطاق هذا الإدراك، تحدد سلوك الصهيونية بشكل قد يكون أكثر فعالية من الإدراك ذاته

لكننا نلاحظ فيجب أن نؤكد في هتييه الجليلي برصد التغييرات التي تحدث على الإدراك الصهيوني، المفكرة الدولة الفلسطينية، مما يقال له تشديداً قد لا يكون تشديداً على الإطلاق، وما يسمى بالاعتقال قد لا يكون إلا تغييراً عن الثقة بالنفس والصالح، بل إنهم يعتقد أن معاهد انقضاء للعرب على الجيب الصهيوني سيؤدي

إلى التشدد في ملأية الأمر، فهذه هي طسعة المجتمعات التي تستند إلى رؤية قاشية، فهي نرداد صلاية ونمركراً ونمركراً مسع ترايد ضسعط التاريخ على الأسطورة. ونكن هذا النشد في حد ذاته قد يكون مذكراً على نريد التوترات داخل الكيان، وبالتالي حتمال ترشيد أو ترشيد بعض القطاعات داخله. والعكس صحيح، فحيما يركن العرب للوم ويحدثون للراحة ويظهرون استعداداً للمرونة والاستسلام للسلام بالشروط الصهيونية فإن العدو على استعداد لأن يمنح بعض الحقوق المدنية ويظهر تفهماً لبعض «مطالبات العدالة» مثل حرية لعب كرة السلة أو كرة الطاولة أو أية كرة شاء داخل ملاعب حرة مستقلة تابعة لبلديات فلسطين لا محالب لها ولا أنظار.

فالاعتدال الصهيوني قد يكون مؤشراً على التحدال العربي، إذ لا يمكن الاعتدال مع العربي الحقيقي، أما هذا الكم الهامشي المهمل الذي يقف على عتبات العدو بطلب منه العفران والرصاص، ويتحدث عن سعادورة باعتبارها المثل الأعلى، في حالة هي أقرب إلى العياب منها إلى الحضور، فهذا يمكن ممارسة التسامح والاعتدال معه

(١) كل النصوص مستاة من كتاب علي يرهذ حل للفضة الفلسطينية؟ الذي أعية معهد فليلير في إسرائيل، وشرته دار فليلير ترجمته في صيان (١٩٨٦)، ١٩٨٦

٢- الإدراك الإسرائيلي للانتفاضة

في الفصول الأولى لهذا الكتاب حاولت تقديم خريطة الإسرائيليين الإدراكية للمعرب وتأخذ هذه الخريطة - كما أسلفنا- شكل طيف إدراكي يبدأ بالعربي الحقيقي الذي يورع ويحصد ويقاقل ويخلق أشكالاً حصارية ثم تتحرك الخريطة نحو درجات متزايدة من التجريد ابتداء من العربي المتحلف إلى العربي ممثلاً للأغيار مستولاً عن كل ما حاق باليهود من مأسى ووصولاً إلى محاولة نهيش (دوس ثم تهسيم) العربي، وفي نهاية الأمر تقيسه تماماً - عملاً بالمقولة الاستيطانية الإحلالية. أرض بلا شعب وكما يرى القارئ لم أقصع باستيراد مقولات العنصرية الغربية الإدراكية وطبقته على الصهيونية ولم أحاول أن أدلل على أنها «عنصرية» وحسب، وإنما حاولت أن أصور مصطلحات عديدة تماثل مع ما أسميه «المحى الخاص للظاهرة»، أي سماتها الخاصة المعنية كما أدركها وكما أجبرها لا كما يتفق مع إدراك عمومي مجرد. والظاهرة التي أمامنا ليست ظاهرة استعمارية وحسب ولا حتى استيطانية وحسب وإنما هي أبصاً ظاهرة إحلالية تستخدم احتمالات أو دياجات يهودية ومجموعة المصطلحات التي استخدمتها في دراستي الأتمة يمكنها التعبير عن استعمارية الصهيونية واستيطانيتها وإحلاليتها، وعن مزاعمها اليهودية أيضاً، وعن كيف يعبر كل هذا عن نفسه في إستراتيجيات إدراكية واضحة

الحجارة والإدراك

وإذا ما حاولنا أن نرصد استجابة المستوطنين الصهاينة للانتفاضة لقابلاً مرة أخرى النموذج المعرفي الغربي الذي يعبر عن نفسه في هيكل المصطلحات، ولوجدنا أن هناك مقولتين اثنتين وحسب الاعتدال والتشدد واللذان يشار لهما بالحمائم والصقور وهذه طريقة متعسفة للمعابة للرصد، ولعلها تعود إلى تبسيطات النموذج المادي الإدراكي الذي يحول الإنسان المركب إلى مادة بسيطة ثم ينظر لها من الخارج كما لو كانت مجرد حركة دون دوافع أو وهي تحليل للتصنيفات المادية

إلى تصنيف الواقع بأمره إلى مألوف وموجب. وقد قام أحد كبار المعلقين السياسيين العرب بكتابة مجموعة من المقالات عن أثر الانتماءة على المستوطنين الصهاينة، عظام بحصر عدد المصايين في المستشفيات والجرحى وكمية الأحجار المستخدمة، وكان هذا هو الأثر الذي أحدثته الانتماءة، مع أنه في دراسته هذه لم يزد عن تسجيل واقعة إلقاء الحجارة في شكلها الخارجي - كمعجر يخرج من يد عربي ويستقر على رأس إسرائيلي، دون أن يذكر ماذا حدث للعربي (من إحساس بالانتصار) وكيف استجاب المستوطن الصهيوني لهذه الواقعة. وهي استجابة يمكن أن تأخذ شكل تشدد أو اعتدال أو تشدد علني يحسم اعتدالاً فعلياً أو خوفاً يدفعه للفرار أو رفضاً لاستيعاب الموقف. فالجرحى لا يحدد استجابة المصاب وإنما يحدده مركب من العناصر النفسية والشاريحية. إن عدد المصايين الاسرائيليين حقيقة مباشرة مصمتة ليس لها دلالات حقيقية في حد ذاتها - فالإنسان الذي يصاب بحجر في رأسه يمكن أن ينهار ويمكن أن يتحول إلى وحش كاسر ويمكن أن ينال شيئاً من الحكمة والرشد حينما يرتطم بالحجر برأسه. ومن الصعب أن يعي مصطلحان اثنان (حمائم وصقور) في محاولة وصف هذه الاستجابات المتداخلة العديدة.

حمائم وصقور وطيور إدراكية أخرى

سأحاول توسيع هذا النموذج الإدراكي بما يتفق مع تركيبة القاهرة الصهيونية وأصم للحمائم والصقور الدجاج والنعام (وتنوعات أخرى). والحمائم كما يقال صالحة دوماً، والصقور يفترض فيها أنها عدوانية شرسة. وأما الدجاج فهو - حسب رأي الخبراء - متخصص في الهرب، ويجيد النعناع من دهن رأسه في البرمال. واعتقد أن النعناع هو أكثر أنواع الطيور الإدراكية انتشاراً في المستوطن الصهيوني خاصة بعد الانتماءة، وإن كان لا يعدم الأمر وجود عدد كبير من الدجاج الذي يتحدث كالصقور، وتوجد قلة نادرة من الحمائم ليس لها وزن كبير (على عكس ما تصوره الاستعارة الشائعة)، وإن كان يوجد عند كبير من الصقور التي تتحدث

كالجمائم ويقول الدكتور قدرى حمى إن اليهود الشرفيين مثلاً هم جمائم نود أن تكون صفوراً تثبت إخلاصها لنجبة المحاكمة الاشكازية وقد أسقط المعلنون السياسيون كل التدرجات والتناحلات من إدراكنا لأن نموذجهم المعرفى كان قاصراً سادحاً يحوى مقولتين اثنتين تم استيرادهما من علم السياسة العربى أو من الصحافة العربية التى تسمح باحترام شديد ييهم، ولذا لم ير الدجاج أو الحمام ولا هترات الطيور الإسرائيلية الأخرى القابعة التى تنتظر من يكتشفها ويرصدها، وقد أصبحتنا وكأننا نتمى إلى واحد من تلك المائل البدائية التى لا نرى سوى لوبى انيس لأن لغتها لا تفهم سوى كلمتين اثنتين للتعبير عن كل الألوان

جمائم بالقوة

وقد وجهت صحيفة حفاشوت سؤالاً إلى عدد من الإسرائيليين الاسريين الذين يمثلون مختلف التيارات السياسية والثقافية يقول السؤال ماذا كنت تفعل لو كنت فلسطينياً؟ وجاء رد معظمهم بأنهم كانوا سيعملون ما يفعله الفلسطينيون الآن، أى الانضمام للاصصمة بن وأصاف أحلهم أنه «كان سيعمل أكثر من ذلك بعشرة أضعاف، وقبل هذا الوقت بكثير وكنت سأفعل ذلك فى ديربحوف (أحد شوارع تل أبيب الرئيسية) بدلاً من مايدس، فهناك سيكون تأثيره أقوى». وهذا التصريح لا يودى بالضرورة إلى سلوك جمائى، فهو شبه ديان كان متركاً تماماً «لعدالة» المطالب العربية، وأن العرب سيشورون حتماً ويقالسون ضد الصهاينة ولكن مثل هذا الإدراك لا يودى بالضرورة إلى الانحياز للمطلومين المتعصين، إذ ما يحدد السلوك النهائى ليس الإدراك وحسب - كما أسلفنا - وإنما موالين القوى أيضاً ومجموعة هائلة من العناصر الأخرى المادية والعسوية فإن كان العربى ضعيفاً حاملاً، فإن إدراك «عدالة» مطالبه قد يودى إلى مزيد من التشدد لأن صاحب المطالب العادلة قد يتحرك فى أية لحظة للحصول عليها، ولذا لا بد من ضربه بيد من حديد قبل أن يصبح قوياً وقبل صوت الألوان وهذا هو موقف بن جوريون وجابوتسكى وشلمو واروسون وغيرهم ولذا يمكن القول إن المثقفين الإسرائيليين الذى عبروا

عن قهرهم لوقف العرب ليسوا «حمائم بالفعل» وإنما «هم حمائم بالقوة» بالمعنى الحرفي والملمس. وهذه الاستجابة الحمائية محصورة في أوساط المثقفين وبعض الشخصيات السياسية التي ليس لها وزن كبير، ولا اعتقد أنها تؤثر في الرأي العام الإسرائيلي أو في صنع القرار الإسرائيلي.

الدجاج

أما الدجاج فهو موجود بكثرة والحمد لله، مثل باتيل اسكيد الذي قرر في صحيفة الحير وساليم بوست (٢٥ يناير ١٩٨٨). أنه «لا يلعب الآن أحد إلى غرة سوى الحمقى المستوطنين ولا يذهب أحد إلى الضفة إلا يسب وبجيه، سب وحية للعباية فصح خائون» وعملية «تدجين» مواطنين على يد جبرالات الحجارة لا تزال قائمة على قدم وساق. وكما قالت الحير وساليم بوست (٨ فبراير ١٩٨٨) إن المستوطنين يسافرون أقل الآن، ولا يتركون الأطفال بمفردهم ولا يحرجون إلا لأمور ضرورية. وقد صرح أحد الصحفيين في صحيفته حداثوت «إن المذابح اليهودية تشاهد جثلاً حياً إذا ما أراذت السمر. وإذا ما سافر مستوطن وحده، فهو «مماصر» أما إذا اصطحب زوجته وأطفاله، فهو «مجنون».

وتؤكد مستوطنة صهيونية أن طريق المستوطنات قد حثمت وحيما تمر حافلة المستوطنين بجوار مجيم عانانا (الغسيطي) فإنها تسرع بطريقة مجبونة لتتأشى الأحجار. وبدأ المستوطنون يدللون السائير ويعلقون المداخل بعد أن كانت المستوطنة تمنع بجو افتتاحي سهيج «إن الوصح - كما تقرر السبلة - مخيف» خاصة وأنها تعرف أن الحود الإسرائيليين أرقعوا مظاهره من ٦٠٠ عربي كانت متجهة نحو المستوطنة «ماذا كان يمكن أن يحدث لنا لو أن الجنود فشلوا في إيقافهم؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لأطفالنا؟»

بلد كلها حدود

والخاصية «الاحتجاجية» للمستوطنين تظهر أحياناً في محاولاتهم الظهور بمظهر الصقور خاتق الحافة رقم ٢٥ (من القدس للصفحة) يشيد بركابه من المستوطنين الذين لا يهلعون من الحجارة ويجيلون في الاستجابة فهم كما يقول «يثقون» المهاجم هي أية خطوة، معتادين عليه». وعندما يبدأ الهجوم فهم يتصرفون «كالجود المدرسين، على ما يجب عمله» إذ يسطحون في أرض الحافة. والصورة الكامنة هنا هي صورة إنسان قلق يتوقع الهجوم ويعيد في الاحتيا (الحيرى ساليوم يوست ٨ فبراير ١٩٨٨).

ولأخذ المستوطن ليمودي جسيان، كمثال آخر، فهو رجل عجوز، يهودي أرثوذكسي يعمل حياً، وهو صقر لاشك فيه يطالب بضرب العرب وتخطيطهم ثم يقول «نحن نعمل ذلك عند الحدود. والأمر لا يختلف هنا (في المناطق المحتلة) مثل تلك حدود، وهذه أيضاً حدود كل البلد حدود» (الهيرالد تريبيون ٦ يناير ١٩٨٨) وإدراك هذا المستوطن العجوز لقلسطين المحتلة كبيلد كلها حدود هو إدراك طريف للغاية بين مدى الهلع والإحساس بعدم الأمن.

ومن أيسر الطرق لتحديد استجابة المستوطنين دراسات علماء النفس الإسرائيليين. وقد لاحظ بعض علماء النفس الأمريكيين انتشار ما سموه بأعراض فيتنم بين جنود الإسرائيليين - وهو الإحساس بالإحباط لدخولهم في حرب غير كريمة لا معنى لها، لا يمكنهم كبتها أو الانسحاب منها - فيهاجمهم الجيش الإسرائيلي ثقافتهم ولعدم استخدامهم لأزيد من العنف، ويهاجمهم يهود العالم وبعض الحكام الإسرائيليين لأنهم يحطمون عظام المتعضين دون أن يفرحوا عليهم البديل. وقد ذكرت صحيفة هآرتس أن نسبة المستوطنين الصهاينة الذين يرتادون العبادات النفسية قد ارتفع ثلاث أضعاف بسبب القلق الذي أصابهم من جراء استمرار الانتفاضة (الوطن ٤ أبريل ١٩٨٨). وقد عُقد اجتماع في بلدية القدس لمناقشة هذه الظاهرة فأشار مدير إحدى المدارس الثانوية إلى خوف المعلمين من

الوصول إلى مدارسهم فيسبب خوفهم الشديد من تساقط الحجارة على الحافلات وعلى رؤوس الركاب» «كما عبر مدير مدرسة آخر عن حوقه من تسرب هذا الخوف والمرض النفسي من المعلمين والطلبة ليشمل كافة الصهاينة في الأراضي المحتلة» (الوطن ٤ أبريل ١٩٨٨) وعلى كل ليس من السهل رصد استجابات المستوطنين ومحاوهم بالطريقة التقليدية فقد جاء في الجيروصاليم بوست أن أحد علماء النفس الإسرائيليين صرح أنه بعد ٤ عاماً من الاحتلال لم تظهر أية حالات بين المرحى النفسيين تعبر عن قلقها من العرب، وكأن عملية الكبت كاملة نظراً لأن التهديد العربي كامل، ولا يمكن للجهاز النفسي للمستوطن الصهيوني أن يواجه العربي بشكل مباشر ولو على مستوى اللاوعي وعلى كل من يجب أن يعترف أنه دجاجة؟ ولذا فمن الواضح أن نتائج بحوث الدراسات الإسرائيلية هي نتائج استحصتها الساحئون وجردوها من أقوال المرحى الذين أبى معظمهم أن يعبر العرب كمصدر لمخاوفه.

الضعام

أن يرفض المرء أن يكون «دجاجة» بهذه مسألة إرادية واعية، ولكن أن يتحول المستوطن إلى نعامة فهذا أمر يتم رغم إرادته، ولا يلاحظها هو وإنما يلاحظها الباحث الذي ينظر إليه من الخارج.

والعام في المستوطن الصهيوني، كما أشرنا، كثير، مثل جاباي صاحب مطعم صغير في مستوطنة يسحب ريث الذي أسكت خوفه بقوله «أهم الأشياء الآن أن يوقف العنف من الطرفين وأن يجلس صوياً ويشرب القهوة وسجل مشاكلنا كبشر»، وهو لم يتحدث قط عن طريق التوصل لهذا السلام وكيف سيكون الوصول لتسوية ما (الجيروصاليم بوست ٢ فبراير ١٩٨٨ العدد الثوري). وقد حدد أحد الضباط الإسرائيليين هذا الموقف العامي بدقة بالغة حين صرح لصحيفة جديشوت أن احصاء ظاهرة الانتماءة الشعبية الفلسطينية بعضى سحرية (أي على طريقة العام) هو مجرد تعبير عن آمال وأوهام يجب أن ينقظ منها الإسرائيليون (بدلاً من دس رؤوسهم في الرمن أو في أرض فلسطين).

ولعل هذه العصا السحرية توجد في أحد مباني حزب الليكود، إذ أن شارون يقول «إن الانتفاضة سوف تنتهي فور وصول الليكود إلى السلطة في نهاية لعام» (الشرق الأوسط «لغة الجبل بين عسكر إسرائيل وسياسيها» ١٢ يوليو ١٩٨٨) ولكن شارون يعني بطبيعة الحال حمامات الدم غير السحرية. ولكن حتى لا نصعبه معامة كان عليه أن يقدم لنا الإجراءات، لأن حمامات الدم تؤدي أحياناً إلى نصعيد الانتفاضات والثورات، كما يعرف الأمريكيون عن فيتنام والمصريون عن الجزائر

وقد وصف دانيال جيمرون إدراك النعام هذا في مقال في الجيرو صاليم بوست (٦ فبراير ١٩٨٨) بعنوان «لماذا الانسحاب من جانب واحد هو للمخرج الوحيد» فقال «إن المستوطن [النعام في مصطلحتنا] يظنون أنهم سيحصلون على كل شيء دون مقابل حدود آمنة، وعمق استراتيجي، وعمالة رحيمة، وسوق مفضرة عليه، وأرض لتدريب الجيش الإسرائيلي، وتجاهل العداء العربية المستمرة [لكن] ازدياد الشمره بين العرب وتدهور المجتمع الإسرائيلي الأخلاقي وتناكل وضعه الدولي» يدل على استحالة هذا. وبعد الانتفاضة ترجم إدراك النعام نفسه إلى تركيز على الجانب النفسى لقمع الانتفاضة كما لو كانت المألة مجرد إجراءات يتم تنفيذها أو خطوات يتم اتخاذها بحيث تتحول القضية برمتها إلى مسألة إجرائية. (هل الرصاصى المظاظى ومدافع المياه كعبيل بالعضاء على الانتفاضة أم لا؟) دون النوحه للأسئلة النهائية وقد اشكى شمعون بيريز من أن الوزارة الإسرائيلية تتحلى بنفس الموقف الذى نسميه بالنعامى فهى تناقش النفط اللدقيقة القيمة الخاصة بإجراءات الأمن وطريقة التصدى لانتفاضة وتجاهل تماماً الحلول السياسية اللازمة وأضاح «هى المستقبل حينما يقرأ أحد محاضر جلسات الوزارة فإنه لن يصدق عيبه» (النيويورك تايمز ٢٦ يناير ١٩٨٨)

وقد كتب ب. مايسكيل في هارتس (ملحق الجمعة ١٨ ديسمبر ١٩٨٧) مقالاً بعنوان «عيد ميلاد سعيد» وصف فيه بشكل كوميدى إدراك النعام هذا. فقال: الحمد لله أصحرت الحكومة بلياناً أكملت فيه أنه لا يوجد عصيان مدسى فى

إسرائيل». وقد اقترح الكاتب إصدار قانون باسم «قانون غيب العصبان» يقضى بمراقبة كل من تسول له فيه أن يدعى أو يكتب أو حتى أن يلمح بأن هناك عصباناً مدنياً. ولكن مع هذا تبقى مشكلة صغيرة وهي-ماذا يحدث هناك إذن في المناطق المحررة من أرض إسرائيل؟. ثم يحاول الكاتب أن يصف الانتفاضة بطريقة كوميدية تفرر ما يحدث وتكره في ذات الوقت، أي يقول الشيء وعكسه. اثمة مجموعات من الأطفال المذريين معنابة الذين يعتقدون إلى المبادرة، ينصرفون بتلقائية ويتم توجيههم من الخارج من قبل المنظمات الإرهابية التي لم تنجح في احتراق المناطق؛ سبب المعركة المستمرة التي خاضتها قوات الأمن صدهم ولذا يمكن أن نقرر أن هذه لمنظمات وحدها وراء هذه الانتفاضة التلقائية، التي تظهر وراءها بوصوح اليد الموجهة والتي يبلد وجودها على قتل منظمة التحرير الفلسطينية أن تكسب دعم الجماهير المحلية القائمة بالاحتلال الإسرائيلي لو تركت وشأنها، فالاضطرابات ليست سوى حدث عابر مستمر -ولكنها ليست عصباناً مدنياً»

إن إدراك النعام هو العنصرية الصهيونية مقلوبة حرفياً على رأسها، فالعنصرية الصهيونية تعبير عن الرعة الصهيونية في إحلال العصر اليهودي محل العرب. ولذا فهي تهدف إلى تغييب العرب، ولكن إن عاد العربي بهذا العنص، وإن ظهر على شاشة الوعي ورفض الغياب، فما العمل إذن، وما الحل؟ الحل النعامي -بطبيعة الحال- أن يدس المستوطن رأسه في الرمل فيغييب العربي مرة أخرى. ولكن الأمور ليست بهذه البساطة هذه المرة إذ أن العربي يمسك في يده بحجر سراجير يؤلم ويحرج وقد يقتل.

الصقور

وإذا انتقلنا إلى الصقور فحدث ولا حرج، فهم كثيرون، فرئيس الوزراء الإسرائيلي صرح (تأريخ ٣ يناير ١٩٨٨) بأنه لا توجد قوة في العالم «لا لتطاهرون ولا الإرهابيون ولا الضمط يمكنها أن تمنع إسرائيل من الاستيطان في كل أجزاء

أرض فلسطين، وغنى عن القول أن عملية الاستيطان لا يمكن أن تتم من طريق الحب والإحاء والإقناع الهادئ* فالعرب ولا شك غير مواطنين أن تؤخذ أراضيهم وقد أصاب شامير (في نيويورك نايمز ٣ أبريل ١٩٨١) أما أولئك الذين يقولون أننا نحن الإسرائيليون غرة، وإن قبل مشرو التلافل والفئة والإرهابيون أنهم أصحاب الحقوق الحقيقية، فإننا نقول لهم من أعالي هذا الجبل ومنظور آلاف السنين من التاريخ أنهم مجرد حراد بالقياس لنا، وكلنا يعرف ماذا يفعل بالحرد* فالاستعارة هنا تحوي داخلها مؤشرات نحو الإبادة وقد صرح رايب (تايمز ٤ يناير ١٩٨٨) بأن إسرائيل لم تستخدم كل أسلحتها بعد وأنها مستعدة فرض الأمن حتى ولو كان موجهاً وحسب تجربة الفلسطينيين العرب، نجد أن الأمن الإسرائيلي دائماً موجه وقد أشار رايب إلى بعض الطرق التي يجب استخدامها لفرض هذا الأمن الموجه فقد حذر المنتفضين أن كل من يتحدى إسرائيل سيحطم رأسه على صخور هذه القطعة وحيطتها» (النيويورك نايمز ٣ أبريل ١٩٨٨)

وصرح إسحق مردخاي «إن قوات الأمن ستتحذ جميع الإجراءات اللازمة من أجل إعادة الأمن إلى مساهبه ولن تتوانى في استعمال جميع الوسائل من أجل تحقيق هذا الهدف» وتلجأ القوات الإسرائيلية لكسر العظام وإطلاق النار وترحيل القوات خارج الوطني بل إن الإبداع الصهيوني في القمع بدأ يأخذ أشكالا جديدة فهناك ما يسمى «بحظر التجول النشط» (ليل العصى الطويلة) لسيونيل ماركوس هأوتس ٢٦ يناير ١٩٨٨) ويتلخص في اقتحام المنازل في الظلام أثناء حظر التجول حيث يجرى الجرد الصهاينة تفتيشاً عسكراً داخل البيوت ويهالون بالصرب على رب العائلة والإبن الأكبر

وقد علل قائد الجيش هذا الأسلوب الجديد في القمع بأنه محاولة لإعادة بث الرعب من الجيش في قلوب الفلسطينيين، فالهدف ليس النظام الخارجى وحسب، وإنما إعادة الثقة الذاتية للجود، بعد أن أصبحوا أضعف حركة طوال أسابيع ويبدو أن اجتياح لبنان الأخير (عملية الفانوس والطام) كما يسميها الإسرائيليون) تهدف إلى

منس الشئ فقد وصفت الصلداى فائز هذه الحملة بأنها تشكل محاولة من جانب إسرائيل لاستعادة زمام المبادرة بمرص عضلاتها وإظهار أنها عادت إلى مصعد السابق وقال مردخاي عور «سيدنكر الاحتياح سكان الاراضى المحتلة بأن الجيش ليس معككاه» (القيس ١ مايو ١٩٨٨)، لقد أدرك العدو أنها معركة هوية.

وقد اقترح شلومو جاريت (وليس المحاورات الاسبق) أنه يجب عدم الاكتفاء بهدم منزل الإرهامى كعقوبة، بل يجب هدم كل شئ فى محيط قطره ٢ - ٤ متر من منزله (جداشوت ١٠ يناير ١٩٨٨). أما وزير الأديان وزعيم الحزب الدينى «المفتل» فقد أكد أنه يتعين على قوات الشرطة الاسرائيلية إزالة قرية بيت فى قضاء نابلس من على وجه الارض تماماً وإقامة مستوطنة تحمل اسم المعتاة اليهودية التى قتل فوق أنقاضها، ويجب أيضاً طرد وإبعاد مئات المواطنين العرب من سكان القرية» (الوطن ٢٤ أبريل ١٩٨٨).

وقد أدرك رفائيل إيتان، عضو الكنيست الحالى، ورئيس أركان القوات المسلحة الاسرائيلية الامين بأن الانتفاضة هى الطلقة الأولى فى الحرب القادمة، وعلق على دجاجة الجسود الاسرائيلى وكيف يولون الأدبار أمام الأحجار، وكيف يظن العالم كله ليرى ذلك المنظر «وينظر إلى جيشى ضعيف وحكومة محرفة ولا تعمل» وقد قرر إيتان أن يقدم اقتراحاته للقضاء على الانتفاضة، وهى تسمى بكن تبسيطات الماذج المادية العملية «فإذا أشعل العرب إطارا فى شارع رئيسى يتم جر هذا الإطار إلى أقرب بيت فى المنطقة من مكان اشتعاله وحلال ثواب يخرج سكان البيت ويضعوا الإطار؛ لأنه سيؤدى إلى حرق بيتهم إذا لم يعملوا ذلك». واقترح أن تُمسح السيارات العربية من السير فى الشارع المعلق بواسطة حاجز من الحجارة لمدة شهرين، وهذا لا يحتاج جيشاً كاملاً بل شرطيين يقمان على حافة الطريق وأشار إيتان إلى حقيقة هامة وهو أنه بين عام ١٩٦٧ و١٩٧٧ تم إبعاد (أى نفيهم) ٨ عربى محصر، (أثناء حكم المراح المفتل) ويجب إبعاد ٤٠ - ٥٠ محصر، بل وإبعاد أمهاتهم وأساء عائلاتهم ولا يوجد أى إبداع فعمى فى

اقتراحات إيتان وعلى كل من يود أن يحصل على اقتراحات مماثلة أن يدرس تاريخ الإرهاب الذي وسيجد أفكاراً أكثر إبداعاً وأكثر منهجية وأعلى كفاءة، مفهوم المقاب الجماعي ليس من اختراع الصهيونية وإنما هي ممارسة استعمارية غريبة قديمة وتقليد راسخ.

التشدد اللغوي

وبعض المستوطنين أيضاً في التشدد، فمنهم من يرى ضرورة ضم القطاع والضفة تماماً. وكما قالت جريدة فرانكفورتر الجمانية: «إن معظم الإسرائيليين مع خط شامير المتشدد»، وإن هدفهم إنهاء الوجود العربي في فلسطين، وعندما وقع حادث بيتا (حيما وقعت مستوطنة صهيونية صغيرة صريعة وصاعص المستوطنين وأصبح أنها رحمت بالحجارة) طالب المستوطنون اليهود بتدمير قرية بيتا على رؤوس سكانها وتسوية القرية بالأرض وشطبها نهائياً من الخريطة حتى تكون عرة للغير» (الفس ٢٢ أبريل ١٩٨٨). ومن المستوطنين من يرى ضرورة تسوية الحساب مع العرب كما سواء الأمريكيون مع الهنود الحمر، على شرط أن يتم ذلك بعيداً عن عدسات التليزيون (تايم ٤ أبريل ١٩٨٨)

وتبين إحدى إستطلاعات الرأي التي نُشر في الصحف والمجلات وبلتحتها المحللون والمعلقون العرب وغير العرب أن ٤٨٪ من الإسرائيليين يرون ضرورة منح العرب حقوق مواطنين من الدرجة الثانية و ٣٢٪ غير متأكدين، ولم يوافق سوى ٢٪ على إعطائهم الحقوق الكاملة وكان موقعهم، لمتشدد هذا نتيجة إدراكهم أنه لو احتفظت إسرائيل بالأراضي المحتلة فإن العرب سيصبحون أغلبية (وهذا إدراك ٧٧٪ بينما لم ير ١٦٪ ذلك) (نيويورك تايمز ٢٥ يناير ١٩٨٨)

لقد اقتبسنا حتى الآن كلمات الصهيونية المتشددة وحسب، ولكن يجب أن نعرف بين الأقوال والأفعال فالأقوال لا تعبر عن الموقف المتكامل وإنما تعبر عن تشدد الإنسان الباطني وعن نيته وقصدته وعن حالته العقلية - أي عن جزء من كل

ولدراسة مدى تشدد الإسرائيليين العملي وهي كليلته، علب تجاوز البية والقصد والنباسجات لسرعد عتاصر أخرى مركبة تتجاوز إرادة الشافل داته، فالتشدد اللمطي، أي الموقف الصغرى الكلامي، قد يكون أحياناً بمثابة عطاء لتعطية الموقف الدجاجي أو النعامي الفعلي.

حد مثلاً رغة إيتان أن يمسح مرور السيارات ويكنمى بجذيين يغقان على ناحية الشارع هل درس إمكانيه إلقاء الحجارة عليهما، وأن الحندين سيحتاجان إلى مرفة عسكرية كاملة لهمايتهما؟ أما بخصوص ترحيل مئات القصادات، ألا يحتاج الأمر لآليات معينة وآلة قمعية معينة لأن قاعدة هؤلاء القادة في حالة استغار؟ ولكن هذه الأسئلة تفرص أن صاحب الاقتراح عسده الصورة الكنية، والأمر ليس كذلك فالنموذج الإدراكي المادي يجتزئ مجموعة من الحقائق ويستبعد الحقائق الإنسانية والتاريخ، ولذا يتحول العصر الهائج من منظور الممارسة إلى نعام مضحك. حد مثلاً رغبة هذا المشروط الذي يود دبح العرب وإيادتهم بعيداً عن كاميرات التليفزيون، تماماً كما فعل الأمريكان في تجربة استيطانية مماثلة، وهذه هي شهوة الصقور ومع هذا بعد التدقيق لحد أن مرفقه هذا نعامي تماماً، فهو يعرف أن التجربة الأمريكية الاستيطانية الإحلالية تمت ابتداء من القرن السابع عشر في منطقة لم تكن فيها الكثافة السكانية كبيرة، تسكنها عدة قادم من اليهود، تسب حضارتهم بعدم التركيب، رغم جمالها ورفقتها، ومن هنا كان من السهل إيادتهم بعيداً عن عين التليفزيون الشيطانية أما هذا المشروط الصهيوني فقد تمت تجربته الاستيطانية ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر في منطقة تجمع بالسكان الديس تحيط بهم ملايين من إخوانهم وهم يتمود لثراث حصاري قديم مركب وعلاوه على كل هذا أصبح في وسعهم الآن الخوار مع الكاميرا، ويكفاءة غير هادية، فالتشدد هنا هو من قبيل ما يمكن تسميته بالعادة السرية السياسية، والحلم بالمستحيل المذنب.

أما الذي يود إعطاء العرب حقوق مواطين من الدرجة الثانية رغم إدراكه أنهم أغلبية فهو لم يبين كيف يمكن تحقيق ذلك، ولعله لو طرح عليه عدة أسئلة أخرى لفتهرت بالتناقضات النعامية الكامنة.

ويجب أيضاً أن سرى التشدد باعتباره تعبيراً عن أزمة حقيقية و هميفة،
والصهاينة- كما أسلفنا- على استعداد لإظهار قدر كبير من التسامح حيال العرب
إذا قبل هذا بالتطبيع وبأن يكون قطعة هبار للصهيوي يمكنه استخدامها وتوظيفها
لصلحه حيث يمكن أن يمح العربي كثيراً من الحقوق المدنية وبعض الحقوق
السياسية ويمكنه أن يلعب ما شاء من تنس الطاولة، أى أن يمارس هوايته إذا كان
ملا هواية

إن عاب العربي، وإن قنع وحسم أى لم يتحد الشرعية الصهيونية، فبوسع
الصهيوي أن يتحد موقفاً معتدلاً تجاه دجاج عربي مستأنس ثم تطييعه، أما إن تحول
العربي إلى صفر دى هواية يهاجم دفاعاً عنها فإن الاعتدال يحتفى ويتخلى العدو
عن ديمقراطيته العربية المزعومة، ويضرب بيد من حديد، فالتشدد من هذا المنظور
له مدلولات تختلف عما تود وسائل الإعلام العربية نقله لنا

الشخصية القومية الإسرائيلية

مع هذا سرى أنه من الضروري أن تحكم على التشدد الإسرائيلي في إطار
أوسع بحيث يستخدم مؤشرات أخرى مثل نسبة السروح كمؤشر على التراخي
فالمستوطى الذى يصبح ويطالب بإهلاك العرب ثم يجرى للمعاراة الأمريكية في
اليوم التالي ليحصل على تأشيرة هجرة، هو في واقع الأمر دجاجة في ريش
الصفور وقد أشارت زوجتى إلى أن هروب الإسرائيليين عن الإنجاب يصلح أيضاً
كمؤشر أحر على مدى التشدد والتراخي، فإذا كانت المعركة «معركة بقاء» كما
يقول الصهاينة، وأنا أوافقهم الرأي، فإن من يسحب أكثر هو صاحب العزم
والعزيمة. ولينظر من يشاء للساء الإسرائيلية وللمرأة الفلسطينية «النقوض» التى
تجيب الأطفال فتندخل الفرحة على قلبي وتدخل الكآبة على قلب الحسود

ويمكننا أيضاً أن نستخدم مؤشرات أكثر مباشرة إلى المستوطنين «الذين توقعوا
عن إصلاح منازلهم أو توسيعها أو زراعة حنائقها لأن المستقبل لم يعد مؤكداً كما
كان من قبل». (الأهرام ٢ فبراير ١٩٨٨ عبدالمعظم حماد ومحمد الحناوى
«إنعاص الحجارة»)

إن الشدد إذن ينصرف إلى الصياغة اللغوية وحسب ولا يصلح كمؤشر على كل السلوك، فهو دال دون مدلول، أو دال جزئي وحسب. وهنا من يمكننا القول -على طريقة علماء «الشخصية القومية»- إن تشدد الإسرائيليين اللغوي هذا يسم عن جبههم للألماظ وأنهم يطربون للغة، وإن لغتهم -لأنها لغة قديمة متحجرة- تعرض عليهم صيماً لغظية لا تعبر بالضرورة عن حقيقة موقفهم؟ وأنا لست من المتحمسين لقضية دراسة الشخصية القومية هذه (خاصة وأنها استحصت كحصا لعصر الإنسان العرسي في العقود السابقة)، إذ أننى أرى أن سمات الإنسان القومية، إن وجدت وتم تعريفها، وهذه مسألة ليست مستحيلة ولكنها فى غاية الصعوبة، فإنها عبارة عن سمات محايدة يمكن توظيفها للنهوض أو للكنوص، للحير أو للنشر، وهى سمات لا تؤدى إلى هذا الموقف أو ذاك بشكل حتمى. فالسمات فى حد ذاتها لا تصلح كنموذج تفسرى لسلوك الإنسان، وإى كمؤشر على استعداد كامن قد يتحقق وقد لا يتحقق. واعتقد أن نفس الشئ يظن على الإسرائيليين، فلا يمكن القول أن الإسرائيليين شجاع بطبيعته أو أن اليهودى طماع بطبيعته وهكذا.

الإحساس بالدولة

ومع هذا نجد أن من أهم الاستجابات للاتعاسة تلك التى حاولت أن توحه البعد للشخصية القومية الإسرائيلية، وكأنهم يقولون لقد فشلنا فى ترويتها وقد تناولت فى مكان آخر فكرة اخفاد السلطة، وهى أن اليهود عبر التاريخ لم يمارسوا قط السلطة السياسية وقد بحث المنقرون الإسرائيليون مرة أخرى هذه المعكرو وبدأوا فى انتقاد شخصيتهم القومية من هذا المنظور، باعتبارها شخصية تعتمد إلى «الإحساس بالدولة» وعدم القدرة على استخدام السلطة. ومن أهم الشخصيات التى ذكرت هذا الموضوع عدة مرات هو إسرائيل هاريل، رئيس مجلس المستوطنات فى الضفة الغربية والقطاع ورئيس مجلة نيكودا، لسان حال المستوطنين- فقد قال (فى مجلة ميوزويك ١٥ فبراير ١٩٨٨) إن الإسرائيليين يصرفون كاليهود الألمان فى

الكريستال نأيت أى ليله الكريستال (التي قدم النازيون فيها بمهاجمة ممتلكات يهود ألمانيا ومخطبهما) «الإنذارات في كل مكان بأن الكارثة محدقة، ولكننا أصبنا بالشلل». وقد أشد إلى ما سماه الحلل الأساسي في الشخصية القومية، فالإسرائيليون - حسب تصوره - يمتدرون إلى الإحساس بأنهم يشكلون دولة ثم عقد مقارنة بينهم وبين الشعوب الأخرى فقال: «في أوروبا أو في أى مكان آخر لا يمكن التنازل عن المطالبة بأرض لأن شعباً آخر يعيش فيها». (الجير وساليم بوست، إبراهيم وينوختش «محب فوق السامرة» ٣٠ يناير ١٩٨٨).

وقد كرر بحرقتيل دور بعض الفكرة تقريباً في الجيرو وساليم بوست (٢ فبراير ١٩٨٨) إذ أكد أن «الشعب اليهودي» يمتد إلى تقاليد الدولة، أى ممارسة الحكم، ويرى بعض المؤرخين أن هذه عقبة كأداء في بناء دولة إسرائيل، مما يدل على أنها إشكالية حقيقية بدأت تطل برأسها.

ومن أهم الشخصيات التي تخصصت في الشخصية القومية العربية ويون مدى قصورها وعمل مستشاراً للحكومة الإسرائيلية في الشؤون العربية يهوشافط هركابى، ويتميز موازين القوى نجد أنه حول مذبذب الجراح للشخصية القومية الإسرائيلية. فكرر ما قاله هاريل ودور عن إحقاق الإسرائيليين في فهم كيف يمكن للدولة أن تنصرف تجاه الدول الأخرى، وفسر هذا الإحقاق على أساس أنه نقطة قصور كامة في التقاليد اليهودية (الجيرو وساليم بوست ١٩ فبراير ١٩٨٨).

الإسرائيليون الذاتيون والعرب الموضوعيون

ويذهب دور إلى أنه يمكن تعريف ذلك الافتقار إلى تقاليد الدولة، الذي تعيش في ظلاله الشخصية الإسرائيلية، عن طريق يدل جهد واسع من جانب الإسرائيليين أن يذكروا من حلال التاريخ (الجيرو وساليم بوست، ٢ فبراير ١٩٨٨)، أى أن الافتقار إلى تقاليد الدولة هو ما كنا سمينا في أوائل السبعينات رفض التاريخ أو الحلم بهاية التاريخ - أى أن يعيش المرء داخل الأسطورة الداتية التي لا تنعكس

الواقع التاريخي بكل جدره وتنتوله ويجابه الواقع من خلال أحلامه وأوهامه وحسب. ويبدو أن مركابي هو الآخر يربط بين رفض التاريخ وهذه السمة من الشخصية القومية الإسرائيلية وإن كان يستخدم مصطلحاً مختلفاً يسميه «إضفاء طابع حادى على عناصر انتجاع». وهو يرى أن الحركة التصحيحية الصهيونية مصابة بهذا الناء أكثر من غيرها، إذ أن أتباعها كانوا يودون أن يقصروا على الواقع للوصول إلى الدولة. ولكنه فى مكان آخر من المقال ذاته يعمم هذه المقولة على كل الصهاينة ويشير إلى أن الحقل الإسرائيلى ككل مصاب بهذا المرض المعصالى فيقول «إن مشكلة إسرائيل ليست سياسية فائساً - وإنما وراء سياسية (ميتاسامية)، ونكمن فى نشوء تفكيرها الأساسى تمجيد الوهم، والقصور فى إدراك أن الواقع يتعقد بحلوله الممكن، وأن ما هو غير واقعى لا يوجد ولن يوجد، وتمجيد الإرادة الطوعية أو الإرادية (Voluntarism) كما لو كانت الإرادة وحدها كافية لتحقيق الأهداف. نحن مرفض معطيات الواقع دون أن ندرك أن للعدو إرادة لابد أن تؤخذ فى الحسبان، ونضع سياستنا بشكل مجرد حسب احتياجات الصهيونية كأننا نعيش فى فراغ [الأسطورة المعادية للتاريخ] ونتجاهل النظام العالمى والرمز ومتطلباتها من الآخرين. وكل هذا نابع من صيق أفق يتعارض مع التاريخ» «anachronistic» هذا الوصف أى «فقدان الارتباط بالواقع» يبدو أنه «كتالوج» جاهر عند مركابي. فقد ذكر فى طى نقده للشخصية العربية أشياء من هذا القبيل. ولكن الطريف هذه المرة أنه لا يكتفى بانقراض الشخصية الإسرائيلية وإنما يرى أن الشخصية العربية لا يمكنها أن تسقط فى هذه الدائى المعادية للتاريخ، ويقول: «إن العوامل الموضوعية التى يعبر عنها أمجاد العرب الهائلة واتساع أراضهم قد أنقذتهم من الاضطراب لسجوه للعناصر الدائى لضمان النجاح؛ بكل ما يتضمن هذا من تشويه للواقع. إن الانهاء العربى هو دائماً نحو التمثيل الزمى للعناصر الموضوعية التى تضمن نجاحهم». وهذه الأقوال تفصلها مسافة شاسعة عما قاله عنا فى أواخر الستينات. لقد تغير إدراك خبير الشخصية القومية العربية مع تغير موازين القوى.

أعراس باركوخبا

هذا الاعماس في الدائرية يعبر عن نفسه - من منظور هركايي هي اتجاه الانتحاري بين الإسرائيليين. فالقضية التي تواجههم ليست أن دولتهم ستتحول إلى دولة «أبارتهيد» (تفرقه لونية) وإنما القضية هي «أنا لن نكون وحسب»؛ إذا ما استمروا متعنتين في الأسطورة الخاصة ويصرب هركايي مثلاً شائهاً وهو ما حدث لليهود إثر التمرد اليهودي الثاني ضد الرومان (١٢٥ - ١٣٢ ميلادية) فأعضاء هذا التمرد دخلوا الحرب فدخلهم حمى ماشيحانية ترى أن نهاية الأيام (أو التاريخ) وشيكة وقد أعلن بعض الماخامات أن باركوخبا زعيم التمرد هو الماشياح (المسيح) للعالم اليهودي الموعود. ويدون حساب موازين القوى أو معرفة مدى قوة الرومان أعلى باركوخبا وأتباعه التمرد على روما فتم القضاء عليهم وعلى ثورتهم وعلى البقية الباقية من الوجود اليهودي الهزيل في فلسطين. ويسمى هركايي مرض البائية هذا الذي يؤدي إلى الانتحار، «أعراس باركوخب» (الخبرو سالم بوسست ٤ أبريل ١٩٨٨)، وهو يتصح الإسرائيليون بتفسير هذا الجانب من شخصيتهم القومية

وسلاحظ أن سمة قومية مثل الاتجاه الانتحاري كانت تستخدم في الماضي لتهديدنا، والآن بين واحد من كبار المفكرين الإسرائيليين أنها في الواقع نقطة قصور، بما يبين أنها سمة معادية واعتقد أن ما يسميه هو «الاتجاه الانتحاري» هو ما أسميه أنا «الاتجاه التعامي»؛ واعتقد أن الصورة التي استخدمتها أكثر دقة لأنها ليست متطرفة، ولأنها مرتبطة بصورة إدراكية أخرى مثل صور الدجاج والسمام والصقور.

وثل أن نختم هذا الفصل قد يكون من المفيد أن نشير إلى صورة شمشوية انتحارية أخرى، وهي صورة ماسادا. إذا كان يقال لنا أن ثمة نرعة انتحارية عند الإسرائيليين، فإن ثم محاصرتهم، فهم سيلعرون أنفسهم ويلعرونا معهم تماماً كما فعل شمشون وكما فعل أسلافهم في قلمه ماسادا، حين رفضت جماعة يهودية

حاصرها الرومان أن تسلم لهم وفضلت الانتحار وقد استحدثت هذه الصورة الإدراكية للذات الإسرائيلية لتحويما وإقناعا بضروره التعامل مع العدو بحذر

وقد أثبتت الأبحاث التاريخية ريب واقعة ماسادا وأثبتت الوقائع التاريخية أن هذه الأسطورة لا تشكل إدراكاً حقيقياً للذات الإسرائيلية فإنهم يبدوون كثيراً من الروية والتكيف كما حدث أثناء حصار إحدى المواقع في حط هاريف فقد تحدث الجود مع قيادتهم في إسرائيل وقالوا ساحرين 'هل نشعر على طريقة ماسادا؟' فكان الرد عالياً وواضحاً لا إسهام فيه 'لا داعي لهذا، المهم أن نظهروا بمظهر لائق أمام حلفائنا التلمزيون المصريين'

وقد حدث نفس الشيء أثناء الانتفاضة، لم يفكر الإسرائيليون في هدم المعبد على رؤوسهم وعلى رؤوس العرب، وإنما ظهرت الدجاجة الكامنة داخلهم، لكنها أخذت هذه المرة شكل الطائفة المروحية الأمريكية. إذ يبدو أن من المناظر العالقة في أذهان الإسرائيليين صورة آخر طائرة مروحية أمريكية تعادر «ساجحون» بعد المهزلة التي لحقت بالقوات الأمريكية، وقد تعلق بها الأمريكيون وقد ورد ذكر هذه الطائرة الدجاجية على لسان عدة متحدثين صهيانية من بينهم شارون الذي أشار إلى أنه إن لم يهضم الإسرائيليون هسثاني الطائرات المروحية وسيفعلها الإسرائيليون من سطح السفيرة الأمريكية، أي أن شمشون الجبار، هذا الصقر الرهيب، هو في واقع الأمر دجاجة أو ربما ديك رومي يهرول بسرعة عمير عادية نحو الدجاجة المروحية، وفي هذا يفكر المهرولون.

وبعد، هذه محاولة لرصد استجابات المتوطنين الصهيانية للإنتماء المباركة، وهي محاولة ترمي إلى تجاوز الثنائيات المتعارضة التي تسم النموذج الإدراكي العرسي (المادى البسيط) وتحاول أن تطرح بدلاً من ذلك نموذجاً أكثر تركيبياً لأنه يستعيد الانساق الإنسان مرة أخرى ككائن حي ظاهر غير باطنه، قوله غير قمله، وعيه عبر لا وعيه، قصده غير سلوكه. هذا لا يمس الانفصال الكامل للواحد عن

الأحر والظاهر يعبر عن جزء من الباطن، والقول يؤثر في الفعل ويتأثر به، والوعي يتداخل مع اللاوعي، والقصد والسلوك يتصقان ويتختمان حسب الظروف والعوامل.

وهذا النموذج الإدراكي المركب المقترح هو وحده الذي يصلح كنقطة بدء لرصد سلوك العدو ولعل مراكز البحوث العربية تنقّض عنها التبسيطات المادية الإدراكية التي زرعت في قلوبنا الهزيمية وشوهت رؤيتنا لأنفسنا وللآخر

الفصل الثالث

في الإدراك الغربي لليهود

- ١- اليهودي كعنصر نافع داخل الحضارة الغربية
- ٢- اليهودي كمسلم في أفران الغاز
٣. الإدراك النازي لمفهوم الحكم الذاتي
٤. الإدراك الغربي والصهيوني لحروب الفرنجة
(الصليبيين)

١ - اليهود كمصدر نافع داخل الحضارة الغربية

هل يصح أن يؤسس علاقتنا مع الآخرين من منظور مدى مهمهم لنا أو حتى للمجتمع ككل؟ لاشك أن مفهوم المنفعة، حتى يجمعاها المادى الواحدى، مفهوم مهم للعامة، نتحدثه دائماً في حياتنا اليوم في علاقتنا مع كثير من الشر، ولكننا عادة لا نطبقه على من يدخل معهم في علاقة إنسانية مباشرة (أولية) مثل علاقات الفرة والخيرة والأسرة. فمن نستخدم هذا المفهوم مع من يدخل معهم في علاقة موضوعية تعاقدية، مثل السكرتير أو مضييفة الطائرة - فمصيبة الطائرة إن لم تحضر لى طعامى في الوقت المحدد له، وإن لم تحضر لى القهوة حينما اطلبها، وإن لم تحرمى بمواعيد الأفلام، بل وإن لم تنصع لرقعة حينما نتحدث معى، فهى لا فائدة لها، ومن حفى أن أقدم شكوى لشركة الطيران، خاصة إذا ما كنت من ركاب الدرجة الأولى (وهى مرتبة تقترب إلى حد ما من الفردوس الأرضى) ولكن حينما يحكم بعدم النفع على شخص ما، فإن يدرك أننا نتحدث عن جانب واحد من وجوده، وهو وظيفته، وهى الرقعة العامة التى التفتى معى فيها، ومن ثم فعلى يدرك، أحياناً عن رعى، وأحياناً أخرى بدون رعى، أن حكماً لا يصحرف إلى إنسانيته الكلية المتبعة (كأب وابن يحب ويتمنى مثلاً) فمهما بلغ المرء من القوة، فإنه لا يمكن أن يبيع به التسلح درجة أن يظن أن الوظيفة هى الشخص، وأن أدائه لوظيفته هو وجوده وكيونته

الشعب الشاهد

ومع هذا هناك ظاهرة الجماعة الوظيفية، وهى جماعة بشرية يستجلبها المجتمع لتتسلط وظائف بأنف اعضاء المجتمع القيام بها لأنها مثب (البعد) أو لأنهم عاجزون عن القيام بها لأنها تتطلب أدوات وخبرات معينة (الطب وقطع الماس)، ولأساس أخرى عديدة (الاعتبارات الأمنية)، وعادة ما يُعرف عضو الجماعة الوظيفية في صورة الوظيفة التى يصطلح لها، وفي صورة مدى عجاذه أو إحقاقه في

أدائها، أى فى صوره نفعه؛ هنا هو تعريفه وهذا هو إدراك مجتمع الاعلانية له وقد كانت الجماعات اليهودية تصطلع بدور الجماعة الوظيفية (القتالية والاستيطانية والأمنية) فى العصور القديمة، ثم تحولت إلى جماعات وظيفية تجارية فى العصور الوسطى فى الغرب - مادة بشرية ناقمة يتم قبولها أو رفضها فى إطار مدى النفع الذى سيمود على المجتمع من جراء وجودها فيه. وبما دعم من هذا الإدراك الحرس لليهود الرؤية المسيحية (الكاثوليكية) لهم باعتبارهم شعباً شاعداً، يدل وجودهم المتدننى على عظمة الكنية، ومن ثم يبنى الحفاظ عليهم بسبب دورهم الذى يلعبونه فى الدراما الكسرية الدينية. وقد سادت هذه الفكرة فى أوروبا الكاثوليكية الإقطاعية، فاستقر اليهود فى المجلتروا وفرنسا، فى العصور الوسطى الغربية، كأقنان بلاط (Serui Camerae regis) ومصدرو نفع ودخل للإمبراطور وللمطبات الحاكمة التى كانت تستجلبهم وتوطنهم ومنحهم المزايا والحماية والمواثيق. وكان يشار إلى اليهود أحياناً على أنهم سلع وسقولات Chattel. وكانت المواثيق التى تمنح لهم من قبل الحكام الإقطاعيين تتحدث عن ملكية الحكام لهم (judaeos habere) وعن حق الحكام فى الاحتفاظ بهم (judaeos tenere) ويمكس القول أنه قد يكون من الأدق النظر إلى اليهود داخل الحضارة الغربية (خاصة فى العصور الوسطى) باعتبارهم أدوات إنتاج وإدارة ورأسمال لا باعتبارهم بشراً أو حتى قوى إنتاج (إن أردنا استخدام المصطلح الماركسى) وقد استقر اليهود فى ألمانيا ثم فى بولندا على نفس الأساس.

ومن أكثر الأمثلة أهمية (وطرالة) التى قد تساعدنا على فهم الطبيعة النعمية لعلاقة للجمعات العربية باليهود ما حدث لليهود فى شبه جزيرة أيبيريا. فقد كانت توجد عاصر يهودية كثيرة فى بلاط فرديناند وإيزابيلا، وقد لعب أحد أثرياء اليهود دوراً مهماً فى عقد القران بينهما وتوحيد عرش قشطالة وأراجون. كما قام بعض أثرياء اليهود بتمويل حرب الملكى ضد المسلمين، مما أدى إلى هزيمتهم وإنهاء الحكم الإسلامى. ومع هذا تم طرد أعضاء الجماعات اليهودية بعد سبعة شهور فقط من

إنجاز هذه العملية العسكرية التي مولها بعضهم، ذلك أن نجاحها قد أدى إلى أن دورهم كجماعة وظيفية نافعة لم يعد لازماً

العصر الحديث

هذا المفهوم الكامن في الفكر الغربي الوسيط، ازداد انتشاراً وتواتراً ووضوحاً مع علمنة الحضارة الغربية، ويمكننا القول إن الرؤية الغربية لليهود في العصر الحديث هي إعادة إنتاج لهذه الرؤية التعمية. ولكن يلاحظ إن الديباجات الدينية ازدادت خفوتاً (إلى أن تلاشت تماماً، إلا من بعض التصريحات المضحكة من التراث المسيحي-اليهودي) ولقد كان وضع اليهود مستقراً عاماً داخل المجتمعات العربية في العصور الوسيطة كجماعة وظيفية وسيطة ذات نفع واضح ثم بدأ هذا الوضع في التقلقل مع التحولات البنيوية العميقة التي خاضها المجتمع الغربي ابتداء من القرن السادس عشر وظهور الثورة التجارية، ولم يعد من الممكن الاستمرار في الدفاع عن وجود اليهود من منظور فكرة الشعب الشاهد (الدينية). فظهرت فكرة السفينة الآلمية أو الاسترجاعية (البروتستانتية) التي تجعل الخلاص المسيحي مشروطاً بعودة اليهود إلى فلسطين. ولكن هذه الأسطورة خلتها رحم معيتها وماديتها الواضحة لا تزال مرتبطة بالخطاب الديني، وكان لابد من أن يتم الدفاع عن اليهود على أسس لا دينية علمانية، كما كان لابد من طرح أسطورة شرعية جديدة ذات طابع أكثر علمانية ومادية

ويلاحظ تراجع الديباجات الدينية ويزور مفهوم المنفعة المادية في النصف الثاني من القرن السابع عشر. فتم الدفاع عن عودة اليهود إلى إنجلترا من منظور النفع الذي سيجلبونه على الاقتصاد الإنجليزي، حيث نظر إليهم كما لو أنهم سلعة أو أداة إنتاج. وكان المدافعون عن توطيد اليهود يتحدثون عن نقلهم على السفن الإنجليزية بما يتفق مع قانون الملاحة الذي صدر آنذاك، والذي جعل نقل السلع من إنجلترا وإليها حكراً على السفن الإنجليزية. كما أن كرومويل فكر في إمكانية توظيفهم لصالحه كجواسيس. وقد عمل اليهود في تلك المرحلة في وسط أوروبا

كيهود بلاط (أى جماعة من الوسطاء والخبراء التابعين بشكل مباشر للبلاد الملكى الذين يشرفون على مالية الدولة وجيوشها ومواردها وعلاقاتها الدولية) وكيهود أريد، فى بولندا (مستأجرين لصناع السلاء الإقطاعيين العائليين فى وارسو) وهذه كلها جماعات وظيفية وسيطة يستند وجودها أيضاً إلى مدى دعمها -ولذا تم طرد اليهود من هذه المجتمعات حينما لم يعد لهم من عائدة

أوتاد وهسامير

ويبدو أن مفهوم بيع اليهود مفهوم متجذر فى الوجدان العربى نشأه الجميع، ولذا حينما قام أعداء اليهود بالهجوم عليهم من منظور عدم دعمهم وضررهم، تبس أعضاء الجماعات اليهودية نفس المنطق، فلم يدافعوا عن أنفسهم من منظور حقوقهم الأساسية والمطلقة كشر، وإنما يبنوا أن حقوقهم تستند إلى دعمهم فكتب سيمون لوتساتو (١٥٨٣-١٦٦٣) وهو حاخام إيطالى مقالاً تحت عنوان «مقال عن يهود البندقية» عُدَّ فيه الفوائد الكثيرة التى يمكن أن تعود على البندقية وعلى غيرها من الدول من وراء وجود اليهود فيها، فهم يضطلعون بوظائف لا يمكن لميرهم الإصطلاح بها مثل التجارة. وهم يطورون مروعاً محتشدة من الاقتصاد ولكنهم على عكس التجار الأجانب حاصرون سلطة للدولة تماماً ولا يبحثون عن المشاركة فيها. وهم يقومون بشراء العقارات، ومن ثم لا يتفكرون أرباحهم خارج البلاد. إن اليهود من هذا المنظور يشبهون الرأسمال الأجنبى لابد من الحفاظ عليه والدفاع عنه. وقد تبس الممول اليهودى الهولندى ميسى بن إسرائيل نفس المنطق فى خطابه لكرمويل، الذى طلب فيه السماح لليهود بالاستيطان فى إنجلترا. كذلك تبس أصحاب اليهود المنطق ذاته، فطالب جوسيا تشايلد رئيس شركة الهند الشرقية، عام ١٦٩٣ بإعطاء الحسبة لليهود الموجودين فى إنجلترا بالفعل، وأشار إلى أن هولندا قد فعلت ذلك، وازدهر اقتصادها بالتالى. كما كتب جون تولاند عام ١٧١٤ كتاباً مهماً لحماية عنوانه «الأسباب الداعية لمنع الجندية لليهود الموجودين فى بريطانيا العظمى وأيرلندا» دافع فيه عن بيع اليهود مستخدماً مطلقاً لوتساتو.

ومن أهم المدافعين عن بيع اليهود الفيلسوف العرسي موشكيو، حيث يبين أهمية دورهم في المصور الوسطى في العرب، وكيف أن طرد اليهود ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم اضطرتهم إلى اختراع حطاب التبادل لنقل أموالهم من بلد إلى آخر ومن ثم أصبحت ثروات التجار غير قابلة للمصادرة وتمكنت التجارة من تحاشي العنف ومن أن نصبح نشاطاً مستقلاً، أي أنه تم ترشيدها

ولعل أدق وأطرف تعبير عن أطروحة بيع اليهود ما قاله إديسون في مجلة إسبكتاتور في ٢٧ سبتمبر ١٧١٢ حين وصف بدقة تحول اليهود إلى أداة كاملة، فاليهود مستثمرون في كافة الأماكن التجارية في العالم، حتى أصبحوا الأداة التي تحدث من خلالها الأمم التي تفصل بينها مسافات شاسعة والتي ترتبط من خلالها الإنسانية فهم مثل الأوند والمسافر في بناء شامخ، وعلى الرغم من أنهم ليس لهم قيمة في ذاتهم، فإن أهميتهم مطلقة لاحتفاظ الهيكل بتماسكه

مصلحة الدولة

وقد أصبح مفهوم بيع اليهود مفهوماً مركزياً في الحضارة الغربية مع ازدهار فكر حركة الاستنارة، ومع هيمنة شبه الكاملة على الفكر الفلسفي والأخلاقي الغربي من أهم ركائز هذا الفكر في المجال الأخلاقي الفلسفة النفعية التي تنظر للعالم كله وكافة محالات الحياة من منظور النفعة (المادية) وقد ظهر في هذه المرحلة فكر كل من آدم سميث في إنجلترا، والميريقراط في فرنسا، حيث كان كلاهما يطالب الدولة بتنظيم ثروتها وزيادتها، كما كانا يعتقدان فكرة أن الهدف النهائي (والمطلق) لكل الأنساء هو مصلحة الدولة وكان أعضاء الفريق الأول يرى أن الصناعة هي المصدر الأساسي للثروة في حين كان أعضاء الفريق الثاني، بحكم وجودهم في بلد زراعي أساساً، يرون أن الزراعة هي المصدر الأساسي للثروة. ولكن مع هذا، تظل فكرة النفعة هي الفكرة الأساسية في فكر الفريقين ولا بد وأن نفكر في النفع كمرحلة شملت اعتدال وتفتح أعضاء الجماعات

اليهودية، فسمع ظهور جماعات تجارية محلية ومع تزايد سلطة الدولة المركزية لم يعد وضع أعضاء الجماعات اليهودية قلقاً وحسب، بل بدأ يدخل مرحلة الأزمة وتم طرح الحل في إطار مدى نفع اليهود للدولة فأعلنت الأكاديمية الملكية في متز (فرنسا) من مسابقة في عام ١٧٨٥ لكتابة بحث عن إمكانية جعل يهود فرنسا أكثر نفعاً وسعادة. ولو طرحنا حكاية السعادة جانباً باعتبارهم دساجات مريحة تساهم في عملية ترويج فكرة النفع، فإننا يمكننا القول أن العرب قد أدرك تماماً في عصر الاستشارة أي حل المسألة اليهودية يكمن في تحويل اليهود إلى مادة بشرية نافعة، وهو مصطلح أصبح شائعاً في الأدبيات العربية عن اليهود منذ ذلك التاريخ ومع هذا يجب التنبيه إلى أن هذا الإطار لم ينطبق على اليهود وحسب وإنما على كل البشر وعلى الطبيعة، فالمكر الاستثنائي حول الكون (الإنسان والطبيعة) إلى مادة استعمالية يمكن توظيفها بكفاءة عالية.

وقد نشر الموظف البروسي كريستيان دوم كتابه الشهير عن نفع اليهود في عام ١٨٧١، حيث طالب بإعطاء اليهود حقوقهم المدنية حتى يصبحوا بايعين بالنسبة إلى دولة يريد أن تزيد من عدد سكانها وقوتها الإنتاجية. ويبيّن دوم أن اليهود مفضلون عن أي مستوطنين جدد لأنهم ذوو جلور في البلاد التي يقطنونها (رأسمال محلي) أكثر من الأجانب الذي يعيش في البلد بعض الوقت (رأسمال أجنبي) ومع هذا طالب دوم بأن يُعقّق اليهود لا باعتبارهم أفراداً وإنما باعتبارهم مجموعة عضوية متماسكة تعيش داخل الحيث. ومعنى هذا أن دوم كان يود تحويل اليهود إلى مادة نافعة متماسكة تعيش في وسط المجتمع الألماني فيمكن لهذا المجتمع الاستفادة منها على ألا تصبح جزءاً منه، ويظل اليهود في المجتمع دون أن يكونوا فيه (وهذه هي الرؤية العربية لإسرائيل. جيتو تابع للعرب يكون في الشرق دون أن يكون منه) وهذه ترجمة حديثة لرؤية العرب لليهود كشعب شاهد أو أداة للحلاص وجماعة وظيفية.

وقد نُشرت كتيبات عديدة بأفلام الكتاب الفرنسيين الذين ساهموا في الثورة

الغربية مثل ميرابوا وغيره، دافعوا فيها عن نفع اليهود أو إنكابه إصلاحهم أو تحويلهم إلى شخصيات نافعة منتجة. وموضوع مع اليهود يشكل إحدى اللبنات الأساسية في كتابات السياسى الإنجليزى والمفكر الصهيونى المسيحى اللورد شانتسبرى الذى اقترح نوطون اليهود فى فلسفيل لانهم جس معروف بمهارته ومثابرتة، ولانهم سيوفرون رموس الاسوال المطلوبة، كما انهم سيكونون بمثابة إسفين فى سوريا يعود بالعائنة لا على انجلترا بمفردها، وإنما على العالم الغربى بأسره. وتحويل اليهود إلى عنصر نافع عن طريق نقلهم إلى الشرق ليصبحوا مادة بشرية استيطانية هو الحل العربى الاستعمارى للمألة اليهودية. ولنا نجد أن بلهور يكرر نفس هذه الآراء فى مقدمته لكتاب ناحوم سوكرولوف تاريخ الصهيونية.

وقد سطر المفكر الميربوغراطى وفكر آدم سميث على كثير من الحكام المطلقين فى أوربا، حيث كانت حكومات البلاد الثلاثة التى اقتسمت بولندا واليهود فيما بينها، فى أواخر القرن الثامن عشر، يحكمها حكام مطلقون مستبزون فريدريك الثانى فى بروسيا، وجوزيف الثانى فى النمسا، وكاترين الثانية فى روسيا. فثبت هذه الحكومات مقياس المنفعة تجاه أعضاء الجماعات اليهودية، فتم تقسيمهم إلى ناعمين وغير ناعمين. وكان الهدف هو إصلاح اليهود وزيادة عدد الناعمين، وطرد الضارين منهم أو عدم زيادتهم. وبما أن معظم أعضاء الجماعة اليهودية مركزون فى التجارة أحدث عملية تحويل اليهود إلى عناصر نافعة شكل تشجيعهم على العمل فى الصناعة أو الزراعة، وهوما يسمى «تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادى منتج». كما كان لا يُعتق من اليهود سوى النافع منهم، وكان يُنظر لليهود كمادة بشرية، فكانت تُحدد حريتهم فى الزواج حتى لا يتكاثروا. وكان الشباب يجندون للند طويلة حتى يتم تحديثهم وتحويلهم إلى عناصر نافعة. ومن الحقائق المرعبة أن البعايا كس يعتبرون من العناصر النافعة ولند متجن حرية التنقل، وقد أدى هذا إلى زيادة عدد البعايا اليهوديات، زيادة واضحة.

قابل للترحيل

ولا يمكن فهم تاريخ الحركة الصهيونية ولا تاريخ المعاداة لليهود (بما في ذلك النازية) إلا في إطار مفهوم المسعة المادية هذا. فقد تبنى المعادون لليهود هذا المفهوم وصدروا عنه في رؤيتهم وأدبياتهم، فراحوا يؤكدون أن أعضاء الجماعات اليهودية شخصيات هامشية غير ناعمة، بل وصارة يجب التخلص منها وتدور معظم الأدبيات العنصرية العربية في القرن التاسع عشر حول هذا الموضوع، وهي أطروحة لها أصولها أيضاً في الأدبيات الماركسية، بما في ذلك أعمال ماركس نفسه، حيث يظهر اليهود باعتباره مثلاً للرأسمالي الطفيلي الذي يتركز في البرصنة ولا يعامر أبداً بالدحول في الصناعة وتظهر نفس الأطروحة في كتابات ماكس فيسر الذي يرى أن رأسمالية اليهود رأسمالية مسبوقة، بمعنى أنها رأسمالية مرتبطة بالنظام الإقطاعي القديم ولا علاقة لها بالنظام الرأسمالي الجديد. (ومن الملاحظات أن اليهودي الذي كان رمزاً للرأسمال المحلي المتجنن، أصبح هـ رمز الرأسمال الأجنبي الطفيلي المستعد دائماً للترحيل والهروب)

وقد وصل هذا التيار إلى قمته في الفكر النازي الذي هاجم اليهود لتفيليتهم وللأضرار التي يلحقونها بالمجتمع الألماني وبالخصارة العربية وقد قام النازيون بتقسيم اليهود بصرامة منهجية واضحة إلى قسمين:

أ - يهود غير قابلين للترحيل، وهم أكثر اليهود نمعاً

ب - يهود قابلين للترحيل Transferable disposable ويستحسن التخلص منهم بوصفهم عناصر غير منتجة (أنواء تاكل ولا تنتج useless eaters) حسب التعبير النازي المادي الرئيد (الطريف) ويوصفهم عناصر غير ناعمة لا أمل في إصلاحها أو في تحويلها إلى عناصر ناعمة منتجة. (وبما يجدر ذكره والتأكيد عليه، إن هذا التقسيم تقسيم عام شامل، غير مقصور على اليهود، فهو يسرى على الجميع، فقد صنف الألمان المعروفين والمتخلصين عقلياً وبعض العجرة والمتفقيين البولنديين على أنهم «غير ناعمين» أي قابلين للترحيل ويستحسن التخلص منهم، وقد سويت حالة هؤلاء (بما في ذلك اليهود) عن طريق الترحيل إلى

معسكرات السخرة أو الإبادة، حسب مقتضيات الظروف والحسابات السعوية
المادية الرشيدة.

الشعب النافع

من المعروف أن من أهم وظائف أعضاء الجماعة الوطنية القيام بوظيفة ما هي في جوهرها إستغلال للجماهير لصالح الحقبة الحاكمة فتقوم الجماعة بتحصيل الفوائد من الجماهير أو استئصال فائض القيمة منها من خلال الإقراض بالربا أو التخصيص في بيع سلعة معينة (مثل الملح) والتمويل بحتكها الحاكم لحسابه. وكان أعضاء الجماعة الوطنية يحققون بذلك أرباحاً عالية، ولكنهم بعد ذلك كان عليهم دفع الضرائب الباهظة للحاكم، ولذا، فقد كانت معظم الأرباح تصب مرة أخرى في جرائه - أي أن أعضاء الجماعة الوطنية اليهودية كانوا في واقع الأمر من أهم مصادر الربح للحكبة الحاكمة في العرب في العصور الوسطى ومهروم الشعب النافع هو استمرار لنفس هذه الرؤية، وإعادة إنتاج لها داخل أطر حديثة

وقد نصل الصهاينة هذه الأطروحة الفعية المادية تماماً، فنجد أن هرتزل يؤكد أن اليهود في أوروبا فائض بشري غير نافع داخل أوروبا، ولكن يمكن تحويله إلى عنصر نافع للحضارة العربية عن طريق نقله إلى الشرق (فلسطين على سبيل المثال) ليصبح عنصراً استيطانياً، أي أنه سيتم التخلص من اليهود ويتم تحويلهم إلى عنصر نافع بضربة واحدة من خلال نقلهم وتحويلهم إلى مستوطنين في إطار الدولة الصهيونية الوطنية المملوكية. ويتحدث ماحوم سوكولوف بنفس الطريقة عن اليهود ويقدم الاقتراحات الكاملة بتحويلهم إلى مادة ناعمة. وكان معسكر الصهيونية السبعالية (جوردون - بوروخوف - سبركن) يؤكلون ضرورة تحويل الشعب السطيلي اليهودي إلى عنصر نافع وممتع من خلال غزو الحراسة والأرض والعمل والإنتاج. ويجب أن نشير هنا إلى المريد توسيع الفسان الصهيوني الذي هارون هرتزل في تأسيس المنظمة الصهيونية وكان أحد زعماء الصهيونية في ألمانيا وقد امتد به العمر إلى أن استولى النازيون على السلطة واحتلوا بولندا فتعاون توسيع مع الجتابو

ووضع محظوظاً لإبادة يهود أوروبا باعتبارهم عناصر غير نافعة. وقد حاكمه يهود جيتو وأرسو وأعدموه. قد فعل رودولف كاستر، المسئول الصهيونى فى النجر نفس الشئ حينما تفاوض مع إيهمان (المسئول النازى) بخصوص تسهيل نقل يهود النجر (باعتبارهم عناصر غير نافعة قابلة للترحيل والإبادة) فى مقابل السماح لبعض الشباب اليهودى بالسفر إلى فلسطين والاستيطان فيها (شباب من أفضل المواد البيولوجية) على حد قول إيهمان أثناء محاكمته).

الدولة الصهيونية الوظيفية النافعة تدور فى نفس الإطار، فهي ستقوم بنفس الأعمال التى تقوم بها الجماعة الوظيفية فى العصور الوسطى، فتتحول الجماعة الوظيفية إلى دولة وظيفية تعرس فى الشرق العربى فى العصر الحديث. وستقوم هذه الدولة الوظيفية بنفس الأعمال المشينة التى كانت تقوم بها الجماعات الوظيفية، وهى أعمال لا يمكن للدول الغربية المحترمة أن تقوم بها نظراً لأنها دول ليبرالية وديمقراطية تود الحفاظ على صورتها المشرقة فتحويل إلى الدولة الصهيونية يمثل هذه الأعمال ومن هذه الوظائف تزويد دول أمريكا السليبية العسكرية بالسلاح، والتعاون مع جنوب أفريقيا فى كثير من المجالات بما فى ذلك السلاح النووى، والقيام ببعض أعمال المخابرات والتجسس، والسماح للولايات المتحدة بإنشاء قاعدة موجهة فيها للاتحاد السوفيتى (سابقاً) كما تقوم الدولة الصهيونية بتوفير الجو الملازم والتسهيلات اللازمة للفرجة عن الجسود الأمريكى. ويدور أن الدولة الصهيونية الآن أصبحت مصدراً لكثير من المرتزقة فى العالم، كما يبدو أنها بدأت فى تصدير البعاب لبلدان غربية مثل هولندا (استردام) وألمانيا (فرانكفورت)

ولكن أهم وظائف الدولة الصهيونية على الإطلاق هو الوظيفة القتالية (لا التجارية أو المالية) فعائد الدولة الوظيفية الأساسى عائد إستراتيجى والسلعة أو الخدمة الأساسية الشاملة التى تستجها هى القتال القتال فى نظير الحال-أى أنها وظيفة مملوكية بالدرجة الأولى وفيما عدا ذلك، فإنها دياجات اعتنافية وتفاصيل قريية

وقد تنبه اصنفاء الصهيونية وأعضاؤها على السواء إلى طبيعة هذه العلاقة وطبيعة

هذه الوظيفة منذ البداية، فتم الدفاع عن المشروع الصهيونى والترويج له من هذا المنظور، كما تم الهجوم عليه وشجبه من هذا المنطلق. فعلى سبيل المثال، صرح ماكس نوردو، فى خطاب له فى لندن (فى ١٦ يونيه ١٩٢٠) بأنه يرى أن الدولة الصهيونية ستكون بلداً تحت وصاية بريطانيا العظمى وأن اليهود سيفقدون حراساً على طول الطريق الذى تمخض به المخاطر ويمتد عبر الشرفين الأدنى والأوسط حتى حدود الهند، وكان حاييم وايزمان كثير الإلحاح فى تأكيد الأهمية الإستراتيجية (لا الاقتصادية) للجيب الاستيطانى الصهيونى الذى سيشكل، حسب رأيه «بلجيكا آسيوية»، أى خط دفاع أول لا تهملوا ولا سيما فيما يتعلق بقناة السويس.

وأما حنه أرنت فقد أكدت أن الصهيونية بطرحها لنسها «حركة قومية» باعت نفسها منذ البداية للقيام بالوظيفة القتالية الاستيطانية، فشعار الدولة اليهودية كان يمسى فى واقع الأمر أن اليهود ينوون التشر وراء القومية وأنهم سيقدمون أنفسهم باعتبار أنهم «مجال نموذ» إستراتيجى لأى قوة كبرى تدفع الثمن.

وقد عرّض ناحوم جولدمان القضية بشكل دقيق للغاية عام ١٩٤٧ فى خطاب له ألقاه فى مونتريال بكندا وقال فيه: «إن الدولة الصهيونية سوف تؤسس فى فلسطين، لا لاعتبارات دينية أو اقتصادية بل لأن فلسطين هى ملتقى الطرق بين أوروبا وآسيا وأفريقيا، ولأنها المركز الحقيقى للقوة السياسية العالمية والمركز العسكرى الإستراتيجى للسيطرة على العالم». معنى هذا أن الدولة الصهيونية لن تنتج سلعاً بيعتها ولن تقدم فرصاً للاستثمار أو سوقاً لتصريف السلع أو مصدراً للمواد الخام والمحاصيل الزراعية، وإنما سيتم تأميمها لأنها ستقدم شيئاً مختلفاً ومغايراً وثمناً: دوراً إستراتيجياً يؤمن سيطرة الغرب على العالم، وهو دور سيكون له مردود اقتصادى دون شك، ولكن غير مباشر.

ولا تختلف المنظمة الإشتراكية الإسرائيلية «ماترين» أى البوصلة، فى وصفها وضع إسرائيل عن وصف جولدمان أو حنه أرنت، حيث ترى المنظمة، فى تحليل لها صدر فى الستينيات، أن الدور الذى تقضطلع به الدولة الصهيونية لم يطرأ عليه

أى تعبير، هي لا تزال تشكل قاعدة لقوة عسكرية عكس الاعتماد عليها، قوة موجهة ضد العرب لخدمة المصالح الإمبريالية الإستراتيجية وقد بين ب سبير (مى عليهمشمار بتاريخ ٢٩ أبريل ١٩٨٦) أن إسرائيل قد جعلت من جيشها الدراع المستقبلية المحتلة للولايات المتحدة، هي خدمة حربية كاملة جاهزة على أهبة الاستعداد لتأدية الخدمات فى أى وقت.

الجدوى الاقتصادية للدولة الوظيفية

والدولة الوظيفية الصهيونية لا تقوم، مثل الجماعة الوظيفية اليهودية، بتحصيل الصرائب مباشرة، ولكنها مع هذا تحقق ربحاً عالياً للدولة الزراعية لأنها تقوم بصير تلك المنظم القومية العربية التى تحارل رفع سعر المواد الخام أو حتى تتحكم فى بيعها وفى أسعارها أو التى تحتل طريقاً تنموياً مستقلاً أو تبنى سياسة داخلية وخارجية تهدد المصالح العربية بالخطر. أما الضريبة التى يدفعها أعضاء الدولة الوظيفية الصهيونية، هي حالة الحرب الدائمة التى يعيشونها بسبب الدور الذى يضطلعون به.

ومهم يكفى الأمر أدرك الصهانية هذه الوظيفة، كما أدركوا أنهم كلما زاد ما يحققونه من ربح لراعيهم من خلال أدامتهم لمهام وظيفتهم زادت فرص استثمار الدعم وفرص البقاء، ومن هنا كان تأكيدهم المستمر وإلحاحهم الدائم على الجدوى الاقتصادية التى يؤيدها التجمع الصهيونى وعلى مقدار النفع الذى سيعود على الراعى والممول (الإمبريالى)، تماماً مثلما يفعل أى شخص رشيد مع أى سلعة تباع وتشترى وبالمثل، بعد أنه فى وقت كان فيه المشروع الصهيونى لا يزال فى إطار النظرية والأمنية، كان الرعماء الصهانية يؤكدون، الواحد تلو الآخر، أن تمويل مثل هذا المشروع الاستيطانى الصهيونى مسألة مبرحة للدولة التى ستستثمر فيه وقد أدرك هرتزل محكمه ودعايته - أن ثورة الفلاحين المصريين ستجعل مصر مكلفة للغاية كقاعدة عسكرية بالبيسة لاغتراء، ولذا فقد أشار إلى أن المشروع الصهيونى، بتكاليفه الرهيبة شيء مفيد واستخدم وايزمان الاستعارة التجارية التبادلية ذاتها

حيث كتب نثرشل قائلا "إن السياسة الصهيونية في فلسطين ليست على الإطلاق تديناً للموارد، وإنما هي التأمين الضروري الذي يعطيه لك سعر أرخص من أن يحلم به أي فرد آخر". وأما ويرمان في شرح وجهة نظره، مبدأ أن الاستعمار البريطاني، بتأييده للمنظمة الصهيونية، قد وضع ثقته في مجموعة مستعدة أن تتحمل قدراً كبيراً من المسؤولية المادية عن الاستعمار وإذا تبين أن تكاليف الحماية البريطانية ستكون مرتفعة، عندئذ يمكن تنظيم وتسليح المستعمرين اليهود ثم يتسدهن ويرمان بشيء من الخطائية ويكثر من التوتر "هل تمت أي عملية استعمارية أخرى تحت ظروف مؤاتية أكثر من هذه - أن نجد الحكومة البريطانية أمامها منظمة لها دخل كبير وعلى استعداد لأن تضطلع بجزء من مسئولياتها التي تكلفها الكثير؟"، إن الصوت هنا هو صوت بائع متجول يجيد الإعلان عن السلعة، حتى ولو كانت هذه السلعة هي كيانه ووجوده

وإذا كان سمحا ديتس قد حاول الترويج للمشروع الصهيوني في الولايات المتحدة من منظور الدور الاستراتيجي، فإن يعقوب ميريدور ركز على مدى رخصه وانخفاض ثمنه ففي حديث إنشائي ذكر أن إسرائيل تحمل محل عشر من حاملات الطائرات، ثم قدم الوزير الإسرائيلي كشم حساب بسيط جاء فيه أن تكلفة بناء الحملات العشرة هذه تبلغ ٥ بليون دولار ثم أضاف الوزير، وهو الخبير بالأمور الاقتصادية، أنه لو دفعت الولايات المتحدة فائدة قدرها ١٠٪ على تكاليف تشييد هذه الحملات (وقد كان الوزير متسامحاً مع الولايات المتحدة إذ أنه لم يذكر تكلفه الحدود الذين ستحملهم حاملات الطائرات أو المخرج السياسي الذي سيسببه وجود مثل هذه القوات)، لو دفعت الولايات المتحدة مثل هذه الفائدة لسلحت خمسة بلايين دولار وحيث أن المعنوية الأمريكية لا تصل بأية حال إلى هذا القدر، فقد اختتم ميريدور حديثه بملاحظة فكاهية ولكنها في الوقت ذاته بالغة الدلالة، إذ قال "أين إذن بقعة الملح؟" ويبدو أن هذا هو الخط الإعلامي الإسرائيلي في مواجهة الأمريكيين، فهي العام نفسه بين أبريل شارون أن المعونات

التي قدمتها الولايات المتحدة للكساد الصهيوني لا تزيد من ثلاثين ملياراً من الدولارات، أما الخدمات التي قدمتها إسرائيل إلى أمريكا فتعوق مائة مليار من الدولارات، ثم قال بشكل جديّ ما قاله ميريدور بشكلٍ فكاهي "إن الولايات المتحدة لا تزال مدينة لنا بـ ٥٠٠ ملياراً".

وترد الفكرة نفسها، كما ورد كشف حساب مماثل، في مقال لشلومو ماحور المحرر الاقتصادي للجزيرة وساليم بوست بعنوان «صفقة إستراتيجية» حين أشار إلى أن الإسرائيليين يعرّفون جيداً أن مساعدة الولايات المتحدة للدولة الصهيونية هي في جوهرها مساعدة لخدمة مصالح الولايات المتحدة الإستراتيجية. فالولايات المتحدة تدفع سنوياً ١٣٠ بليون دولار لقواتها في حلف شمال الأطلسي و ٤٠ بليوناً للوفاء بالتزاماتها في المحيط الهادي. وبالتالي، فإن مساعداتها العسكرية والمدنية لإسرائيل صخرة بشكل مضحك، إذا ما قورنت بالمبالغ الأتفة المذكور، خصوصاً إذا ما تم النظر إلى مثل هذه المساعدات باعتبارها استثماراً لحماية مصالح أمريكا في المنطقة.

هذا هو المفهوم الغربي لإسرائيل. فالمثقفون عنها في الولايات المتحدة لا يلجأون أبداً إلى الحديث عن المفاهيم الاقتصادية الثانوية أو المفاهيم الاقتصادية النافذة وإنما يسيرون دائماً إلى المحيط الذي يمكن التحويل عليه، وإلى المفاهيم الإستراتيجية الأساسية الشاملة الهائلة. وقد عيّرت مجلة الإيكونوميست (في ٢٠ يوليو ١٩٨٥) عن موقف هؤلاء بقولها: «إذا كان من الممكن لأمريكا أن تدفع ٣ بليون دولار كل عام ضمن تكاليف حلف الأطلسي (لتحقيق أهداف إستراتيجية)، فإن من المؤكد أن إسرائيل، وهي المخسر الأمامي والقاعدة المحتملة، تستحق مبلغاً نافعاً (نحو ٤ بلايين دولار)».

وقد لخص سبير كل الموضوعات والاستثمارات السابقة فقال أن الزعماء الإسرائيليين مضطرون دائماً أن يذكروا القيادة الأمريكية هي واشنطن عمقاً تكلفة وجود الجيش الأمريكي في غرب أوروبا بالمقارنة بتلك الهبات الممنوحة لإسرائيل. وقد بين سبير أن الجيش الإسرائيلي ليس خادمة حربية كامنة وحسب، وإنما هو

أيضاً خدمة رحيصة، بل إنها أرخص من أي خيار عسكري آخر محتمل لأمريكا في المنطق وحسبما جاء في مقاله، يوافق البتاجون على هذا الرأي، ولذا لا يبدي خبرائه أي تأفف لإرث الحساب الذي يقدمه الإسرائيليون، حتى أنه هناك من يرى فيه أنه رحيص نسبياً، الأمر الذي يدل على أن نبوءات الزعماء الصهيونية وحساباتهم، بخصوص الجيب الصهيوني الوطني، كانت تسم بالدقة، وأن السلفة الصهيونية مربحة ولا شك، وأن العقد النعمي الذي وقّع بين الحضارة الغربية ويهود العالم لا يزال نافذاً حتى الآن وأن عقده لا يزال مرتفعاً

استعارات الحوسلة

الدولة الوطنية هي دولة يتم حوسلتها (أي تحويلها إلى وسيلة) لصالح الدول الراعية الإمبريالية، ولكن يبدو أن الحوسلة الصهيونية في حالة الحركة الصهيونية لن تتوقف عند الدولة الوطنية، بل ستمتد لتشمل كل المادة البشرية اليهودية أينما كانت. وفي اجتماع بين هرتزل وفكتور عمانوئيل الثالث، ملك إيطاليا، أشار الزعيم الصهيوني إلى أن نابليون دعا إلى عودة اليهود إلى فلسطين ليزسروا وطناً قومياً، ولكن ملك إيطاليا يبرّر له أن ما كان يريد في الواقع هو أن يجعل اليهود المشتهين في جميع أنحاء العالم عملاء له. وقد اضطر هرتزل إلى الموافقة على ما يقول، بل وأن يعترف بأن تشاميرليس، وزير الخارجية البريطاني، كان لديه أيضاً أفكار مماثلة. وكان هرتزل يكرر بأنه إذا وافقت إنجلترا على مشروعه الصهيوني، فإنها ستحصل «وفي صرّة واحدة»، على عشرة ملايين تابع (عميل) سري في جميع أنحاء العالم يسمون بالإخلاص والنشاط، وبإشارة واحدة سيضع كل واحد منهم نفسه في خدمة الدولة التي تقدم لهم العون. "إن إنجلترا ستحصل على عشرة ملايين عميل يصحون أنفسهم في خدمة جلالته ونفوذها". ثم أضاف هرتزل، مستخدماً الاستعارة التجارية التناقضية الشائعة في الأدبيات الصهيونية "ثمة أشياء ذات قيمة عالية تكون من نصيب الشخص الذي يحصل عليها في وقت لم تكن بعد قد هرفت قيمتها الحقيقية العالية". وأحرب الزعيم الصهيوني من أمله في أن

تترك إنجلترا مدى القبضة والمائلة التي تعود عليها من وراء كسبها الشعب اليهودي، أي أن هرتزل مدرك تماماً لوظيفة الدولة اليهودية والشعب اليهودي ونفعهم وفائدة توظيف اليهود وحوسلتهم.

والخطئة الصهيونية الخاصة بتجسير الشعب اليهودي هي جزء أساسي من العقيدة الصهيونية. ففي عام ١٩٢٠، عبر ماكس مورنو عن تفهمه العميق للذوابع التي حركت رجال السياسة البريطانيين الذين كانت تواجههم مشكلة التوازنات الدولية وبعد القيام بحساباتهم توصل هؤلاء الساسة إلى أن اليهود يعتبرون في الحقيقة 'مصدر قوة' وربما 'مصدر دفع' أيضاً لبريطانيا وحلفائها، ومن ثم عرضت عليهم فلسطين.

ويلاحظ أن كل الكتاب السابقين ينظرون إلى إسرائيل باعتبارها 'رفعة' أو 'مساحة' أو 'مكاناً نابعاً' أو 'بلداً' تحت الوصاية (وهي مكان تم نزع المقدسة عنه وحوسلته تماماً حتى أصبح موضوعاً محضاً). وهم يعتبرون المسوطنين الصهاينة حراساً و'خدمة عسكرية جاهرة'، جماعة من المماليك أو المرتقة على أهبّة الاستعداد دائماً وللملوك أداة ورسيلة، وليس إرادة وقيمة.

وسواء أكانت الإشارات للمكان أو كانت للإنسان، فإن جوهر الاستعارات كلها هو الشعبية الكاملة للعرب، والتحوّل الكامل لحسابه، وتحويل المكان والإنسان إلى أداة منعولة عن المحيط الحضاري الشرقي (ذراع مستقبلية). وقد مرجع هرتزل، مؤسس الصهيونية، كل العاصر في استعارته الشهيرة حين قال "ستقيم هناك [في آسيا] جزءاً من حائط لحماية أوروبا يكون عبارة عن حصن مبيع للحصارات العربية] في وجه التهمجية"، فقد مرجع الإنسان والمكان بحيث أصبحا حائطاً غريباً في مواجهة الشرق (يلاحظ أن كلمة 'إسرائيل' في العبرية كلمة متعددة المعاني متنوعة الدلالات وتشير للأرض والشعب تماماً كما فعل هرتزل).

ولا يزال إدراك الإسرائيليين لدورهم (وإدراك العالم العربي له) يدور في هذا الإطار وكثير من الاستعارات التي يستخدمها المستوطنون الصهيانية في وصف الدور الموكل إليهم بين إدراكهم لعملية الحوسلة الوطنية هذه فقد استحدثت جريدة هآرتس استعارة درامية لوصف الدور الذي تم إيسلده إلسي الدولة اليهودية (في مقال في سبتمبر ١٩٥١) بعنوان "نحن وهاهرة المواني" جاء فيه أن "إسرائيل قد تم تعيينها لتقوم بدور الحارس الذي يمكن الاعتماد عليه في معاقبة دولة واحدة أو أكثر من حيرانها العرب الذين قد يتجاوز سلوكهم تجاه الغرب الحدود المسموح بها".

والاستعارة السابقة (إسرائيل كحارس أجير يشبه الهاهرة) تلمس - على ما يبدو - وتراً حساساً في الالبات الصهيونية الإسرائيلية، إذ تكشف أخيراً من خلال وثائق وزارة الخارجية البريطانية لعام ١٩٥٦ الخاصة بحرب السويس أنه أثناء المباحثات السرية التي جرت بين إنجلترا والدولة الصهيونية ومهدت للمعدوان الثلاثي على مصر، تم الاتفاق على أن تقوم إسرائيل بمهاجمة مصر وبعد وصولها إلى قناة السويس، تقوم إنجلترا وقربا بالتدخل ثم تصنان أمراً إلى الطرفين المصري والإسرائيلي بالانسحاب عدة كيلو مترات من حدود القناة، وهذا يتم تسير العزو الفرنسي والإنجليزي أمام الرأي العام العالمي باعتباره عملية محايدة تهدف إلى حماية الملاحة في القناة. وقد ضمت الدولتان من إسرائيل وودتاها بالمطاء الحوي المطلوب (وهذه أمور معروفة لا تحتاج إلى توثيق) ولكن يبدو أن المستند الإنجليزي في هذه المفاوضات السرية بالغ قليلاً في الأمر وطلب أن تقوم القوات الإنجليزية بالحاق بعض الإصابات الطفيفة، ولكن العملية، بالقوات الإسرائيلية لرفضها الانسحاب أو لباطنها فيه حتى يتم حيك المسرحية وهذا ثارت ثائرة بن جوريون واستخدم استعارة شبيهة باستعارة هآرتس لوصف العلاقة بين إسرائيل والدول العربية إذ قال "إنجلترا تشبه التيل الإقطاعي الذي يرغب في معاشره إحدى الخادعات جنسياً على أن يتم ذلك في الحفاء وحسب، أي في المطبخ مثلاً

لا في حجرة النوم' ومن الواضح أن بن جوريون لم يرمض الدور الإستراتيجي الموكن إليه (الخادمة الحسنة)، ولكنه كان يطمح في أن يتم اللقاء بين الخادمة والسيد بأسلوب راقٍ يليق بالدولة اليهودية الوظيفية

ومن الاستعارات المتواترة الأخرى، الاستعارة التي تعتبر إسرائيل كلب حراسة. فقد وصف البروفيسور يشعياهو ليوڤيتس في حديث له في صحيفة لومود بتاريخ ٨ مارس ١٩٧٤ إسرائيل بأنها "عميل للولايات المتحدة" ووصف الإسرائيليون بأنهم "كلاب حراسة للمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط، ويمنع بقاءنا بقلوبنا على القيام بهذه المهمة". وقد طور الصحفي الإسرائيلي عاموس كيان هذه الاستعارة المثيرة من عالم الحيوان وجعلها أكثر حدة وإثارة إذ وصف إسرائيل بأنها "كلب حراسة رأسه في واشنطن وذيله في القدس"، وهي كلب حراسة قوي لكنه يحتاج إلى حماية ويفضل للعرب استخدام استعارة مخلب القط لوصف الدولة الوظيفية وهي استعارة مأكوفة وشائعة فقدت كثيرا من قوتها سبب تكرارها المر، وإن كانت معبرة تماما. والاستعارات السابقة (الحارس، والعاهرة، والخادمة الحسنة الطيبة، وكلب الحراسة، ومخلب القط) سواء قبلنا بها لجنتها أم رفضناها لجنتها، تؤكد أن أهمية إسرائيل من وجهتي النظر العربية والصهيوية لا تكمن في عائدها الاقتصادي وإنما في دورها الإستراتيجي إذ أن كل الاستعارات تركز على وجود دور يؤدي، وثمناً يدفع، لا عائداً اقتصادياً يحصل

ولكن كل الاستعارات السابقة، اللاتق منها وغير اللاتق، هي في الواقع استعارات مستمدة من القرن التاسع عشر قبل تعجر الثورة التكنولوجية وتزايد معدلات نمو الصناعات الحربية وتنوعها ولذا، كان لابد من تطوير الاستعارة بشكل يتفق مع روح العصر في أواخر القرن العشرين (والواقع أن إحدى السمات الأساسية الشاملة للدولة الوظيفية الصهيونية مقلدتها على تغيير وظيفتها بما يتفق مع متطلبات الدولة الراعية)، وهذا ما أنجزه يعقوب ميريلور وزير التخطيط

والتنسيق الاقتصادي (١٩٨٢ - ١٩٨٤)، حيث قال في حديث له للإذاعة التابعة للجيش الأمريكي، أنه لولا وجود إسرائيل كقاعدة ومنطقة نفوذ وحليف للولايات المتحدة لاضطرت الأخيرة إلي بقاء عشر من حاملات الطائرات. وهو بذلك يكون قد أحلّ استعمارة إسرائيل كحاملة طائرات أمريكية محل الاستعمارات الغامضة أو الفاصحة السابقة. وترد نفس الاستعارة وبشكل أكثر بلبوراً، في مقال الصحفي الإسرائيلي سيبير والمعنون «مجتمع يتعمد على الهبات الخارجية» إذ قال الكاتب "إن الأمريكيين يدفعون لنا لأنهم يريدون أن تكون لهم دولة تابعة مجهزة بأفضل الأسلحة والحدود". وقد وصف سيبير هذه الدولة بأنها حاملة طائرات عليها أربعة ملايين نسمة في موقع إستراتيجي فريد من نوعه قريب من الاتحاد السوفيتي وقريب من أوروبا الشرقية وقريب من حقول النفط.

إسرائيل إذن حاملة طائرات، أي أنها وظيفة تُؤدى أو دور يُلعب وأداة تُستخدم أو ثروة إستراتيجية تقسم أربعة ملايين مقاتل ولا شك أن استعمارة الحاملة أكثر دقة ودلالة من سابقاتها لأنها لا تحدث عن دور الدولة الصهيونية أو وظيفتها بشكل عام، وإنما تعرف - وبدقة بالغة - طبيعتها الإستراتيجية كدولة عميلة توجد في منطقة حدودية قريبة من الاتحاد السوفيتي (سابقاً) وأوروبا الشرقية وحقول النفط، وليس لها عائد اقتصادي مباشر. وتؤكد الاستعارة حركية هذه الدولة الناعمة الثمينة وإمكانية نقل جسودها من مكان حدودي إلى مكان حدودي آخر، ولكن الاستعارة تظهر في الوقت ذاته أيضاً أنه يمكن الاستعانة عنها، فالأجراء الأكلة الحركية ليست عسوية ولا ثابتة. ونتمى الاستعارة عن إسرائيل أي دور اقتصادي مباشر ولعل الاتفاق الإستراتيجي الذي تم توقيعه بين الولايات المتحدة وإسرائيل عام ١٩٨٤ هو تحقق آخر لهذا الإدراك لطبيعة دور دولة إسرائيل وعلاقتها بالعالم العربي.

الدولة المملوكية

والتمهيرات المجازية التي تُستخدم للإشارة إلى الدولة الصهيونية تؤكد كلها كونها أداة بالغة، ليس لها قيمة ذاتية، وإنما تنبع قيمتها عما تؤديه من خدمات ونجمله من منفعة، والدولة هنا وظيفة ودور، لا كياناً مستقلاً له حركياته، وهي تستمد استمرارها، بل ووجودها، من مدى مقدرتها على أداء هذا الدور. ولذا فنحن نشير إلى الدولة الصهيونية باعتبارها دولة مملوكية، علاقتها بالعرب تشبه علاقة المملوك بالسلطان فهي علاقة بضعية محضة، مستمرة طالما استمرت مقدرة المملوك على الأداء. ونحن نشير لها كذلك باعتبارها الدولة الوظيفية، أي الدولة التي تفحص استمرارها وبقائها من خلال أدائها لوظيفتها. وربما يبين هذا مدى أهمية الانتماء المبركة التي أثبتت أن الدولة الصهيونية غير قادرة على أداء دورها ووظيفتها كمقاومة استراتيجية في الشرق الأوسط، وأن نفعها من الناحية العسكرية ليس كبيراً، وأن أدائها لوظيفتها أصبح أمراً مكلفاً للغاية. ومن هنا تحرك الدولة الصهيونية السريع لتجد لنفسها وظيفة جديدة، فبدلاً من أن تكون حاملة طائرات أو معسكر للمالكيك، فإنها ستصبح مثل سمنافورة مركزاً للسماسرة والسيارة، وربما ركيزة أساسية لقطاع اللذة (سلاهي - كباريهات - مصحات - سياحة) وسوبر ماركت صخيم، فردوس أرضي يفسم كل السلع التي يحلم بها الإنسان، فيلذذ فيها ويعقد حدوده ويسعى كل المنفصات مثل التاريخ والذاكرة القومية والهوية والكرامة والقيم الأخلاقية. ومن هنا أهمية توقيع اتفاقية السلام والإصرار على ضرورة دفع المقاطعة العربية، حتى يتسنى للدولة الصهيونية أن تلعب دورها الجديد الذي لا يختلف كثيراً عن بعض الأدوار التي كان يلعبها أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية في العرب.

وما يجدر ذكره أن سياسة اليلاشة تجاه اليهود كانت تصدر عن نفس المنظور النعمي، فعندما كان من مصلحة الاتحاد السوفيتي دمج اليهود تماماً قررت الدولة السوفيتية أن هذا هو الحل الوحيد للمسألة اليهودية باعتبار أنه لا يوجد شعب

يهودى. ولكن الاتحاد السوفيتى وجد فى الأربعينيات أن من مصلحته الاعتراف بالدولة اليهودية فى فلسطين، على أمل أن تشكل هذه الدولة حلقة اشتراكية فى الوسط المربى الإقطاعى المتخلف، فتقوم بتطوير المنطقة، ومن ثم سمح بالهجرة السوفيتية، بل ودافع المتحدثون السوفييت عن «حقوق الشعب اليهودى» بشراسة غير معهودة فيهم. وكان الاتحاد السوفيتى، أول دولة اعترفت بشكل قانونى بالدولة الصهيونية

وقد طلت سياسة السوفيت تجاه الهجرة اليهودية إلى فلسطين مرتبطة تماماً مع مصالح الدولة السوفيتية ومنتهصلة غمامً عن الأطروحات الأيديولوجية (والاخلاقية) التى كانت تشكل أساس شرعيته.

٢ - اليهودي كمسلم في أفران الغاز

أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى حقيقة مثيرة وهي رؤية المصهاينة لأنفسهم كمعرب وهي ما سميت اليهودي كمعربي، ثم انقلاب هذا الإدراك بعد ذلك ليصبح العربي كيهودي. وتناحل المفولات الإدراكية مسألة نستحق الدراسة والتوقف وفي هذا الفصل سندرس ظاهرة مماثلة. فقد وقعت على اكتشاف لا عن طريق الصدفة تماماً ولا عن طريق التخطيط أيضاً، وإنما عن طريق نموذج معرفي وتفسيري مختلف عما هو سائد في الغرب فالدراسات التي كُتبت عن الإبادة النازية (هولوكوست) باليونانية وشواح بالعبرية وترجم أحياناً إلى المخرقة) تناول هذه الظاهرة كما لو كانت ظاهرة ألمانية مقصورة على الألمان، وكما لو كانت هي جريمه النازيين الأشرار ضد اليهود الأبرياء والأديان العربية تقتصر هذا الإطار وتقع في قصة إمبريالية المفولات وإن حاولت توسيع هذا الإطار فهي تقول إن اليهود لم يُقتل منهم ستة ملايين وإنما مليونين، كما أن اليهود ليسوا هم الضحايا وإنما يستحقون ما حدث لهم إلخ.، إلى آخر هذه الأحاديث الصهيانية العنصرية وقد طرحت تصوراً مختلفاً في كتاب الأيديولوجية الصهيونية إذ أذهب إلى أن الإبادة النازية لليهود (وغيرهم) ليست جريمة ألمانية/نازية وإنما عربية. محل الإبادة هو حل طرحته الحضارة العربية الغدئية (العقلانية المادية) لكثير من مشاكلها، فتمت إعادة سكان الأمريكتين في القرن السادس عشر ولا تزال عملية إبادتهم المباشرة مستمرة في بلاد مثل البرازيل. وقد تمت حروب إبادة أو شبه إبادة أخرى في بلاد الكونغو والجزائر (سلا الملايون شهيد) وهذا أمر متوقع، فالتمكيز العنصري الخريبي يتضمن إنكار حق الوجود للأخر وإن وجد فهو في مرتبة أدنى لا جد وإن يوظف في خدمة العالم العربي ويجب أن نذكر أن وعد بالموافاة كان يهدف إلى تخليص أوروبا من اليهود عن طريق نقلهم إلى فلسطين وتوظيفهم لصالح الحضارة الغربية وهذا ما كان يهدف له هتلر أيضاً الذي كان يهدف إلى التخلص من اليهود وغيرهم وقد حاول هو الآخر أن ينقلهم إلى بولندا وبمثل،

ثم تبنى مشروعاً لنقل اليهود لدغشقر وفنسل . فكان هتلر هو بالصور دون مستعمرات ، وهذا يعود إلى أن معاهدة فرساي بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى أجهضت مشروع ألمانيا الاستعماري ولولا هذا لتخلص هتلر من اليهود بالطرق السالفة المتحصرة بدلاً من الطرق النازية الهمجية! فإذا أضفنا إلى كل هذا الفكر الدارويني والنيتشوي والإيمان باللمعة كمقياس مطلق وإسقاط قداسة كل شيء (إد كيف يمكن الإيمان بقداسة أي شيء إن كان مصدر القداسة قد انسحب من الكون وهجره ، وإن كان كل شيء مادة في مادة ، مجرد أرقام ودرجات متجاورة؟) إن فعلاً ذلك اكتشفنا أن الحضارة الغربية الحديثة هي خطة حضارية تجعل من معسكرات الإبادة أمراً منطقياً ومفهوماً ولعل المضيضة فاحت لأن حضارة الحضارة الغربية في حالة ألمانيا لم يتم ممارستها في أحرش أفريقيا أو غابات آسيا أو سهول الولايات المتحدة قبل أن يعمرها الإنسان الأبيض كما هو الحال مع حضارة المهترا وهربا والولايات المتحدة ، وإن تمت ممارستها داخل المجتمعات الأوروبية ذاتها ووقع صحتها عناصر بشرية هربية مثل العجز والسلاف والشيوعيين واليهود وغيرهم ، وهي عناصر تم تصغيرها بشكل منهجي على أنها غير دعة تماماً مثل الأطفال المعوقين والمعززة والجود الألمان المصابين في الحروب الذين كانوا يطلقون عليهم Useless eaters أي مستهلكون للطعام لا جدوى اقتصادية منهم والذين أنشئت أفران الغاز لتتلاءم لتخلص منهم . وفي أثناء محاكمات نورمبرج كان خط الدفاع لمجرمي الحرب النازيين أن تمكثهم إنما هو نتائج طبيعي للأبحاث التي أجراها العلماء الغربيون لمدة أربعين عاماً (أي منذ عصر النهضة) .

المسلمون وأقران الغاز

الجرمة النازية إذن جريمة عربية بمعنى الكلمة تعبر عن شيء أصيل ورويب وكامس في الحضارة الغربية الحديثة ، وهي مثل الصهيونية ، ليست استحقاقاً من جوهر هذه الحضارة وإنما هي تعبير متبلور عنه . هذا هو التصور الذي أطرحه منذ أمد طويل وببما كنت أكمل بعض المداخل الأخيرة الخاصة بالإبادة في موسوعة

اليهود واليهودية والصهيوية . لاحظت إشارات حية للضحايا الذين سيقدون لأعران العار، فقالت أحد المراجع أنهم كانوا يسموهم تسمية «عريّة» ولاحظت في مقال عس التدرج الاجتماعي في معسكر أوشفيتس تكرار كلمة «مسلم» ، وقد أصبح عندي حساسة غير عادية لمثل هذه الإشارات، فعاده تحييّ المراجع الصهيونية شيئاً محرّجاً ما حيما تعمل ذلك ، فحمت بقرائة عدة مراجع وموسوعات إلى أن وصلت إلى حقيقة مذهلة، وهي أن هؤلاء الضحايا كانوا يسموهم «ميرلمان» Muslimann، أي «مسلم» بالألمانية، وقد ورد ما يلي في مدخل في الموسوعة اليهودية Encyclopedia Judaica (جزء ١٢ ص ٥٣٧-٥٣٨) عسولنه «مسلم».

«ميرلمان» أي مسلم بالألمانية، وهي إحدى المفردات السارجة في معسكرات (الاعتقال) والتي كانت تستخدم للإشارة للمساجين الذين كانوا على حافة الموت- أي بدأت تظهر عليهم أعراض آخر مراحل الجوع والمرص وعدم الاكتراث العقلي والإرهاق البدني. وكان هذا المصطلح يستخدم أساساً في أوشفيتس ولكنه كان يستخدم في المعسكرات الأخرى، هذه هي المعلومة، فكان العقل العربي حيما كان يدمر ضحاياها كان يرى فيهم الآخر، والآخر منذ حروب المعرجة(المصليبية) هو المسلم ومن المعروف في تاريخ العصور الوسطى أن العقل الغربي كان يربط بين المسلمين واليهود، وهناك لوحات لتعليب المسيح تصور الرسول ﷺ وهو يقوم بضرب المسيح بالسياط.

إن التجربة النازية هي الوريث الحظفي لهذا الإدراك الغربي، كل ما في الأمر أنه تم توسيع نطاق الحقل الدلالي لكلمة «مسلم» لتشير «للآخر» على وجه العموم، سواء كان من العجر أم السلاف أم اليهود (وهنا لا يختلف كثيراً عن توسيع الكلمة «عربي» في الخطاب الصهيوني لتصبح «الأعيار»). ويحاول كاتب المدخل أن يمسر أصل استخدام الكلمة، ولكن تفسيره هو مجرد تفسير وحسب، فهو يدّعي أن الضحايا سموا «مسلمين» استناداً إلى طريقة مشيهم وحركتهم: «إنهم كانوا

يجلسون القرفصاء وقد أُسيت لرجلهم بطريقة «شرقية» ويرتسم على وجوههم جمود يشبه الآلعة. والكاتب في محاولة التفسير هذه لم يتحل قط عن عصرته العربية أو الصور النمطية الإدراكية، كل ما في الأمر حاول أن يحل كلمة «شرقيين» محل كلمة «مسلمين»، لكن المهم أن الصحابا هم الآخر، والآخر ليس غربيا وإنما شرقي أو مسلم.

أوشفتس ودير ياسين

وعثوري على هذه الإشارة لصحابا الإبادة على أنهم «المسلمين» يثير قضيتين واحدة عملية، والأخرى معرفية. فمن الباحية العملية لا بد وأن تتأفل وكالات الأنباء هذه المعلومة حتى يتضح الإدراك الغربي لنا، وحتى يوضح لِمَ كَم يثوان العرب من حل جريمة أوشفتس عن طريق حرية دير ياسين وكمر قاسم، فالهم هو صرب من سماهم «بالمسلمين»، أي «الآخرين» وتأكيد هذا المصطلح يقلل من احتكار اليهود لفكرة أنهم الصحة الوحيدة ويثير قضية أن ما يشر من معلومات هو الذي يخدم صالح فريق معين، وإلا لم احتفى هذا المصطلح ولم يشر إليه أحد؟

أما من الباحية المعرفية، فمن الواضح أننا نحت رحمة العرب فنحن لا نقرأ تاريخه من منظورا وإنما نقرأ تاريخه كما ورد لنا من منظوره، وهذا ليس عيباً في العرب، وإنما فيما نحن، فكيف التاريخ موجودة وكل من يود أن يحصل على المعلومات سيجدها هناك، وعليه أن يعيد تفسيرها وأن يستنطقها (وهو محل لا يوجد في اللغات الأوروبية وترجمته مستحيلة) من طريق اكتشاف تصميماتها الخفية ومن طريق اكتشاف حقائق جديدة لم تظهر للوجود أو لم تحدد المركزية التي تستحقها

وممن إن فعلنا ذلك فإننا قد نصل إلى الدلالات الحقيقية والخفية لكثير من أحداث التاريخ العربي، وهي دلالات لم يدركها الإنسان الغربي نفسه نظراً لحدوده الإدراكية المفهومة والمتوقعة. إن درسا هذه الأحداث بطريقة قد نتوصل أيضاً إلى رصد أثرها الحقيقي على الإنسان، وبهذا قد ساهم في فهم الأزمة الكونية التي وقع فيها إنسان القرن العشرين، وقد نصل إلى بعض الحلول

٢ - الإدراك النازي لمفهوم الحكم الذاتي

قام الصهاينة وأصدقاؤهم بكتابة تاريخ السارية بطريقة تُعبر عن رؤيتهم وتحدد مصالحهم . ولذا أرى من الهام بمكان أن أعيد كتابة تاريخ السارية (بسل وتاريخ الحضارة العربية ككل) من منظور عربي، بدلاً من تلقى التواريخ التي كتبوها، وبدلاً من قبول طريقة تسليمتهم للأحداث، فيقولون بعضها ويركزون عليه، ويستمدون البعض الآخر أو يهملونه . ومن التجارب السارية الهامة التي تُذكر وكأنها واقعة عرسية لا أهمية لها، تجارب الحكم الذاتي اليهودية التي أقامتها السلطة السارية في كثير من بقاع أوروبا . وتُعرض التواريخ الصهيونية على إخفاء هذه الوقائع التاريخية لأنها تُشابه الرؤية السارية بالرؤية الصهيونية، وتبين أن ثمة تعاون تم بين الطرفين . وقد اكتسبت هذه التجارب في الحكم الذاتي أهمية خاصة هذه الأيام بعد توقيع الاتفاقيات الأخيرة، لأنها قد تلقى بعض الضوء على التصور الإسرائيلي للحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة العربية . فقد أسس الباريون جيتوات كانت تأخذ شكل مناطق "قومية" تتمتع بمقدار كبير من الاستقلال، فكان يتم إخلاء رقعة من إحدى المدن من غير اليهود ثم يُنقل إليها عشرات الآلاف من اليهود . ومن أشهر هذه المناطق جيتو وارسو ولودز وريجا في بولندا ومستوطنة تيريس ينشتات "النموزجية" في بوهيميا في المجر .

جيتو وارسو

ويُعد جيتو وارسو أهم هذه المناطق جميعاً، فقد بلغ عدد القاطنين فيه عام ١٩٤١ حوالي نصف مليون يهودي يعيشون في رقعة صغيرة حولها حائط طوله ثمانية أقدام، وكان له اثنتان وعشرون مدخلاً يقف على كل منها ثلاثة جود، أحدهم ألماني والثاني بولندي مسيحي والثالث بولندي يهودي . وقد كان التعريف الذي تبنته الألمان للهوية اليهودية هو تعريف قواتسي نورمبرج وهو أن اليهودي يهودي بالمولد وليس بالعقيدة (وهو التعريف الذي تبنته دولة إسرائيل فيما بعد) .

ويجب النظر إلى تجربة الجيتو هذه في ضوء المحطط الساري لدى الطابع الصهيوني الواضح الذي ينطلق من تصور استقلال اليهود كشعب عضوي مبدؤ ومتدنى له شخصيته القومية المستقلة ويمكن توظيفه وتحويله لمصدر للعمالة الرخيصة ولذا كان للجيتو مؤسساته المستقلة الخاصة به (عملة خاصة وسائل نقل خاصة - خدمة يريديّة - مؤسسات الرفاه الاجتماعي) . كما سُمح للجيتو وارسو بأن يكون له نظامه التعليمي، ويأل يفتح المكتبات لبيع الكتب واستعارتها، ويأن يصدر جريدته اليومية بل وكان لهم ميليشيا ومحاكم خاصة به، أي أن الجيتو كان بمثابة دولة صغيرة معزلة ثقافياً واقتصادياً عما حولها

وقد كان يدير الدولة - الجيتو «سلطة يهودية» أو «مجلس كبير» كانت السلطات النازية تُعين أعضائه ولكن استقلالية الدولة - الجيتو لم تكن كاملة، إذ كان الجيتو يقوم باستيراد كل المواد الخام والطعام والملابس التي يحتاجها من منطقة الاحتلال النازية على أن يسد ثمن الواردات بالمنتجات الصناعية (الملابس والمصوغات الجلدية) التي كان ينتجها الجيتو كما كان على المجلس أن يقدم عدداً من العمال يومياً ليعملوا عملهم لتسديد واردات الجيتو وقد كان العامل البولندي، يهودياً كان أم غير يهودي، يتقاضى ربيع ما يتقاضاه العامل الألماني.

ويندو أن النازيين قد وضعوا محططاً لإبادة يهود جيتو وارسو من خلال فرض وضع غير متكافئ عليهم، بحيث يمكن استنرافهم لصالح النازيين . إذ أن قيمة السلع التي كان ينتجها الجيتو والخدمات التي يقدمها كانت دائماً دون حد الكفاف ولا تفي باحتياجات العاملين اليهود الأساسيين، مما كان يعنى سوء المعاملة داخل الجيتو وتناقص عدد سكانه مع ضمان تدفق الفائض القيمة بشكل مستمر إلى النازيين . وقد أدّى عدم تكافؤ العلاقة بين الدولة النازية والجيتو - الدولة اليهودية إلى أن السكان زادوا فقراً وازدادت حاجتهم إلى المواد الغذائية، فكانوا يموتون جوعاً - وبذلك يتم إبادة اليهود بالتدريج وببطء دون أفران غاز

وقد قام أحد الباحثين بدراسة إحصائية دقيقة لهذه الإبادة التدريجية البطيئة

مستخدماً جيتو وارسو أساساً لدراسة الحالة . فأشار إلى أنه في الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٢ ، أي في خلال ستة وثلاثين شهراً ، زاد عدد الوفيات بشكل ملحوظ فقد كان معدل الوفيات بين أعضاء الجماعة اليهودية قبل الحرب ٣٥ كل شهر وحسب ، أي أنه كان من المفروض أن يكون عدد الوفيات ١٢,٦٠ لو أن المعدل استمر في معدله الطبيعي ، ولكن اختلج المرض (وكذا عارات الخلقاء وأحكام الإعدام) أدت معاً إلى موت ٨٨,٥٦٨ ألفاً ، وهو عدد يشكل ١٩/ من مجموع سكان جيتو وارسو البالغ عددهم خمسمائة ألف ، مما يعني أنه كان من الممكن إبادة كل سكان الجيتو خلال ثمانية أعوام دون أقران عار . ويمكن أن نضيف أن هذه العملية كانت ستتسارع نحو النهاية بسبب زيادة ضعف وهزال سكان الجيتو ، ولذا فإن ما بين خمس إلى ست سنوات كانت كافية في تصورنا لإتمام هذه العملية

وعلاقة الدولة النازية بدويلة - جيتو وارسو كانت علاقة كورلوبيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمستعمراتها أو علاقة الدولة الصهيونية بالفضة الحربية وربما كان العارق الأساسي هو درجة التحكم ، إذ أن جيتو وارسو كان كياناً صغيراً متعلماً ، ومن ثم كان يمكن التحكم فيه بدرجة كاملة أو شبه كاملة ، على عكس المضمرة الغربية حيث يوجد كيان حضاري مركب يعود إلى أعماق آلاف السنين ويتم بتجذره ، الأمر الذي يجعل مصادر الحياة فيه متنوعة . وكل هذا يجعل التحكم فيه صعباً إن لم يكن مستحيلاً .

مستوطنة تيريس ينشتات النموزجية

أما التجربة الثانية من تجارب الحكم الذاتي التي نهما هي تجربة مستوطنة تيريس ينشتات النموزجية Theresienstadt ، التي أسست عام ١٩٤١ واستمرت حتى عام ١٩٤٥ ، وقد رُحِّل إليها حوالي ١٥٠,٠٠٠ يهودي من وسط أوروبا وغربها من التتريين أو المسنين أو اليهود من أبناء السريجات للمحتلة . وقد أيد زعماء الجماعة اليهودية في تشيكوسلوفاكيا الخطة ، باعتبار أن هذا كان يعني أن يهود تشيكوسلوفاكيا سيبقون في وطنهم . وسقال أن الهدف النازي من تأسيس هذه

المستوطنة السمودجية كان إعلامياً بحيث تقدم للإعلام العالمى باعتبارها مثالا على "حياة اليهود الحديثة تحت حماية الرينخ الثالث" (وهو اسم أحد الأفلام التى صُوِّرت فى المستوطنة).

وقد أدار المستوطنة مجلس من الكبراء يضم القادة اليهود ويترأسه أحد كبراء اليهود كانت تعبى السلطات الألمانية . وقد تمتعت المستوطنة بحريات كثيرة، فقد كان لها نظامها التعليمى ونظامها البريدى المستقل ومكتباتها وهويتها الثقافية . ومن ثم، كانت من منظمات مجلس الكبراء الحفاظ على النظام فى المستوطنة وتوزيع العمل فيها وتوطين المستوطنين الجدد والعناية بالصحة وبالمين والأطفال والإشراف على النشاط الثقافى . كما كان يتبع المستوطنة نظام قضائى مستقل (أى أن تيريس يشنات كانت تتمتع بالحكم الذاتى) . وقد سمحت السلطات السرية لسلطات الصليب الأحمر بزيارة المستوطنة وبالإجتماع بمجلس الكبراء .

وقد رُحِّل حوالي ٩٣٧ . ١٤ يهودياً إلى مستوطنة تيريس يشنات من بينهم ٣٣.٥٢٩ ماتوا فيها، أى حوالى ٢٥٪، وُرُحِّل حوالى ١٩٦.٨٨ إلى معسكرات الاعتقال والإبادة، وكان يوجد فيها ٢٤٧.١٧ حين تم تحرير المستوطنة

ولا تحتل علاقة المستوطنة بالسلطات النازية من علاقة أى دولة فى العالم الثالث بالقوة الإمبريالية التى تحكمها، والحريات التى كان يتمتع بها سكان المستوطنة لا تزيد كثيراً عن تلك التى تمررها الحكومة الصهيونية على سكان الضفة الغربية باسم الحكم الذاتى.

ولعل مريداً من دراسة مثل هذه «الدول المستقلة» ذات الإعلام وطوابع البريد تلقى مريداً من الضوء على التمكيز الصهيونى بخصوص مستشيل فلسطين والعلمانيين . وهذا أمر يجب أن يضعه الفلسطينيون نصب أعينهم . وعلى كل هالك تجارب جنوب أفريقيا فى هذا المجال حين أقامت كانتونات السكان الأصبيين التى كانت تُسمى «الانتوسنان»

٤ - الإدراك الغربي والصهيوني

لحروب الفرنجة (الصليبيين)

على الرغم من أن حروب الفرنجة ظاهرة مرتبطة بالتشكيل الحضاري العربي في العصر الوسيط، فقد ساهمت هذه الحروب وبعمق في صياغة الإدراك العربي لفلسطين والعرب ولا يملك الدارس إلا أن يلاحظ عمق التشابه بين المشروع العربي والمشروع الصهيوني الإسرائيلي، وهذا أمر متوقع لأن كليهما جزء من المواجهة المستمرة بين التشكيلين الحضاريين السائدين في الغرب والشرق العربي، كما أن حملات الفرنجة هي نقطة انطلاق أوروبا نحو التوسع والإصرار على بسط سيطرتها على الخارج .

إمبريالية جنينية

وقد احتوت حملات الفرنجة على أجنة كافة أشكال الإمبريالية الأوروبية التي حكمت فيما بعد حياة جميع شعوب العالم (على حد قول أحد المؤرخين الغربيين لحملات الفرنجة) ولهذا، أصبحت حملات الفرنجة استخداماً مجازياً أساسياً في الخطاب الاستعماري الغربي، وأصبحت ديساجاتها هي ديباجة للمشروع الاستعماري العربي . وقد رأى كثير من الدافعين عن المشروع الصهيوني، من اليهود وغير اليهود، أنه استمرار وإحياء للمشروع الصليبي أي الفرنجي ومحاولة وضعه موضع التنفيذ من جديد في العصر الحديث . فقد ألف مسي آر . كويلر في عام ١٨٩٧، وهو صهيوني غير يهودي ومؤسس صندوق استكشاف فلسطين، كتاباً عن تاريخ المملكة اللاتينية في القدس أشار فيه إلى أن الإمبريالية العربية قد نجحت فيما أخفقت فيه الحملات الصليبية أي حملات الفرنجة . والواقع أن تصويره هذا يشبه في كثير من الوجوه تصور الصحافة البريطانية وكذلك تصور بعض أعضاء النخبة الحاكمة في بريطانيا بأن هجوم النسي على القدس يساوي حملة صليبية أخرى . وقد صرح لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني آنذاك، والذي أصدرت وزارته وعد

بلعور، أن اللبني شئ ورمح آخر الحملات الصليبية وأعلنها انتصاراً . ويكفا أن نقول أن المشروع الصهيوني هو نفسه المشروع الفرنجي بعد أن تمت علمته، وبعد أن تم إحلل المادة البشرية اليهودية التي تم تحديثها وتطبيعها وتعميقها وعلمتها محل المادة البشرية المسيحية .

وقد لاحظ روبرت برنارد سولومون، وهو ضابط إنجليزي ورئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني، أوجه التشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوني في دراسة له بشرها في جوهش وفيو عام ١٩١٢ تحت عنوان «مستعمرات القرن الثاني عشر في فلسطين» حيث أكد أن المشكلات التي واجهها المستوطنون الفرنجة ولجحوا في التعامل عليها تشبه من نواح كثيرة تلك المشكلات التي تواجه المستوطنين الصهاينة في فلسطين ثم أخذ في تعداد هذه التواحي . كما أشير إلى العوامل التي أدت إلى انهيار ممالك الفرنجة بعبارة «المؤثرات الشرقية التي أدت إلى اللاحلال» لبيعلو المستوطنين الجدد منها .

بعض جوانب الشبه

فلما حاول حصر جوانب الشبه بين التجريئين الفرنجية والصهيونية، وتصنيفها تحت رؤوس موضوعات قد تكون متداخلة ولكنها مع هذا تيسر لنا عملية تقسيم هذه الأوجه والتعامل معها . ولعل نقطة التشابه الأساسية ذات طابع جغرافي ففلسطين هي النقطة المستهدفة في كل من المشروعين الفرنجي والصهيوني . ويبدو أن فلسطين مستهدفة دائماً من صناع الإمبراطوريات إذ أنها تعدّ مفتاحاً أساسياً لآسيا وأفريقيا، وتعدّ معبراً على البحرين الأحمر والأبيض، وتقف على مشارف الطرق البرية التي تؤدي إلى العراق وإيران، وهي أيضاً معبر أساسي لشطري العالم الإسلامي . وفلسطين في واقع الأمر ليست سوى جزء من ساحل طويل يضم سوريا ومصر، يشكل فاصلاً بين البحر المتوسط في الغرب والمحيط الهندي في الشرق . وتعدّ هذا الموقع، بالتالي، فاصلاً بين مراكز النشاط في أوروبا الغربية والشرق الأقصى . كل هذا يبين تشابك المصير بين سوريا ومصر من جهة

وفلسطين من جهة أخرى، خصوصاً وأن الكثافة السكانية لمصر جعلتها دائماً المرشحة لقيادة المنطقة بأسرها في صراحتها ضد العروات العربية . ويُلاحظ أن كلا من المشروعين العرقي والصهيوني اكتشف أنه لا بد، لحسم الصراع لصالحه، من ضرب مصر أو على الأقل تجميدها .

والواقع أن الغزاة الاستيطانيين عادةً ما يسلكون طريق البحر، ثم تستقر الجيوب الاستيطانية على الساحل أو تحتل مركزها الأساسية فيه كما حدث في جنوب أفريقيا والبرازيل . وكذلك، فإن العروتين العرقية والصهيونية سلكتا نفس الطريق البحري واحتلتا أجزاء من نفس الشريط البحري، وإن كان الشريط الذي احتله العرصة أكثر طولاً من الشريط الذي احتله الصهيونية

أما من الناحية التاريخية، فيمكن القول أن ثمة تشابهاً بين وضع العالمين العربي والإسلامي في القرن الحادي عشر ووضعهما في أواخر القرن التاسع عشر، فقد كانا في حالة انقسام وتراجع وتجزؤ . والحلقة العاطمية في مصر كانت في حالة مواجهة مع الحلقة العباسية في العراق، وقد اقتسما فيما بينهما العالم الإسلامي . وكان النظامان العباسي والعاطمي يعبان من الصراعات الداخلية والمؤامرات . وهما، في هذا، يشبهان النظام السياسي العربي المعاصر، المتجزئ، المنقسم على نفسه، المتصارع مع ذاته .

والعروات العرقية والصهيونية تهدفان إلى حل بعض مشاكل المجتمع العربي والتخفيف من حدة تناقضاته . فالمجتمع الوسيط الغربي كان يحوّل عملية بحث اقتصادي تحت شهية للاستيلاء على طرق التجارة المتجهة إلى الشرق . وهذا يشبه من بعض الوجوه، وإن كان بدرجة أقل، انفتاح شهية رجل أوروبا الشرقي في القرن التاسع عشر الميلادي الذي لم يهدأ له بال إلا بعد أن وقع العالم كله في قبضته . وقد استحدثت أوروبا كلا المشروعين، العرقي والصهيوني، في التخلص عما أطلق عليه في القرن التاسع عشر الميلادي «الفائض البشري»، أي العناصر التي لم تستطع أن تحقق الحراك الاجتماعي داخل مجتمعاتها ولذا كانت تهدد السلام

الاجتماعي وكان لابد من تصديرها للشرق حتى يحقق العرب سلاماً اجتماعياً داخلياً. المشروع العرقي كان يهدف أيضاً إلى تحليص أوروبا من فائضها البشري الذي كان يهدد سلامها الاجتماعي حسب تصور البعض على الأقل.

استعمار استيطاني إحلالي

ومن سقط التشابه الأخرى أن المشروعين العرقي والصهيوني مشروعان استعماريان من النوع الاستيطاني الإحلالي. فالمشروع العرقي كان يهدف إلى تكوين جيوب بشرية عربية وممالك فرنجية تدعى بالولاء الكامل للعالم العربي ولذا، لم تأت أحيوش وحسب، وإنما أتت معها العنصر البشري العربي المسيحي ليحل محل العنصر البشري العربي الإسلامي. وهو في هذا لا يختلف عن المشروع الصهيوني إلا في بعض التفاصيل. فعرو فلسطين ثم أولاً على يد القوات البريطانية، ثم حضر المستوطنون الصهاينة بعد ذلك بوضعهم عنصراً يقوم بالزراعة والقتال. وقد كانت المؤسسات الاقتصادية للفرنجية، مثلها مثل فريتها الإسرائيلية، تتم بطابع عسكري. كما أن التنظيم الاقتصادي التعاوني لم يكرس مجهولاً لدى الفرنجية. ويمكن القول أن دولات الفرنجية، مثلها مثل الدولة الصهيونية، كانت ترسانات عسكرية في حالة نأهب دائم للدفاع عن النفس وللتوسع كلما سحت لها الفرصة. ويلاحظ أن كلاً من ممالك الفرنجية والدولة الصهيونية، بسبب طبيعتها الإحلالية، خلقت مشكلة لا حصر. كما يلاحظ أن هؤلاء اللاجئين تحولوا إلى الوجود الذي جند سكان المنطقة ضد الدولة القلعة.

ومن المعروف أن الكيانات الاستيطانية لا تعقد صلتها قط بالوطن الأم بل تمتد عليه اعتماداً يكاد يكون كاملاً لأنها، بسبب تناقصها الجوهري مع البيئة المحلية التي تلمظها، تستمد مقومات الحياة من دعم عسكري ومالي وهوية ثقافية ومادة بشرية من وطنها الأصلي. وهذه سمة أساسية في الكيانات العرقية والصهيوني، مع تنوعات عرقية تنصرف إلى التفاصيل لا جوهر. عملاً اعتبرت بمالك الفرنجية على كل أوروبا كمصدر للدعم، ولكن اعتمادها كان على فرنسا بالدرجة الأولى.

وكذلك، فإن الدولة الصهيونية التي اعتبرت أوروبا قاعدتها الإستراتيجية واهتمت على معظم دول العالم العربي الرأسمالي مع التركيز على بلد واحد هو إنجلترا ثم فرنسا لفترة قصيرة وأخيراً الولايات المتحدة منذ منتصف الستينات . ومع سقوط الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي تطرح الدولة الصهيونية نفسها باعتبارها قاعدة للحضارة العربية كلها في مواجهة العالم الإسلامي . ويشير أحد الدارسين الإسرائيلييين إلى أنه كان هناك جبهة مرغوبة موحدة تماماً مثل الجبهة اليهودية الموحدة

وقد جاءت المادة الشرية لكلا المشروعين من العالم العربي . ولكسهما، مع هذا، لم يحققا التجانس العرقي المطلوب لتحقيق شيء من التوازن داخل التجمع الاستيطاني، فتولدت درجة عالية من التوتر . فممالك المرحمة كانت تضم في بادئ الأمر عنصراً فارسياً عالياً بالإضافة إلى عنصر إيطالي انقسم بدوره إلى جنوبي وبيدقي بسبب إلى جوة والسدقة . ولكن عناصر أخرى انضمت إلى هذين العنصرين، مثل الأرمن وبعض العناصر المسيحية المحلية والمسلمين الذين تنصروا. كما أن ممالك المرحمة ذاتها استوعبت، بمرور الزمن، العناصر الثقافية من البيئة المحلية . ولكن، ومع هذا، يمكن القول أن عمالك المرحمة احتفظت بقدر من التجانس أعلى بكثير مما حفظه الكيان الصهيوني . فهذه الممالك ظلت مريحة (عربية)، كما أن أعضاء النخبة الحاكمة الشي كانت عاصرها الإمامية من المرحمة طلت متعاسكة، وكذلك كانت الهوية الثقافية مستمدة من فارساً . ويلاحظ أن أوروبا في ذلك الوقت لم تكن قد انقسمت بعد إلى كيانات قومية لكل منها لنها، وكانت اللاتينية هي لمة العبادة والمكر . وكان التشكيل الحضاري يتمتع شيء من الوحدة الثقافية، على الأقل، بالمقياس إلى فترة النحت القومي التي بدأت بعصر النهضة

وقد حاول التجمع الصهيوني أن يحتفظ بهوية إثنوكلارية متجانسة تستند إلى تجربة شرق أوروبا . ولكن أوروبا، في القرن التاسع عشر الميلادي، كان تشكيلها

المختلاري مقبلاً إلى كيانات قومية مختلطة تتحدث لغات مختلفة، فجاء يهود من المجر ورومانيا والنمانيا وإيطاليا وفرنسا، كلٌّ يتحدث لغته وجاء من شرق أوروبا ذاتها أنواع غير متجانسة، فثمة يهود جاءوا من بولندا يتحدثون ابولندية، وآخرون جاءوا من رومانيا يتحدثون الرومانية، ومن روسيا جاء من يتحدث الروسية إلى جانب الألمانية التي تتحدث اليديشية . كما كان السق الديني اليهودي في حالة تقفت وتراجع ومن ثم نجد أن هناك يهوداً أرثوذكساً ويهوداً إصلاحيين أو محافظين أو فرائين ... إلخ . ثم اجتاحت التجمع الصهيوني الكثافة السكانية الوافدة من العالمين العربي والإسلامي والتي غيرت من ميته السكانية وتوجهه الثقافي بحيث أصبحت أغلبية العصر اليهودي شرقية تحكمها أقلية أشكنازية . ولكن الدولة الصهيونية تحاول مع هذا أن تحتفظ بالتوجه الأشكنازي للمجتمع، إذ يتضح هذا في تشجيع الهجرة من الاتحاد السوفيتي وهي المناخ الثقافي الذي تفرسه المؤسسة الحاكمة، وهذا الوضع يولد الكثير من التوتر .

ولنلاحظ الصلحي الإسرائيلي يوري ابيري أن كلاً من التجمعين الفرعيين والصهيوني تكون من ثلاث طبقات ذات طابع عرقي الطليقة الحاكمة من المسيحيين العربيين في دويلات العرمنية يقابلها اليهود الأشكناز في الدولة الصهيونية ثم يأتي في المرتبة الثانية مواطنو الدرجة الثانية من المسيحيين الشرقيين في دويلات العرمنية يقابلهم اليهود الشرقيون في الدولة الصهيونية وأخيراً يأتي مواطنو الدرجة الثالثة وهم المسلمون واليهود وبعض المسيحيين العرب في دويلات العرمنية، والمسلمون والمسيحيون العرب في الدولة الصهيونية .

مجتمع مشلول

والمجتمع الاستيطاني مجتمع مروع أو مشلول في العادة، فهو يأخذ شكل الدولة الحيثي أو الدولة القذعة ويشير له الآن بأنه الدولة الشتل والشتل هي المدن الصميرة التي أسسها النبلاء البولنديون (شلاختا) في أوكرانيا لأعضاء الجماعات اليهودية ليقوموا بدورهم الذي أوكل إليهم في جميع الضرائب

والإيجارات والإشراف على إدارة صياح هؤلاء السلاء حيث كانت تحميمهم القوة العسكرية الولائية وهذا المجتمع معمر عن بيته ويصرف جزء كبير من نشاطه إلى عملية القتال ضد السكان المحليين وهذه مسألة ليست عرضية وإنما هي مسألة جوهرية وتنع من الوظيفة ذاتها والعالم العربي يرود الحيلوب الأسطانية بالمعون ومفومات الحسة حتى تظل ركيزة لشاظاته الإمبريالية والتوسعية ويسطن هذا الوضع على الحبيبين العرقي والصهيوي، وإن كان يبدو أن الدعم العربي للحبيب الصهيوني يعوق الدعم العربي للحبيب العرقي ولعل هذا يعود إلى أن العرب أدرك وظيفة الحبيب الصهيوني كاستثمار إستراتيجي يأتي بعائد اقتصادي عبر مباشر عن طريق تهديته المنطقة وليس كاستثمار اقتصادي يأتي بعائد اقتصادي مباشر وربما لم تكن لدى أوروبا في العصور الوسطى الرؤية الإسرائيلية الشاملة التي يمتلكها العرب في الوقت الحاضر .

ويبدو أن أزمة التجمع العرقي لا تختلف عن أزمة التجمع الصهيوني فيلاحظ أن الكيان العرقي كان يعاني من أزمة سكانية لا تختلف كثيراً عن أزمة المستوطن الصهيوني، وذلك نظراً لانخفاض عدد سكان أوروبا عام ١٣ بعد انتهاء فترة تزايد السكان، الأمر الذي أدى إلى عدم مجيء المزيد من المادة البشرية، كما كان الكيان العرقي يعاني من تناقص نسبة المواليد وكان كثير من الأراضي التي صممها العرقي يروغها سكانها الأصليون العرب بل إن بعض الأقان الذين جاءوا مع حملات العرقي اشتغلوا بأعمال أخرى غير الزراعة، نظراً لعدم درايتهم بالقرية وربما لتفتح فرص اقتصادية أخرى بحيث أمكنهم العمل في التجارة وهذا يشبه المرحف التدريجي للعرب على الزراعة داخل المستوطن الصهيوني مما هي ذلك الكيبونات، ونحو المستوطنين الصهية إلى مهام أخرى غير الزراعة

الدياجات والقصد

ولا تحصر نقاط التشابه بين المشروعين المرححي والصهيوي في الظروف الاجتماعية والحضارية للحيلة بكل منهما، ولا في بنية الكيانين فقط، وإنما تمتد نقاط التشابه هذه لنصم الدياجات والقصد . فقد قدمت تبريرات لمشروعين وثم الدفاع عنهما عن طريق دياجات دسيسة تستخدم الرموز الدينية وتوظفها في عملية التعتيش العسكرية . والرموز الدينية المستخدمة هي هي واقع الأمر رموز عرقية أو إثنية أو قومية على الرغم من طلائها الديني اللامع . وينبذ هذا في واقع أنه لا حملات المرحجة ولا الحملة الصهيونية تحتكم إلى القيم الأخلاقية المسيحية أو اليهودية، ولا يوجد لدى أي منهما استمداد لأن يُقيم سلوك القاتلين الناعمين لها من منظور مسيحي أو يهودي . فلم يكن الصليب في الحروب التي يُقال لها «صلبية» رمزا للنسق الديني المسيحي وإنما كان رمزا للهوية الإثنية العربية المعروفة في الديبوية، كما أن عجمة داود كان يستخدمها الصهاينة الذين لا يعترفون إلا لقليل من الدين اليهودي ولا علاقة لهم بالنسق الديني اليهودي . فالحملات التي يُقال لها «صلبية»، أو تلك التي يُقال لها «صهيونية»، هي إذن تعبير عن قوى غير دسيسة استولت على الرموز الدينية ووظفتها مشما استولت فيما بعد على الأراضي وقتلت أصحابها .

ومن هنا كانت عنصريه الدياجات الصليبية والصهيوية . ومن هنا أيضا كان تمييزها الحاد بين البشر وتقسيمهم إلى أدنى وأعلى، أو حاصر وغائب، أو فئة لها كافة الحقوق وفئة لا حقوق لها على الإطلاق . إلح . وهذا مختلف تماما عن إيمان الدياسات التوحيدية الثلاث بالمساواة بين البشر والتي تصدر عن الإيمان بأننا نولد جميعا من آدم وآدم من تراب .

ويلاحظ أن دياجات المرحجة والصهاينة ترى عمرو فلسطين في إطار فكرة أن العراة شعب مدنس أو محتار . وكان يسيطر على كل من المرحجة والصهاينة تفكير محبوي يجعل رجاءهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم طلائع شعبهم التي

ستحمل السلاح لتحلص الأرض المقدسة، وأن هذه الحملة العسكرية إن هي إلا خروج ثانٍ يشه خروج المبرانيين من مصر إلى كنعان . وقد لوتعتلت الديباجات في كلا المشروعين بالأحلام الألبية في استرجاع فلسطين بعد عودة المسيح أو تمهيداً لعودته

حملات الفرنجة في الوجدان

نظراً لانتشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوني، ونظراً لأن كليهما اتحدت فلسطين ساحة لتسفيد أحلامه، نجد أن الوجدان الصهيوني مشعل إلى أقصى حد بالمشروع الفرنجي، خصوصاً وأن الفرنجة قد وحلوا ولم يتركوا شيئاً حلفهم سوى معض الفلاح التي يرورها السافحون ويدرسها علماء الآثار من الإسرائيليين والعرب. ويحاول الفارصون انصهانية أن ينظروا إلى مشروع الفرنجة من منظور ما يسمونه «التاريخ اليهودي» وكأن حملات الفرنجة جردت بالدرجة الأولى ضد اليهود، تماماً مثلما يمسحون مركزية للجماعات اليهودية في كل الأحداث التاريخية وتحدثت الكتابات الصهيونية الإسرائيلية عن صحايا حملات الفرنجة وكأنهم هم الضحايا الوحيدون، بل وتدعى بعضها دوراً يهودياً مستقلاً في صد الفرنجة، وهو الأمر الذي ينافي تماماً مع حقائق التاريخ، ومع ما ورد في كتابات بعض الرحالة اليهود المعاصرين مثل بيامين التوديللي، فإن مدينة صور كانت (في عام ١١٧٠) تضم خمسمائة يهودي على حين كانت كل من عكا وقيسريه تضم مائتين، وكانت عسقلون تضم مائتي يهودي خانعامي وتشير موسوعة التاريخ اليهودي إلى أن هذه هي الجماعات اليهودية الكبيرة ! ويذكر العالم اليهودي الإسباني موسى بن سحمان (سحمانيلس) أنه وجد في القدس عام ١٢٦٧ يهوديين اثنين فقط

ولكن أهم جوانب الاهتمام الصهيوني الإسرائيلي بالكيان الفرنجي هو دراسته من منظور الصراع العربي الإسرائيلي، بمعنى عقد الدراسات المقارنة في مشاكل الاستيطان ومشاكل الموارد البشرية والعلاقات السنوية مصلاً عن محاولة فهم عوامل الإحباط والفشل التي أودت بالكيان الفرنجي . وهناك من يهتم بدراسة

المعلومات البشرية والاقتصادية والعسكرية للكيان العرقي، ومن يهتم برصد العلاقة بين هذا الكيان والكيان الأوربي المساند له . وقد رجع فريق من الباحثين اليهود اهتمامه للدراسة مشكلات الاستيطان والهجرة .

ولكن الاهتمام لا يقتصر على الدوائر الأكاديمية، فجد أن شخصيات سياسية عامة مثل رابين وديان وأفسيري يهتمون بمشاكل الاستيطان والهجرة . هي سينمير ١٩٧٠ ، عقد إسحق رابين مقارنة بين عمالك الفرنجة والدولة الصهيونية حيث توصل إلى أن الخطر الأساسي الذي يهدد إسرائيل هو تجميد الهجرة، وأن هذا هو الذي سيؤدي إلى استحلال الدولة سبب عدم سريان دم جديد فيها . ويعقد أنيري في كتابه إسرائيل بدون صهيونية (١٩٦٨) مقارنة مستعصية بين عمالك الفرنجة والدولة الصهيونية لا تختلف كثيراً عن المقارنة التي عقدها في الجزء الخاص بهذا الموضوع والذي استعدها فيه تحليله الذي . ولكن أنيري يحصل إلى أن المقارنة دوس لا بد وأن يتعلم منه الصهاينة، فإسرائيل مثل عمالك الفرنجة محاصرة عسكرياً لا لأن هذا هو المصير الموعود (الذي لا معرفته) كما يتصور بعض الصهاينة، وإنما هي محاصره عسكرياً لأنها تجاهلت الوجود الفلسطيني ورفضت الاعتراف بأن أرض الميعاد يقطنها العرب منذ مئات السنين

وقد عاد أنيري إلى الموضوع، عام ١٩٨٣، بعد السرد الصهيوني للسكان، في مقال نشر في هاهولام هزه بعنوان "ماذا ستكون النهاية" فأشار إلى أن عمالك الفرنجة احتلت رقعة من الأرض أوسع من تلك التي احتلتها الدولة الصهيونية، وأن الفرنجة كانوا قادرين على كل شيء إلا العيش في سلام، لأن الحلول الوسط والتعايش السلمي كانا عرييين على التكوين الأساسي للحركة . وحيثما كان يقوم جيل جديد يطالب بالسلام كانت مجهوداتهم تصبح سدى مع قدوم تيارات جديدة من المستوطنين، مما يعني أن عمالك الفرنجة لم تقدم قط طابعا الاستيطاني . كما أن المؤسسة العسكرية الاقتصادية للفرنجة قامت بنور فعال في القضاء على محاولات السلام، فاستمر التوسع القرصي على مدى جيل أو جيلين ثم بدأ الإرهاق يحل

بهم، وزاد التوتر بين المسيحيين العرب من جهة وأبناء الطوائف الشرقية من جهة أخرى، الأمر الذي أصعب المجتمع الاستيطاني للعرجة، كما صعب الدعم المالي والسكني من العرب . وهي الوقت ذاته، بدأ نمث إسلامي جديد، ومدات الحركة للإجهاد على عمال العرجة، ما وجد المدمون طرفاً تجارية بديلة عن تلك التي استولى عليها العربجة . وبعد موت الأجيال الأولى من أعضاء النجبة في الممالك، حل محلهم ورثة صغراء في وقت ظهر فيه سلسلة من القادة الملهمي العظماء ابتداءً من صلاح الدين ذي الشخصية الأسطورية حتى الظاهر بيبرس وظل ميراث القوى يميل لعمير صالح العربجة، كما لم يكس هناك ما يوقع هزيمتهم النهائية . وقد ترك هذا الحدث التاريخي بصماته وآثاره على وهي شعوب المنطقة حتى اليوم .

والواقع أن اهتمام المستوطنين الصهاينة بممالك العربجة هو تعبير عن إدراك أولي لطبيعة دورهم في المنطقة كدولة وظيفية تكون مجرد أداة في يد قوى عظمى خارجة، وهو إحساس يشوبه قسط كبير من القنصرية والعدمية الناجمة عن إحساس الأدلة بأنها لا تمتلك ناصية أمورها ولا تسيطر على مصيرها أو قلبها

الفصل الرابع

فى تفكيك الإدراك الصهيونى

- ١ - معاداة اليهود: تفكيك وتركيب ثلاث حالات
- ٢ . الصهيونية والرومانسية: إعادة التفكير فى طرق التفكير
- ٣ الإدراك والمقدرة التنبئية للنموذج

١ - معاداة اليهود: تفكيك وتركيب ثلاث حالات

في الفصول الثلاثة السابقة تناولنا كيف يؤثر الإدراك في سلوك البشر، كما تناولنا طبيعة الإدراك الصهيوني الإسرائيلي للعرب. ويمكننا أن نتقدم خطوة للأمام في هذا المصطلح ونقوم بتفكيك هذا الإدراك الصهيوني لرى كيف يشكل وكيف يمد صياغة الواقع. وقد نصح الصهاينة في إشاعة إدراكهم للواقع عن طريق تناول أحداث وقائع واساطير العداء لليهودية، بعد تجريدها من سياقها التاريخي والاجتماعي والإنساني بحيث يمكنهم فرض معنى صهيوي عليها. وهذا ما يمكن أن يحدث لأية واقعة تاريخية تتحول إلى مجرد واقعة ليس لها أبعاد تاريخية. وقد نسرّب هذا الإدراك الصهيوني إلى وجداننا وأصبح - دون أن ندري - جزءاً من ترسانتنا الإدراكية. وفي هذا الجزء سنتناول ثلاث وقائع عادة ما يشير لها الصهاينة في كتاباتهم، وسنحاول أن نرى كيف يفرضون الدلالة الصهيونية عليها، أي أننا سنقوم بعملية تفكيكية نوضح لنا النماذج الإدراكية الصهيونية الكامنة وكيف نجح هذه النماذج في أن تعيد صياغة الواقع واحتزاله بما يحدم الرؤية والمصالح الصهيونية. ولكننا في هذه الدراسة لن نقف عند هذا الحد بل سنقوم بعملية تركيبية وسنحاول أن نطرح تصوراً أكثر عمقا وإنسانية وتفسيرية لتفسير الوقائع والأحداث، وسنشرح ذلك عن طريق ربط الوقائع التي وردت في الكتابات الصهيونية بوقائع أخرى استلعبها الصهاينة بحيث تظهر الأنماط التاريخية الإنسانية العامة. كما أننا سنضع هذه الوقائع في سياقها التاريخي والإنساني وبذلك نكسب معناها التاريخ الإنساني الأعمق الذي يحرم الصهاينة على حجه

الوقائع الثلاث

أولى الوقائع هو مايسمى بـ "تهمة الدم" أى اتهم اليهود بأنهم يقتلون مسيحا مسجحا في عيد الفصح، سخرية واستهزاء من صلب المسيح ونظراً إلى أن عيد الفصح المسمى واليهودى قريان، فقد تطوّرت التهمة وأصبح الاعتقاد بأن اليهود يستعملون دماء ضحيتهم فى طفوسهم الدينية وأعيادهم، وخصوصاً فى عيد الفصح اليهودى الذى أصبح أن حبر العطير غير المحمّر (الماتروت) الذى يؤكل فيه يعجن بدماء الضحية

وتعدّ جثور تهمة الدم إلى عصر الأعريق والرومان، أى إلى ما قبل العصور المسيحية فقد أتى فى كتابات آبيون الهيلينى (السكندرى) وديمقريطس الرومانى إشارة إلى أن اليهود يقدمون ضحايا بشرية إلى آلهتهم ولكن هذا الادعاء لم يصبح جزءاً من صورة اليهود الذهبية، ولم توجه هذه التهمة إليهم بشكل متكرر إلا فى القرون الوسطى المسيحية فى العالم العربى.

وقد وجهت أول تهمة دم فى القرن الثانى عشر فى انكلترا، فى وقت كان اليهود يمارسون نشاطهم التجاري والمالى، مما كان يعنى أن أفراداً كثيرين اقترضوا أموالاً من المرابى اليهودى، ولم يجبروا فى تسليدها وأكث ملكية بعض أراضيهم أو ربما مارلهم إلى المرابى. وقد اتهم اليهود حينئذ بأنهم دبحوا طفلاً همرة أربعة أعوام ونصف العام، يدعى وليم فى الجمعة الحزينة فى عام ١١٤٤ وقد قال أحد اليهود المنتصرين أن هذا هو عيد الفصح الذى تقوم فيه إحدى الجماعات اليهودية فى إحدى مدن أوروبا بذبح طفل مسيحى (وقد نُصّب وليم قدسيا فيما بعد) ثم وُجّهت تهم دم أخرى فى مناطق مختلفة فى إنجلترا، بين العامين ١١٦٨ و ١١٩٢ وقد انتشرت التهمة إلى فرنسا، ووجهت التهمة فى بلوا، فى العام ١١٧١ كج وجهت التهمة إلى اليهود خمس عشرة مرة فى القرن الثالث عشر، ومن بينها حالة هيومن لسكولس (١٢٥٥) التى يذكرها تشوسر فى حكايات

كانت ترمى. وقد استمر توجيه التهمة حتى منتصف القرن العشرين، ومن أشهرها حادثة دمشق (١٨٤) وقضية بيليس (١٩١٣) وتعد حادثة دمشق استثناء هي أنها حدثت في العالم الاسلامي؛ إذ أنها تكاد تكون ظاهرة مقصورة على العالم المسيحي وكانت تهمة الدم تأخذ عادة الشكل التالي يحتمى شخص مسيحي (في العادة طفل) أو يوجد ميتاً، فيتذكر أحد الأشخاص أن هذا الطفل شوهد آخر مرة بحوار الحى اليهودي أو أن هناك عبداً يهودياً ما (تتطلب شعاعته دم نصراني) موجّه الى اليهود تهمة قتله ويتم القبض على بعض أعضاء الجماعة اليهودية، ويتم تعذيبهم ثم شق بعضهم.

أما الواقعة الثانية، فهي حادثة دريموس الشهيرة، وبطلها هو الفريد دريموس الذى كان من كار المصبات العرسيين وكان اليهودى الوحيد في هيئة أركان الجيش العرسى. وقد ولد دريموس في الالراس لامرأة يهودية ثرية صدمجة في محيطها العرسى. وسقطوا إلى إن اسمه كان هلساؤون، وهو اسم ألماني الكهنة، فقد غيّر إلى اسمه العرسى الذى اشتهر به. وقد اتهم دريموس بأنه أعطى وثائق سرية عسكرية للملحق العسكرى الألماني في باريس، فوجهت إليه تهمة الخيانة العظمى والتجسس لحساب ألمانيا في عام ١٨٨٤. وقد قامت السلطات العسكرية بمحاكمته وتبعت الصحافة المعادية لليهود آنذاك الأحداث. وكانت تعين الرأى العام ضد دريموس، مما خلق جواً غير ملائم لصمان حياد المحاكمة. وفي نهاية الامر، قضت المحكمة عليه بالسجن مدى الحياة، وجرّد من رتبته علناً أمام الجماهير، وبعي إلى «جزيرة الشيطان» (ديفلر ايلاند) التى تقع على الساحل الأمريقى. وكانت مستعمرة من قبل فرنسا. وقد رجّبت الصحافة المعادية لليهود بالحكم

أما الواقعة الثالثة، فهي حادثة ليوفرانك، وهو يهودى امريكى ولد في تكساس ونشأ في بروكلين. وكان يعمل مديراً لمصنع أفلام في اثلاثا جورجيا، حيث قبض عليه بتهمة قتل فتاة بعصا عمرها ١٣ عاماً، تدعى ماري فيمان، بعد محاولة اغتصابها. وقد حوكم فرانك وأصدر حكم بإعدامه ويقال أن كونه يهودي كان

عنصراً هاماً أثر في محاكمته وفي الأحداث التي تلتها. وحيثما حُفِّ حاكم الولاية الحكم إلى السجن مدى الحياة، هاجمت مجموعة من المواطنين السجن واحتطقت درنك وشنته في المدينة التي ولدت ودلت فيها صحته المقتربة، وهو ما يسمى في اللهجة الانكليزية - الامريكية Lynching

دعامة الدم، في سياقها التاريخي

وترد الوقائع الثلاث السابقة في الكتابات الصهيونية بهذا التجريد. والتأنيح التي يستخلصها القارئ، أو التي تُستخلص له، هي أن اليهود لا ينتمون إلى مجتمعاتهم؛ إذ أن مجتمعات الأعيان تُسْخِمْ وتُضْطَهِدُهم، لا لئلا يفترقوا سوى لأنهم «يهود» والفارق الوحيد هنا بين المصاهرة وأعداء اليهود أن الفريق الثاني يقول أن كل المجتمعات تريد اليهود وتضطهدهم لأنهم يستحقون ذلك. ولكن الفريقين يتفقان على حتمية السد والاضطهاد، بسبب طبيعة اليهود الخاصة، وبالتالي حتمية خروجهم

وطبيعة اليهود الخاصة هذه هي التي تصح «القومية اليهودية» في الخطاب الصهيوني، أما الاضطهاد «والسب» فيصحبان الحركة البطاردة من المجتمعات الأصلية، و«الخروج» يصبح الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين. وبالتالي، نحن من منظور أخلاقي ومعرفي وعلمي، يجب أن نقف ضد معاداة اليهود. ومن البادر أن نجد مثل هذا التوافق شبه الكامل بين المستويات الثلاثة المتناقضة في أية قضية من القضايا؛ إذ عادة ما يوجد تناقض بين المنظورين الأخلاقي والعلمي، كما أن المنظورين المعرفي والأخلاقي قد لا يتفقان بالضرورة.

ولبدأ بتهمة الدم، ولنجاول أن نضعها في سياق تاريخي إنساني عام. ظهرت تهمة الدم بعد أن تحول أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي إلى جماعات وظيفية وسيطة تشتمل بالتجارة والربا. وكان يتم تشييدهم بالأسفجة التي تُنصص منود كل الطبقات، والطبقات الشعبية على وجه الخصوص، ثم يتمصرها

الإمبراطور لحبائه بعد ذلك (وهو أمر لم تكن تدركه الطبقات الشعبية) ومن هنا الإشارة إلى اليهود كأعضاء جماعة وظيفية وبسيطة (لا إلى اليهود كيهود) على أنهم مصاصو دماء. وليس من الصعب على الوجدان الشعبي تحويل المجاز إلى حقيقة.

وتوجيه تهمة الدم كان يمس في واقع الأمر شتى علة يهود، من صممهم عدد كبير من المراهبين، فقد كانت هذه هي إحدى أهم الوظائف التي اضطلع بها اليهود في التشكيل الحضاري العرسي. وكان هذا يمس في كثير من الأحيان سقوط الديون؛ أي أن توجيه تهمة الدم يشبه، من بعض الوجوه، التخطيط لسرقه مصرف من المصارف؛ وشتى اليهود كان بمثابة النجاح في هذه العملية، وهي عملية تشبه، أيضاً، عمليات روبن هود، الذي كان يسرق من الأثرياء ليعطى الفقراء. ولكن الحرثنة الملكية كانت تسبب أحياناً من تهمة الدم، حينما كانت تروث ديون المراهبي الذي يُشتق أو يطرد. إن السحة احكاممة كانت تنتهر الفرصة لابتزاز أعضاء الجماعة اليهودية لحمايتهم.

ويبدو أن تهمة الدم صورة إدراكية نمطية تتكرر في الوجدان الشعبي؛ وهي عادة اتهام يستخدمه فريق ضد أعدائه ليسقط عنهم إنسانيتهم. وقد اتهم العجبر بأنهم يحطمون الأطفال ويحسون دمهم؛ كما وجهت التهمة عيها إلى المسيحيين الأول؛ وكذلك إلى المومسيين، وإلى إحدى الفرق الدينية الإيطالية في عام ١٤٦٦. وقد اتهم المشرون المسيحيون في الصين، في عام ١٨٧، بأنهم يسرقون الأطفال الصينيين، ليصنعوا منهم دواء سحرياً. واتهم الأجانب فمدمعشقر، في عام ١٨٩١، بابتلاع قلوب البشر. أما الرهبان الدوميسكان، فقد اتهمهم أعدائهم من الرهبان الفرنسيسكان باستحلام دم وحواجب عمل يهودي في بعض طقوسهم السرية؛ أي أن تهمة الدم لم تكن مقصورة على اليهود. وإذا كان المراهبون الآخرون في المصور الوسطى العربية، مثل اللومبارد والمكواهوسين (وهم مسيحيون) لم توجه إليهم تهمة الدم - حسب علما - فقد وجهت إليهم تهمة أخرى، لانقل عنها سواها؛ كما أنهم كانوا عرضة للطرد، وللمصادرة، والشنق.

وقد ساعد تكرار مناظر الدم والقتل في العهد القديم على إصااق التهمة باليهود دون المراهبن المسبحين كما أن طقوس اليهود الدينية، خاصة طقوس عيد الفصح، كانت تثير الريبة في نفوس أعضاء الأغلبية، الأمر الذي كان يجعلهم يمحنون عن تفسير نها (مذا مع العلم بأن العهد القديم يسمح شرب الدم، أو أكل اللحم قبل تصفية الدم منه).

ولم يكن اليهود ينفون في مقابل الأعباء كما يذّعى الصهاينة بذلك، فالبحبة الحاكمة (الكنيسة والإمبراطورية والملوك) كانت تدافع عن أعضاء الجماعة ضد التهم التي كانت توجهها إليهم عامة الشعب. بين البابا انوسنت الرابع، في مرسوم أصدره عام ١٢٤٥، أن التهمة باطلة، وحرّم على المسيحيين توجيهها إلى اليهود ودافع البابا غريغوري العاشر، في مرسوم أصدره عام ١٢٧٤، عن اليهود كما فعل بابوات آخرون المشيء عيه. وفي عام ١٧٥٨ أصدر الكاردينال لورنزو جانجيانلي (النا كليم الرابع عشر، فما بعد) مذكرة يدين فيها تهمة الدم وقد أصدر التحريم عنه الإمبراطور الألمانى فريدريك الثاني (حكم من ١١٩٤ إلى ١٢٥٠) وإمبراطور النمسا رودولف من أسرة الهابسبورج في عام ١٢٧٥ وقد أصدرت الحكومة في بولندا، في العصور الوسطى، قراراً بأن من يوجه التهمة إلى اليهود دون أن يشنها سبراهين قاطعة يحكم عليه بالإعدام وقد حاول الكثير من المسيحيين والعلماء تصد التهمة ورفقاع الناس بطلانها، ولكنهم، مع هذا، فشلوا في مساعدتهم، واستمرت تهمة الدم مرتبطة، ارتباطاً وثيقاً، بصورة اليهودى، حتى عهد قريب.

أما تهمة الدم في حادثة دمشق، فقد كانت مرتبطة بالصراع بين الاستعماريين البريطانيين والعربى الذين كانوا يتنافسان على مدّ نفوذهما عن طريق «حماية أعضاء الأقليات الدينية» فكان الفرنسيون «يسمحون» الكاثوليك والمارونين (الذين وجهوا تهمة الدم) وكذا البريطانيون، نظراً إلى عدم وجود مسيحيين رومناتانت بأعداد

كبيرة في العالم العربي، «يحمود» اليهود، خاصة وأن روسيا، وهي بلدهم الأصلي، لم تكن مهتمة بهم كثيراً بسبب وجود المسيحيين الأرثوذكس، ولأن روسيا لم يكن لها أطماع في الشرق الأوسط، إذ أن مشروعاتها الاستعمارية كان موجهاً إلى مناطق أخرى. وقد أصدر السلطان العثماني فرماناً يجرّم فيه نهضة الدم.

المسألة إذن أكثر تركيزاً عما يصورها الصهيونية، فنهضة الدم ظاهرة شعبية، ليست مقصورة على أعضاء لحركات اليهودية. كما أن العالم لم يكن ينقسم إلى يهود وأعيان، فالسلطات الحاكمة كانت تقف في صف اليهود، إما لأسباب دينية (كما هو الحال مع الكنيسة) أو لأسباب اقتصادية (كما هو الحال مع الأنظمة) أو لحيلولة مشاكلها (كما هو الحال مع الخليفة العثماني).

دريغوس والصراع بين الكنيسة والقوى العلمانية

أما الواقعة الثالثة، فهي واقعة الفرد دريغوس، التي وصفت بأنها تركت أثراً عميقاً في هرتزل، إلى درجة أنه اكتشف عبث محاولة الانتداع، فتسبى بدلاً من ذلك الحل الصهيوني. وهذه في حد ذاتها عملية تبسيط فجأة للعوامل التي أدت بهرتزل إلى اقتراح الدولة الصهيونية حلاً للمسألة اليهودية. ولكن من الحقائق التي لا تُنكرها المراجع الصهيونية أن هرتزل نفسه كان مفتنماً في بادئ الأمر بأن دريغوس كان مدسياً وحائلاً، ولا أعرف ما الذي جعله يغير رأيه فيما بعد. ولكن ليس هذا هو موضوع الحديث. ولذلك فليحاول أن يصنع واقعة دريغوس في إطارها التاريخي والاجتماعي والإنساني.

ابتداءً، كان دريغوس محل شك المحادثات العرسية. لأسباب وجيزة عاقلات العرسية كانت تجتذ كثيراً من يهود ألمانيا ويهود الأتراس واللورين للعمل جواسيس خاصين بها. ولذا ساد الاعتقاد بأنه لا يذو وأل ألمانيا ذاتها كانت تعمل الشيء نفسه (وهو أمر متوقع). ويجب أن نتذكر أن هذا جزء من الإدراك الأوروبي لليهود، وهو إدراك كانت تدعمه بعض الممارسات التاريخية. ففي القرن السابع عشر، لعب

أفراد الجماعات اليهودية في أوروبا دوراً أساسياً في عملية التجمس بين الدول؛ وقد حاول أولر كروميرل أن يحفظ ود اليهود ويوطنهم في (بكلترا)، حتى يستفيد من خدماتهم كجواسيس له

ويلاحظ أن تلك الفترة شهدت كساداً اقتصادياً في أوروبا، الأمر الذي أدى إلى انتقال أعداد كبيرة من المهاجرين إلى فرنسا، وجاء مهاجرون من إيطاليا وغيرها من البلدان الأوروبية فكان عدد الإيطاليين ١١٢ ألفاً في عام ١٨٧٢، ازداد إلى ٣٠ ألف في عام ١٨٩٠ وقد جاء معهم قرويون، من القرى الفرنسية، يتحدثون لهجاتهم المحلية، مثل البريتون ولأفيرنيان Auvergnat. كما هاجرت أعداد كبيرة من يهود الألزاس واللورين الذين لم يكونوا قد أصبغوا بعد بالصفة الفرنسية. ووصلت أعداد كبيرة من يهود شرق أوروبا، الذين يتحدثون اليديشية (وهي لغة المانية) وقد أدى كل هذا إلى زيادة عدد الأجانب كما أن تزايد يهود شرق أوروبا ويهود الألزاس واللورين على حساب العنصر اليهودي الفرنسي المحلي أدى إلى تصنيف كل أعضاء الجماعة اليهودية على أنهم أجانب ومن المعروف أنه في فترات الكساد الاقتصادي، تبرز العنصر الأجنبية للهجوم من قبل السكان المحليين الذين يهتمون العناصر الوافدة بأنها سبب الأزمة، إذ أن العامل الأجنبي يرعى أجرة أقل ومستوى معيشي أكثر انحداراً علاوة على هذا، كان الجو العام في فرنسا آنذاك متوتراً، خاصة بالنسبة إلى أفراد الجماعة اليهودية، بعد هزيمة الجيش الفرنسي على يد الألمان في عام ١٨٧١، إذ كانت العناصر الليبرالية (التي كانت تضم نسبة عالية من اليهود) تقف ضد فكرة الانتقام من ألمانيا كما أن بلد العلماني كان آخذاً في التزايد، وفي الإصرار على فصل الدين عن الدولة بشكل كامل ويجب أن نتذكر أن الثورة الصناعية قد اقتلعت الكثيرين من جذورهم، وأدت إلى افقارهم، وفدفت بهم إلى المدن الكبرى مثل باريس. وكان المقتلون هؤلاء شعرون بعدم الأمن تجاه المجتمع الجديد، بطابعاته وثورته وقيمه التجاريةوالذي كان لليهود يتواجدون في مركزه إضافة إلى ذلك، كان هناك

عدد كبير من اليهود بين قادة كومونة باريس في عام ١٨٧١ وقد أدى هذا كله الى
الربط بين جماعة اليهودية والمعاصر الثورية والعلمانية والموضوية في المجتمع
وعلى الرغم من هذا ارتبط اليهود (غير تاريخ أوروبا، منذ انحدور الوسطى حتى
العصر الحديث) بالمصالح المالية الكبيرة بالمصارف والشبكات المالية والتجارية، وهي
صورة دعمها برور أسرة روتشيلد في عالم التجارة والمال

وهكذا أصبح اليهودي رمزا متبلورا لكثير من المعاصر المتناقضة ومحط شك
العلماء وكرهها، فهو الأجس المعص، وهو الثوري العلماني التقدمي الذي
يحمل لواء المجتمع الحديدي المدمر، ولا يكتث بأية قيمة سوى الربح، ولا يرتبط
بأية أرض سوى السوق وقد كانت الصحف المعادية لليهود تشير إلى دريغوس
باعتباره الرأسي وأجسا وعضوا في طبقة الموليين الأثرياء

وقد انصمحت أعداد كبيرة من صحايا الثورة الصناعية إلى الشنطيمات المعادية
لليهود التي كانت تستخدم حليطا جديا ومريحا من الدياجات المسيحية والاشراكية
والعرفية، وتطرح صورة لمجتمع مبي على التضامن المسيحي، والتكافل
الاجتماعي، والتعاون الاقتصادي، يقف على طرف القفص من المجتمع الصناعي
الحديد، المبني على التنافس والتفائل، والذي يؤمن بإمكانية البدء للأصلح
وللأقوى وحسب وقد انصمحت غالبية أفراد الجماعة اليهودية بالمركرين في
العاصمة إلى القوى العلمانية والتقدمية التي أدارت الحركة مع المعاصر الحديثة
والمحافظة فاليهودي كان بلا شك رمزا هاما للقوى الحديثة، ولكنه لم يكن قط
أحد أطراف المعركة؛ إذ أنه كان جزءا من كل، والكل هو القوى الاجتماعية
المتصارعة في المجتمع الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر، والتي كانت كل
واحدة منها تحاول أن تصوغ المجتمع حسب رؤيتها وقد حوكت هذه القوى قضية
دريغوس إلى حلبة صراع فيما بينها.

في عام ١٨٩١، اكتشف جورج بيكلو، رئيس محابرات الجيش الفرنسي
والبطل الحقيقي لواقعة دريغوس، أدلة تثبت براءته من التهمة المسوبة إليه، ونشير
بأصابع الاتهام إلى شخص آخر هو الميجور استرهاري، الذي كان قد لعب دورا

هاما في سير أحداث القضية بحيث انتهت إلى الإدانة التامة للكاتبين دريموس وقد حاول بيكار إقناع المستقلين بإعادة المحاكمة، ولكنه أمر بالتزام الصمت، وقُبل إلى تونس بسبب ذلك

وقد شُت حملة إعلامية مكثفة، قادها المفكر الفرنسي اليهودي، برنارد لازار، للمطالبة بإعادة النظر في القضية؛ وكتب مقالات عدة دافع فيها بحماس عن دريموس، كما طالب رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي بإعادة النظر في القضية، لاقتناعه ببراءة دريموس. وتحت إلحاح الموقف استنجز وإصرار بيكار قُبض على الميجور إسترهازي، وحوكم ذرا للرماد في العيون، ولكنه بُرئ بسرعة، لعدم كفاية الأدلة. فكتب الروائي الفرنسي إميل زولا سلسلة مقالات تحت عنوان «إلى أنهم» هاجم فيها المحاكمين؛ وكانت النتيجة أن اتهم زولا بالهدف العنصري، وحُكم عليه بالسجن، فهرب إلى المهلتر. وبعجة برزت أحداث جديدة غيرت مجرى القضية، فقد انتشر شاهد الإثبات الأول في القضية، الكولونيل هوبيرت جوزيف هري، في أثناء استجوابه، وذلك بعد أن اعترف بترويه للموثائق التي أدت إلى إدانة دريموس. وعندما علم إسترهازي بحادث الانتحار، اعترف بحريته، وفسر إلى المهلتر. وفي صيف عام ١٨٩٩، أمرت محكمة النقض بإعادة محاكمة دريموس في ضوء الأحداث التي استجدت، ولكن تحت ضغط بعض الشخصيات ذات النفوذ في الجيش أعلن، مرة أخرى، أنه مدب. وفي هذه المرة حُكم عليه - مع مراعاة الظروف المحيطة - بالحبس عشر سنوات. كان قد قضى حبسا منها في المنفى وبعد أيام عدة، أمر الرئيس الفرنسي أميل لوبيه بالعمو عنه وقد حثه كثير من أصدقائه والمدافعين على استئناف المعركة لإثبات براءته التامة، لأن القضية قضية ميدنية تتجاوز الأشخاص، غير أن دريموس نفسه لم يكن مبدئا للأبعاد السياسية التي اتخذتها هذه القضية، فكان كل ما ينمناه، وتنساه عائلته الثرية المتدمجة، هو الإفراج عنه، سواء عن طريق العمو أو التبرئة؛ ولذا قبل قرار العفو. أما بيكار فقد أصبح بطلا قوميا، ورفاه رئيس الجمهورية إلى مرتبة بريعاير جرال، وعين فيما بعد وزيرا للحرب.

وقد أعيدت محاكمة دريفوس، مرة أخرى، في عام ١٩٠٣، بصحبة من القوى العلمانية والثورية، وصدر الحكم ببراءته، وأعيدت إليه حقوقه السابقة، وعُيِّن في هيئة الأركان، مرة أخرى، بوظيفة مأمور، وتلقى وسام شرف، ولكنه ما لبث أن ترك الخدمة وقد عُيِّن في أثناء الحرب العالمية الأولى كولوبيلاً وقائداً لأحد قطاعات باريس وقد عرفت هذه القصة الخلافات الموجودة بين مؤيدي، وحصول، النظام الجمهوري في فرنسا، ولذت إلى تقوية الاحزاب الاشتراكية، وكانت وراء القانون الذي صدر في عام ١٩٠٥، بفصل الدين عن الدولة

إن قضية دريفوس لم تكن قضية بسيطة، كما أنها لم تكن قضية يهودية فدريموس ذاته كان يهودياً ولكنه لم يكن بطل القصة، وإنما موضوعها وساحتها أما بطل القصة الحقيقي فلم يكن يهودي، كما أن القوى المتصارعة (العلمانيين ضد الدينيين) لم يكن اليهود سوى عنصر واحد من عناصرها الكثيرة، فالقضية كانت قضية خاصة بالمجتمع الفرنسي في إحدى مراحل تحولها الهامة بعد تصاعد معدلات العلمانية فيه ولا يمكن فهم القصة بالعودة إلى التاريخ اليهودي أو حتى تاريخ الجماعة اليهودية في فرنسا وإنما بالعودة إلى تاريخ فرنسا، وتاريخ أوروبا ككل.

واقعة ليوفرنك

أما الواقعة الثالثة، فهي واقعة ليوفرنك وسكتشف مرة أخرى أن يهودية ليوفرنك لم تكن هي العنصر الأساسي الذي أدى إلى إسي اصطهاده وقتله، فأهل الخبث لم يظفروا إليه باعتباره يهودياً، وإنما باعتباره رمزاً متبلوراً لمعاصر تاريخية واجتماعية وثقافية عدة، ليس لها علاقة وثيقة بيهوديته، شأنه في هذا شأن دريفوس وأهم هذه المعاصر على الإطلاق هو أن المجتمع مسرح الواقعة كان يحوض هو الآخر ثورة صناعية حقيقية متأخرة، مع كل ما يصاحب مثل هذه الانقلابات من ظروف صحية سيئة وأمراض اجتماعية عاثت في ظلها أعضاء الطبقة العاملة من البيض المحلّين، أو المهاجرين المتعلمين من جذورهم الزراعية، سواء في أوروبا أم في الجنوب.

ومن مظاهر الثورة الصناعية تركّز السكان في المدن وقد تضاعف عدد سكان مدينة أتلانتا، في ولاية جورجيا، بين عامي ١٩-١٩١٣، إذ زاد من ٨٩٨٧ سمه الى ١٧٣,٧١٣ سمه، وهو يعد أعلى معدل ارتفاع لاية مدينة اميريكية في الفترة عيها (استثناء برمجهم في ولاية الياما). وكان نمو المدينة عشوائياً فلم توجد المؤسسات اللازمة للحياة الإنسانية الكريمة، مثل مساكن الترويج، أو أماكن السكن، أو ما يكفي من المستشفيات العامة وكانت أتلانتا تعاني من أزمة مساكن، فقد كان يوجد ٨,٣,٣ مسكن لـ ٣٥,٨١٣ أسرة، ونصف المساكن لا تصله المياه، وكان حوالي ٥ ألف شخص يعيشون في مساكن لا يوجد فيها نظام للصرف وكانت نسبة ندوثة الجو عالية للغاية، وبهذا انتشرت الأمراض، مثل التيفويد وغيره، وازدحمت معدلات الوفاة ويصل إن ٩ مائة من المساحين كانوا يعانون من مرض الزهري وقد زاد فقر سكان أتلانتا بشكل رهيب (كان الطفل يتقاضى ٢٢ سنتاً نظير عمله لمدة أسبوع، وكانت ماري فيمان قد ذهبت لتتقاضى آخرها عن سبوع كامل وهو دولارا وعشرين سنتاً)

ولم يكن الجو موبوءاً من الناحية المادية فحسب، وإنما من الناحية الأخلاقية أيضاً (وهذا امر متوقع في مثل هذا المجتمع). وقد انتشرت كل أنواع الخمر، من السرقة والقتل والدعارة والسكر وكانت نسبة الجريمة في أتلانتا أعلى النسب في الولايات المتحدة الأمريكية، وتعاذل سبئها في شكاعو عاصمة الجريمة في العالم وقد قبضت الشرطة، في هام ٧ ١٩، على ١٧ ألف شخص من مجموع السكان البالغ عددهم ١٢٧,١. ومع هذا، كان جهاز الشرطة هزئاً للعاية، إذ أن مجموع عدد العاملين في قوة الشرطة كان لا يزيد على ٢ شرطيين. وكان يوجد في هذه المدينة الواحدة مركز شرطة واحد، ولذا كان كثير من المجرمين يفرّون من قبضة القانون، وقيل أنه من كل ستة جرائم قتل كانت تضبط جريمة واحدة وهي عامي ١٩١٢/١٩١٣ بالدات، كان هناك ١٢ جريمة قتل لم يتم الاهتداء الي مرتكبيها.

هذه هي بعض مظاهر الثورة الصناعية في أتلانتا. ويجب التنبية الي ان هذه الثورة كانت جزءا من عمبة غرو واسعة فالجنوب الأمريكى مسرح الواقعة كان لا يزال يشعر بمدى الهزيمة في الحرب الأهلية (١٨٦١-١٨٦٥) حين هزم الشمال الصناعي الجنوب الزراعي وأكد سلطة الحكومة الفيدرالية على حساب استقلال الولايات المختلفة وقد فقد ما يقرب من ٦ ألف شخص حياتهم إبان هذه الحرب وبعد انتصار الشمال، تم فتح الولايات الجنوبية للراسمال الشمالى، وللمحبة الشمالية انني أسست الصناعات وغرت السوق، ويرى بعض المؤرخين أن العلاقة بين الشمال والجنوب كانت علامة شبه كولونيالية، وأن ما سماه الشمالون «توحيد» الولايات المتحدة الأمريكية هو، في واقع الأمر، غزو شمالي للجنوب وهيمنة عليه وهو غزو لمجتمع زراعي، كانت تسود فيه علاقات شبه إقطاعية، توحد على قمته أرستقراطية تسيطر بمكانتها الرفيعة، وبقِيم الحوب، وبالالتزام الإقطاعي وكان مجتمع الحوب محتماً المحلوساكوبيا برونسنتياً متجانساً، لم يتوطين فيه ملايين المهاجرين، كما حدث في بقية الولايات المتحدة الاميركية، خاصة على الساحل الشرقي وكانت مؤسسة الاسره قوية للعناية في مجتمع الحوب، وتنتم بقدر كبير من التماسك وكانت المرأة هي رمز هذا التماسك الاسري، ولذا كانت محط نقديس للمجتمع وأعضاء مثل هذا المجتمع الزراعي الارستقراطي عادة ما ينظرون بكثير من الاحتقار، بل والبعض، إلى الاقتصاد النقدي، المبني على التعاقد وعلى آليات العرض والطلب.

وقد كانت شكوك أهل الحوب في محلها، إذ أنه بعد «توحيد» الشمال مع الجنوب فتح الحوب للصناعات الشمالية، التي هاجرت لتستفيد من الجمالة الرخيصة والأراضي قليلة التكاليف والأسواق البكر وهي صاعات لم تحدم كثير أ تقاليد المجتمع، وساهمت في تفكيك مسيجه المجتمعي، وفي تحطيم بية الأسرة فكان الاطفال والنساء يعملون في المصانع لساعات طويلة. وقد أدى دخول الصاعات إلى تزايد معدلات التحديث والعلمنة مكل ما يتبعها من تفكك

اجتماعي، خاصة وأن هذه الصاعات لم تظهر نتيجة تطور عضوي بطني، رأى فرصت عليه فرصاً من مجتمع اليانكي الشمالي.

كان ليوفرانك رمزاً لهذه القوة العازية، فهو رجل صناعة ومدير مصنع جاء من الشمال ليستقر في الجنوب، وهو مجتمع زراعي ينظر بعين الشك إلى الصاعدة وكان يقوم باستجار النساء والأطفال كعمالة رخيصة في مصنع كان يقدس الأسرة حتى عهد قريب وكانت تسم الإشارة إلى ماري فيعان على أنها دعاملة المصنع الصغيرة، أي أنها تحوكت إلى رمز الطفولة البريئة التي استغلها المستثمرون من الشمال. وهو كان حريصاً جامعياً وعضواً في نخبة العلمانية المهيمنة، التي لا تكثر كثيرًا بالقيم التقليدية في وسط بيئة جبرية عمالية مقلقة من بيئتها الزراعية، لأنزال تؤسس بالقيم التقليدية والمسيحية (البروتستانتية)، تحسم بالمجتمع المتحارب الذي دُمِّر إبان الحرب الأهلية ولم تكن يهودية فرانك سوى بلورة لكل هذه العاصر السابقة؛ إذ إن المعركة الحقيقية كانت بين الشمال الصناعي العازي والجنوب الزراعي الذي تم عروءه بين صحابا التقدم والصناعة، من جهة، ويمثل هذا للمجتمع الجديد الرهيب من جهة أخرى.

ولعله يكون من المعيد أن نتوقف قليلاً، عند نقطة انتماء فرانك اليهودي فقد كان يشغل منصب رئيس فرع جماعة بني بريث اليهودية في المدينة لا بد من أن يعرف كذلك، على وجه الدقة، موقف الجنوب الأميركي من اليهود. وقد حذّر الجنوب الأميركي النصارى على أساس عرقي أبيض في مقابل أسود، على عكس الشمال الذي عرفه على أساس عرقي، أو اثني ديني. بروتستانت أبيض انجلو ساكسوني في مقابل كاثوليكي أبيض من أصل إيطالي أو إيرلندي، أو كاثوليكي اسباني، أو كاثوليكي أو بروتستانت أسود؛ وكل هذا في مقابل يهودي بطبيعة الحال (وبالتالي يكون اليهودي الأسود في أسفل الدرك) ومن الواضح، أن التمييز الجنوبي لم يستبعد اليهود، وإنما صوّفهم على أنهم بيض، ثماً كما يحدث في جنوب أفريقيا وقد سمح لهم هذا التصنيف بدرجة عالية من الاندماج

واخراك الاجتماعي؛ وأصبحوا جزءاً عضويًا من المجتمع؛ وكانوا أعضاء في المحبة الحاكمة، وامتلكوا العبيد وتاجروا بهم. فلم تكن هناك مقولة مستغلة لليهودي في الوجدان الجنوبي التقليدي.

وقد أشرنا آنفاً إلى أن فرانك كان رمزاً للقوة النازية الشمالية. ويمكن أن نضيف، هنا، أنه مع التحولات التي أدخلت إلى الجنوب اكتسبت كلمة «يهودي» مدلولاً جديداً فأعضاء الجماعة اليهودية في جورجيا لم يكونوا يهود الجنوب التقليديين، وإنما كانوا وادين، عنصرًا غريباً جديداً، له طابع اثني وظيفي مميز، ويهود أثلاثا، في عام ١٩١٠، كانوا يشكلون أكبر جماعة من المهاجرين الأجانب؛ إذ بلغ عددهم ١٣٤٢ أي ٢٥ بالمئة من مجموع كل الأجانب وعلى الرغم من أن نسبتهم لم تتجاوز واحداً بالمئة من عدد السكان، إلا أنهم كانوا يشكلون جماعة وظيفية حققت بروزاً مشيناً فاليهود المهاجرون كانوا يمثلون معظم الحانات ومحلات الرهونات وسوت الدعارة (وهذا جزء من ميراثهم الاقتصادي الأوروبي). وكان زبائنهم، أساساً، من الفرنج. وقيل أن بيوت الدعارة التي امتلكها اليهود، كانت تزدهر صور ساء بيض تثير شهوة الزوج، الذين كانوا يحتسون الخمر في الحانات اليهودية «ويطلقون بعدد كالحوش»، وهذه صورة إدراكية عنصرية؛ ولكنها، مع هذا، ربطت الجرائم الجنسية في ذهن سكان أثلاثا باليهود. وكان فرانك، نفسه، مشهوراً بمحاولة التعاملات وملاحقتهم. وغيل أنه ماري فيعان، بعثها، شكت إلى صديقاتها من محاولات فرانك الإباحية. وقد تكون هذه الاتهامات باطلة تماماً؛ قد يكون سلوك فرانك «الإباحي» ليس سوى سلوك أي شخص من مجتمع حضري مفتوح يتصرف بحرية زائدة في مجتمع معلق أو قبحه مملقة، فنصر كل حركاته بشكل مبالغ فيه، قد يكون هذا هو الوضع، ولكن اللهم إدراك الناس له، ولسلوكه، خاصة وأن اشتغال اليهود بالمهن المشينة عزز هذا الإدراك.

إلى جانب كل هذه الخلفية الاجتماعية، والتاريخية، والثقافية، لَمَّة جانب إحصائي هام، فالدراسات الصهيونية لا تكف عن الإشارة إلى قضية غرانك، وإلى الظلم الذي حاق به، نتيجة احتطافه من السجن وشقيقه، بعد أن خُفَّ الحاكم الحاكم عليه. ولكن هذه الدراسات لا تذكر هذه الحقائق

١- إن احترام القانون لم يكن سمة سائدة في المجتمع فعلى سبيل المثال، خُذت الشرطة، ذات مرة، إلى القبض على كبل الذكور القادرين، لأن أتلانكا كانت تعاني من نقص في العمالة. كما أنه من المعروف أنه في عام ١٩٠٩، أنهت الشرطة بصرب أحد الروح صرباً أنضى به إلى الموت، وأنهم قوما بتصيد امرأة يفضاء إلى الحائط حتى ذهقت وروحها.

٢- اندلعت في عام ١٩٠٦، اضطرابات بين السكان البيض، الذين هاجموا حي السود لعدة أيام واشبكوا معهم، فقتلوا عشرة زوج وجرحوا ستين (ببما قُتل من بينهم رجلان وجرح عشرة). واضطرت المدينة إلى استدعاء الحرس الوطني، وقبل أن الاضطرابات اندلعت نتجة تقارير مثيرة نشرت في الصحف عن هجوم السود على النساء البيضاء.

٣- كانت المدينة محتاجة إلى مزيد من الأيدي العاملة، وبالتالي إلى مزيد من المهاجرين، ولكن كلما زاد عدد المهاجرين كانت تزداد نسبة عصب السكان المحليين المتنعين. وفي عام ١٨٩١، تم احتطاف، وشق، أحد عشر مهاجراً إيطالياً، وفي عام ١٨٩٩، احتطاف خمسة آخرون. وفي عام ١٩٠٩، احتوى ثلاثة آخرون تحت ظروف قاسية.

٤- شهدت الفترة من ١٨٨٩ إلى ١٩١٨ ما مجموعه ٢٥ حالة لبشيج أخرى (اختطاف مساجين وشقهم ضد سلطة القانون)، وكان معظم ضحايا الاختطاف من السود، كما تم اختطاف ثلث من أعضاء الأقليات الأخرى. ولكن لم يكن هناك سوى حالة واحدة سقط احتطاف فيها يهودي، وشق.

وهي حالة ليومرانت وهكذا تحوّل الاستثناء إلى قاعدة، وتحوّل الخاص إلى عام، وتحولّب الواقعة العابرة إلى رسر عملي مركزي! وقد صدر عمو عن فرانك في عام ١٩٨٦ ويرى اسمه.

بين حشد الحقائق ومعرفة الحقيقة

فيما سبق، لم نحاول أن نفرص معي محدداً على الحقائق بدلاً من المعنى الصهيوني المعصري اللاتسائي، وإنما وصفاها في سياقها التاريخي الاجتماعي الإنساني العريض، فظهر ممهاا الإنساني الكاس وحده، وتُكشّف لنا أن الضحايا اليهود لم يفظوا بسبب يهوديتهم المطلقة ولسبب غير مفهوم أو مثافيريقي، وإنما سقطوا نتيجة لمرتب من الأسباب الاجتماعية التاريخية للمهومة، وأن يهوديتهم لم تكن سوى عنصر واحد ضمن عناصر كثيرة، بل لم تكن يهوديتهم ذاتها سوى بلورة لعناصر أكثر عمفاً إذ لا يظهر اليهودي كيهودي، وإنما كعراق (تهمة الدم) أو كالأرسي أو عميل ألماني أو أجبي (دريغوس) أو شمالي علماني جامعي صاحب مصع (ليومرانت)؛ وأن الهجوم الذي كان يتم على اليهود ليس مقصوداً عليهم، وإنما هو هجوم موجّه ضد كل القوى المائلة في المجتمع

وقد ذكرنا كل هذا لا من قبيل تبرير الهجوم على اليهود، أو غيرهم من أعضاء الأقليات؛ فهذا مما لا يسمح به الإسلام (على عكس ما قد يتصوره البعض، وعلى عكس ما يشاع) ولا يمكن تسريه، وإنما ذكرناه من قبيل محاولة فهم الوقائع واستخلاص ممهاا الحقيقى. ويلاحظ أن بهذه الطريقة تسقط عن اليهودي عجاتيته وإعجازه وهراته (التي يصرّ عليها الصهاينة والمعادون لليهود)، وتستبد له إنسانيته. وإذا ما أدركت المعصري الإنساني الكاس في واقعة ما، ويكون الحر من أجل الضحية حزناً إنسانياً لا يؤلف في ختمة عقيدة عنصرية استيطانية؛ إذ أنه إذا سقط اليهودي (شأنه شأن أعضاء الأقليات والجماعات الأخرى) صحبة العنف في مجتمعه، يصبح الحل هو أن ينضم إلى الجماعات التي تدافع عن حقوق الإنسان (من أعضاء الأقليات الأخرى وأعضاء الأغلبية)، وأن يحصل من أجل حقوقه

داخل مجتمعه . وتصيح الفضيحة هي كيف مدافع عن حقوق اليهود اسياسية
والمدنية، والدينية (وحقوق هيرهم من الاقليات) داخل وطنهم، لا ان مطالب
تهجيرهم (أو خروجهم) كما يفعل المتصليون من الصهاينة وأعداء اليهود

وثمة قصة أخرى تتجاوز اليهود والصهاينة والمعادين لليهود؛ إذ أنها قصة
مزعجة ذات طابع نظري، وهي علاقة الحقيقة بالحقائق. فمن كثيراً ما نتصور أن
الحقائق هي الحقيقة. ولذا، فنحن نحاول أن نكون موضوعيين في رصد الحقائق؛
ولكن الحقائق التي أتي بها الصهاينة كانت، كلها، حقائق موضوعية، ووقائع
ثابتة، حدثت تحت سمع الناس وبصرهم.

فالصهاينة، في أغلب الأحوال، لا يختلفون الحقائق، وإنما يجتزئونها وحسب،
ومن خلال اجتزائها وبرعها من سياقها يفرصون عليها المعنى الذي يريدون. وحيث
أنه من المستحيل أن يرصد الإنسان كل الوقائع الخاصة بحدث ما، يصبح الاختيار
مسألة حتمية، ويصبح أساس اختيار حقائق، لا الحقائق ذاتها، هو ما يشكل مدى
صدقها من زيفها، فالصدق والكذب لبا كامين في الحقائق الموضوعية ذاتها (هل
هي صادقة أم كاذبة؟)، وإنما في طريقة تناولها، وهي القرار الخاص بما يُضم،
وبستعد، وما. ومن هنا قلبي أن الحقائق شيء والحقيقة شيء آخر (والحق شيء
ثالث). فالحقائق شيء ماديّ صرف يوجد في الواقع على هيئة تفاصيل متناثرة؛ أما
الحققة فهي لا توجد في الواقع، وإنما يقوم العقل بتجريدتها واستخلاصها بعمليات
عقلية، حتى يصل إلى هذه المفكرة الكلية التي تقسّر أكبر قدر ممكن من الحقائق
المتناثرة (أما الحق، فهو يتمي إلى عالم المثل والإيمان، وهو يشكل المنظور
الأخلاقي المعلق الذي يحاكم الإنسان مه كلاً من الحقائق المادية والحقيقة الفكرية
المغلقة).

٢ = الصهيونية والرومانسية

إعادة التفكير في طرق التفكير

من أهم الطرق لفهم الآخر هو التوصل إلى رؤيته للكون وإلى مفهومه للإنسان (نموذجه انعمري). والإدراك الصهيوسي للكون هو إدراك روماسي (بالعنى المحدد الذي سموصحه فيما بعد). وفي هذا القسم لن نكتفي بوصف الرؤية الصهيونية للكون وإنما سنحاول كذلك ان بين بعض الخطوات التي اتبعها في عملية تمكيك الإدراك الصهيوني وما سمبه التحليل النماذجي أو تحليل الواقع من خلال استخدام نماذج معرفية ، أي أننا ستحرك في هذا القسم على مستويين: مستوى المضمون (علاقة الصهيونية بالرومانسية) ومستوى المنهج (كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه من أفكار).

الصهيونية والرومانسية

تعريف الرومانسية أمر صعب للغاية ولكنه ليس مستحيلًا ، فهو اصطلاح شامل لعدد كبير من الاتجاهات، تتباين في أوقاتها وأماكنها ودعائها. وحيث أن تعريف الرومانسية بشكل جامع مانع قد لا يقيدها كثيرا، فلنحاول أن نقدم هذا المفهوم الفلسفي من طريق حصر بعض السمات الرئيسية (التي نهتمنا في المقارنة التي سنعقدها بين الصهيونية والرومانسية) ، وهذه السمات هي في واقع الامر شيئ واحد ولكننا قسمناه إلى عناصر مختلفة كضرورة تحليلية.

كانت الرومانسية ثورة ضد النعمة والمادية وكل الاتجاهات الميكانيكية انني نحول أن ترد ظاهرة الإنسان إلى شيء خارج عنه- نرده إلى الاقتصاد، أو إلى هذا المنصر المادي أو ذلك. ولذا حاول الرومانسيون أن يبحثوا عن حقيقة بسيطة كائنة وراء الأشياء- حقيقة ثابتة وراء التغير، حقيقة مطلقة تتجاوز السطح. ومن هنا لم يعد العالم المادي نالسة لهم شيئاً ميثاً، خاصصاً لقوانين الميكانيكا، وإنما شيء حتى يبعث

بالحياة تسرى فيه الروح يصلح كعلامة وكشاهد على وجود المطلق الذي كان يقاربه
بعض الرومانسيين بالله عز وجل إن الرومانسية أعادت الحقيقة والحياة للأشياء

ولكن كيف يتأتى لنا أن نصل إلى هذا المطلق؟ عالم الحواس عالم معمل،
ولابد من طريقة جديدة للإدراك، ومن هنا كانت أهمية الخيال، والخيال وحده هو
الذي يمتكّن الإنسان من تجاوز عالم المادة ليصل إلى المطلق. والخيال لا يتدع صوراً
حسية لا علاقة لها بالواقع، وإنما يساعد الإنسان على تحطيم المعطيات الحسية بأن
يتحت صوراً دالة، نعيد صياغة الواقع وعلاقاته، بحيث نجد جوهر هذا الواقع

ولكن كيف يمكن للخيال أن يلعب دوره هذا؟ يجيب الرومانسيون على هذا بأن
العاطفة هي التي يمكنها أن تفعل ذلك، فالإنسان في حالته العادية، وفي حياته
اليومية، لا يستحدم سوى حواسه وعقله (بالعلمي الضيق للكلمة)، أما إذا جاشت
عواطفه فإنها ترهف حواسه وتمسّق إدراكه بحيث يتجاوز السطح ليصل إلى
الاعماق والمطلق وإلى جوهر الأشياء إن العاطفة تهدم حدود الحواس والأشياء،
ولذا فالصور الشعرية أحياناً تسم بوحدة داخلية عضوية مختلفة تمام الاختلاف
عن الوحدة الخارجية (المطابقة) التي تسم بها الأشياء العادية؛ فالأولى مستقاة من
منطق الروح الحمي والثانية مستقاة من منطق الأشياء الميتة

الإنسان الرومانسي الذي يتجاوز السطح ويدرك الجوهر من طريق الخيال الذي
تستحده العاطفة، إنسان حردي متصرد- حردي لأن العاطفة على عكس العمل لا
تخضع لقانون، ولذا فسم يعبر عن عاطفته إنما يعبر عن ذاته، ومن يعبر عن ذاته
فهو يعبر عن حرادته التي لا يشاركه فيها إنس ولا جان.

ويمكن تلخيص الموقف الرومانسي بأنه موقف يؤمن بمقدرة عقل الإنسان (بالعلمي
الواسع للكلمة الذي لا يستبعد العاطفة) على الإدراك المبدع للعالم وعلى صياغته
وتشكيكه. ويمكن تفسير كل الموضوعات الرومانسية الأخرى في هذا الإطار،
فالعودة للطبيعة وللمعاصي هي عودة لعالم سهل العثور فيه على المطلق وعنى

الثات، عالم ينسم بالوحدة العنصرية الداخلية، يمكن للخيال أن يخلق فيه، ويمكن للعقل الخلاق أن يطلق نفسه فيه الممان.

ومن الهام أن سفر في هذا السياق أن الرومانسية كانت هي الرؤية العلمية المائدة في أوروبا منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين بل ويؤم كثير من مؤرخي الأفكار أن الفكر الأوروبي الحديث، رغم ثورته على الرومانسية، فكر في صميمه روماني. وقد ظهرت الصهيونية كنكر سياسي في منتصف القرن التاسع عشر، وتبلورت في العقدين الأخيرين منه، وعُقد المؤتمر الصهيوني الأول في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، أي أنها ظهرت في وقت ساد فيه الفكر الروماني في العالم الغربي، والمغرب (وليس العالم كله) هو الذي أمرر الصهيونية وهو الذي أرسل يهوده لنا.

وإن نظرنا إلى الصهيونية لوجدنا أن النموذج المغربي الكاس وراءها يحمل كثيراً من سمات وملامح الرومانسية، ولأخذ السمة الأولى، أي اسحت عن مطلق يتجاوز السطح الفكر الصهيوني يدور حول مطلقات ثابتة غير خاضعة للتغير مثل الشعب اليهودي المختار وحقوق الشعب اليهودي والأرض اليهودية المقدسة، هذه كلها مطلقات تتجاوز التاريخ وسطحه وحدوده ومصدر إطلاقها كلها هي أنها يهودية- أي أن المطلق الذي لا يتغير هو اليهود واليهودية. أحاول أن أبين في دراساتي عن الصهيونية ما سميت بتناحل السبي والمطلق في كل الظواهر الصهيونية (الخلوية أو الكمونية الصهيونية)، بحيث تصبح كل الأسماء مطلقة بما هي ذلك أتمه التماسيل - الدولة - اليهودية - علم إسرائيل - نجمة داود - حميطة النصوص الإسرائيلية. ولننظرنا إلى المصطلح الباسي الصهيوني والذي موقف الصهاينة من صم الأراضي - لا يمكن التعريط في هذا الشبر لأن اليهود لهم علاقة خاصة به، ولا يمكن التنازل عن قطعة الأرض تلك لأنها مقدسة. والحدود الآمنة هي هي الواقع الحدود المقدسة أو الحدود المطلقة، أي الحدود اليهودية. ويجب أن نشير هنا إلى أن الصهاينة نظرا لأن معظمهم ملاحدة يحول المطلق عندهم إلى امر

ذاتي - فالطلق هو ما يشامرون، أما بالنسبة للأقلية الصهيونية التي تدعي الانتماء لليهودية فتمت مساواة حلولية في وجدانهم بين المطلق و الشعب اليهودي، ولذا فتمت مساواة بين الاله والشعب اليهودي، وهذا هو أساس فلسفة مارتس بوبر الحوارية، وبالتالي فالطلق هو أيضا ما يشاء أعضاء هذا الشعب

والمعكر الصهيوني فكر لاعتقالي يعود للمعاطفة ويرفض الفكر العقلاي لامتاري- الذي كان يدعو لاندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها والذي كان ينظر الي اليهود باعتبارهم أقلية ديسية أو إثنية ، مثل أية أقلية أخرى نعانى من الاضطهاد ولكنها يمكنها أن تحصل على حقوقها عن طريق الكفاح من أجل تحقيق مزيد من العدالة الاجتماعية.

أما من حيث المرادة والفردة فهنا موضوع أساسي في الفكر الصهيوني، وهو ولا شك مرتبط بمكره المطلق. فالطلق الصهيوني الذاتي، يريد مقصور على الصهاينة وهم يتحدثون دائما عن التجربة التاريخية اليهودية باعتبارها تجربة فريدة لا يمكن أن يشارك فيها غير اليهودي، بل ولا يمكن أن يشاركها غيرهم ومن مظاهر فردة التاريخ اليهودي أنه لا يمكن أن يستمر في مساره الحقيقي خارج فلسطين - ولذا لايد من العودة إلى هذا المطلق ويسمر بعض الصهاينة معاداة اليهود واليهودية على أنها رد فعل لعراة اليهود (المتأفريقية أو الاجتماعية) لأن الكيان اليهودي الجديد يثير حفيظة الآخرين من الأعبار، ولذا يجب أن يكون لليهود دولتهم الفريدة التي يمارسون فيها فرائدهم بشكل فريد

والعقل اليهودي اخلاق، القادر على إعادة صياغة الواقع أمر يصير عليه المعكر الصهيوني واعتدائياته. والحديث عن الصحراء التي اقتصرت والمستنقعات التي جففت هو حديث من هذا العقل.

وفكرة العمل العسري، وهي فكرة محورية في الفكر الصهيوني، هي فكرة رومانسية حتى السحاح- إذ نعت هذا الشعار يُطلب من اليهودي أن يعود إلى أحضان الطبيعة في بلاده الأصلية، فيعيش بساطة ويعمل بيديه وهو حين يعمل

بيديه (همللا عبريا) فإنه سيمعيد صياغة أرضه، ومسى هذه العملية سيولد الإنسان العبري الجديد (الذي لا يحتلف عن الإنسان الطبيعي الذي بشر به الرومانيون منذ روسو حتي الآن) والفكر الصهيوني، شأنه في هذا شأن الفكر الأوروبي منذ نهاية القرن التاسع عشر، فكر عضوي، يصر على أن العلاقات بين الأشياء علاقة عضوية ، والرابطة بين اليهودي وأرض الميعاد رابطة عضوية لا تنقسم عراها

وفكرة الطبيعة التي تمور بالحياة والحياة التي تنسم بالدينامية والعقل المبدع الذي يطمس معالم الأشياء وحدودها ليبرز جوهرها فكرة أساسية في الفكر الصهيوني الذي وسمته في دراسة أخرى بأنه فكر صيرورة مطلقة يشبه في هذا الفكر الفربي الحديث، خاصة في عصر ما بعد الحداثة.

والفكر الصهيوني، في نهاية الأمر، فكر يتشوى، وفي تصوري أن يتشه من أهم القلاسة العربيين في العصر الحديث إن لم يكن لهمهم على الإطلاق، فهو ليلسوف الإمبريالية والنارويسية الأكبر . ويمكن أن يرى خطأ واضحاً يمتد من مكيا فيللى عبر الملاسفة الماديين والنفعيين إلى أن نصل إلى نيتشه الذي عرف معروفته العلمية- النتيجة الخنمية للعلسة المادية، بل وعرفها على أنها أغنية الروح الوحيدة . والصهيوية تؤمن لا بالرجل المستفوق وإنما بالآلة المتفوقة، وبكل القيم الفارونية من احتقار للمضييلة إلى تمجيد للقوة. وأجد الصهيوية، مثل الشيوعية، أصدق مثل على ماسميته دين دون إله من إيمان بحقيقة مطلقة دون أخلاقيات، وبمطلق القوة، وبالتسامي فوق كل الحدود، أي أن تصبح الذات هي المطلق الوحيد (نوش الذات، كما سماها العقاد رحمه الله).

هذه هي بعض مواطن التماثل في بنية الفكرين الصهيوني والروماني. ويمكننا أن نحلص إلى بعض النتائج، بعضها ذات طابع منهجي، ينصب على طريقة التفكير وكيفيه استخلاص النتائج من المقدمات، والبعض الآخر ذو طابع مضموني، أي يزودنا بمضامين فكرية جديفة.

النتائج المضمونية

ولذا فالامر الأيسر، أي النتائج المضمونية التي يمكن أن نتوصل لها بخصوص الصهيونية، والتي نوجزها فيما يلي:

١- الباقى الأساسى للحركة الصهيونية هو الحصار العربى في القرن التاسع عشر والنشكيل الإمبريالي العربى (والرومانسة كانت أحد رواد هذه الحصاره وكانت الفكر المهيمن آنذاك) أما الدين اليهودي فهو - في تصوري- لم يكن سوى مصدر لشكل الصهيونية اليهودي أو ديساجاتها واعتدرياتها، وأما مايسمى بتاريخ اليهود فهو أمر لا وجود له إلا في الكتب الصهيونية والمعادية لليهود واليهودية - أو في كتابات بعض العرب الذين يرددون المعاهيم العربيه دون فحص أو تدقيق ولعل أكر دليل على أن الصهيونية ظاهرة عربية استعمارية، وليست ظاهرة يهودية عالمية أنها لم تنشأ في صفوف اليهود العرب أو يهود إثيوب (على سبيل المثال)، كما أنها لم تنشأ في صفوف يهود الغرب إلا في القرن التاسع عشر، عصر الرومانسة والإمبريالية والتوسع

٢- لا يختلف النموذج الكامل وراء الصهيونية كثيراً عن النموذج الكامل وراء معاداة اليهودية فكلاهما يرى اليهودي على أنه شخص فريد هامشي، ينتمي للشعب اليهودي وللتاريخ اليهودي، ولذا لا يمكنه أن يدين بالولاء للشعب الذي يعيش فيه أو للأمة التي ينتمي إليها، وهو لكل هذا شخصية محزنة مدمرة ولابد من إنهاء هذا الوضع الشاذ عن طريق تصفية الوجود اليهودي في النصف، أي في العالم بأسره والمتعلق الصهيوني والمعادي لليهود متطابقان تمام التطابق. قد يختلف المريقان في طريقه تنفيذ البرنامج، ولكنهما مع هذا لم يحكما خط عن التعاون الواحد مع الآخر ولذا فالتاريخ الصهيونية هو أيضا تاريخ لحالفا القيادات الصهيونية مع أعداء اليهود في كل مكان ولذا فالعرب الذين يشعرون أنهمم بترجمة البروتوكولات والحديث عن الأسمى اليهودية وأحتها الحية الصهيونية يعدمون المخطط الصهيوني من حيث لا يدرون

ولعل المقارنة التي عقدناها بين الصهيونية ومعاداة اليهود واليهودية هي مثال بطيفي لما سميت بالتحليل المادجي هي مقابل التحليل المضمومي، إذ أنه من زاوية المضمون المباشر تقع معاداة اليهود على طرف النقيض من الصهيونية، باعتبار أن الأولى تعادي اليهود أيمسا كانوا، فيما تدافع الثانية عن اليهود أيمسا كانوا ولكن التحليل المادجي أعمق (للتصومص والطواهر) الذي يصل إلى العلاقات الكامنة بين التماثل الذي لم يبيته التحليل المضمومي المباشر

وحتى لا يساء فهم بعض الأفكار التي وردت في هذا الحديث أحب أن أضيف أن الأسطورة الصهيونية، بكل رومانيتها، قُدر لها الاستمرار والانتشار سبب التمويل العربي للكيان الصهيوني، فقد يسر هذا للصهاينة الاستمرار في أحلامهم الوردية المطلقة، وفي تركيزهم على الثابت دون المتغير فالإنسان لا يصل إلى نوع من العقلانية وإلى شيء من التوازن بين الحلم والواقع إلا من خلال الممارسة التي ينفخ أثناءها ثمس أحطائه وشطحاته. أما بالنسبة للصهاينة، شمة قوى خارجية هي التي تسد عوائير أحطائهم وأرواحهم، ولذا فهم يستمررون في ترديد شعاراتهم العاشية ويتحدثون عن حدودهم المقدمة الأمانة وي طرحون برامجهم السياسية المطلقة التي تعود جذورها إلى ما هي صحيح لم يبق منه سوى بعض الآثار والاطلال.

وفي النهاية أرجو ألا يفهم من دراستي هذه مايلي

- ١- أنني عرت الرومانسية بالصهيونية وعادلت بينهما
- ٢- أنني ذكرت أن الرومانسية قد تسميت، بشكل أو آخر، في ظهور الصهيونية
- ٣- أنني قلت أن الرومانسية تشبه الصهيونية
- ٤- أو أنني قلت إننا يجب أن نقل الصهيونية لأنها رومانسية، أو سردص الرومانسية لأنها معتزلة بالصهيونية

كل ماقلته هو أنني من خلال تحليل نمادجي متعمق (تضمن التصور الأدبي والوثائق التاريخية والفلسفية والاجتماعية وحركة التوزيع نفسها) توصلنا إلى أنه ثمة تماثل بين سية الصهيونية وبين الرومانسية أو إلى أن سية الصهيونية ورومانسية وهو تماثل متوقع باعتبار أن الرومانسية كانت تشكل أهم عناصر السياق العام للمعكر العربي في القرن التاسع عشر.

بعد هذا التصنيف والتوصيف لكل من الرومانسية والصهيونية يجب ألا نفتح بهذا المستوى، وإنما ينبغي كمسلمين وكعرب أن نصدر أحكاماً أخلاقية قيمة، وإن لم نعمل نكون كجماد ينظر إلى جماد أما الرومانسية فأنا من المعجيين بكثير من جوانبها، وأعتقد أنها كسقي فلسفي وكطريقة للإدراك نحلل التوجه المطلوب نحو الرؤية الإنمائية، وذلك على عكس الفلسفة النقية العقلانية التي تحلق التوجه نحو العلمانية العلمانية والمادية. إن الرومانسية هي المرحلة التي يحددها الإنسان الذي يؤمن بفلاس الحواس وبمثل الأمر الواقع هي إشباع جوعه الروحي .

ولتلاحظوا ما أقول -لا الرومانسية تؤدي إلى التدنيس ولا العقلانية تؤدي إلى العلمانية والمادية -هناك ماديون ورومانسيون (مثل الباربي والماركسيين) وهناك متدينون عقليون مثل المعتزلة وكثير من المعكرين المسيحيين في القرن الثامن عشر كل ما أقوله أنه ثمة ترابط اختياري أو علاقة قريبة بين الرومانسية والتدين

بعض الملاحظات المنهجية

يمكننا الآن أن نذكر بعض الملاحظات المنهجية التي يمكننا استخلاصها من عملية التنكيك والتركيب التي قمنا بها:

١- يجب أن نعزل ويحدده، على مستوى التحليل، بين الوصف والتقييم، فالوصف يتطلب نوعاً من التجرد من القيم ورفضاً لمحاكمة الأشياء والظواهر من أي منظور أخلاقي أو فلسفي، كما يتطلب الرؤية الدقيقة التي نحاول أن تصل إلى القوانين الخاصة التي تتحكم في الشئ والتي نطلق عليها منطق

الظاهرة. فإن وصفت الصهيونية بالرومانسية فهذا لا يعني رفضاً أو قبولاً للصهيونية، كما لا يتضمن حكماً قيمياً على الرومانسية

٢- الوصف المتمكن والتصنيف الدقيق والتحليل السادجي يجب أن يتجاوز المضمون الواضح والمباشر ليصل إلى نية الفكر وعمودجه المعرفي الكاس والمودج المعرفي يتجاوز المضمون بل والشكل بالمعنى السطحي ليصل إلى العلاقات الأساسية التي تربط بين العناصر المختلفة المكونة للظاهرة - وهذا مختلف تماماً عن تصور دعاة البيوية لفكرة المودج، فهم يتبنون أساساً نماذج لعوية أو أنثروبولوجية أو رياضية عامة ومجردة يرصدون وجودها في كل الظواهر في كل زمان ومكان بعض النظر عن خصوصيتها وتفردها، ولذلك فالبيوية تنكر التفرع والزمان لأن تجريديتها تجعلها تصل إلى بيايا ثابتة جامدة شبه مطلقة أما رؤيتنا نحن للنموذج فأكثر تركيبية وإسنادية، فالنموذج ليس له وجود إمبريقي ومع هذا فإن الباحث يقوم بتجريده من خلال قراءته المتعمقة لخصوص وظواهر مثمالة مختلفة محاولاً الوصول إلي ما هو عام وخاص فيها وكيف يتقاطعان ولذلك فهو يتجاوز النصوص والظواهر إلى حد ما، ولكنه لا يصل إلى مستوى عال من التجريد بحيث يفقد الصلة بخصوصية النصوص والظواهر. موصح الدراسة أو باللفظة التاريخية التي توجد فيها. بل إن التاريخ أو السعد الزمني يشكل أحد عناصر النموذج الأساسية الذي يتحده كثيراً من خصوصيته وتفرده. والنموذج المعرفي التحليلي في نهاية الأمر يمكن احتواؤه مقدوره التصيرية بالعودة للظواهر والنصوص التي تم تجريده منها وكلمة «نموذج» كما استخدمها هي قريبة في معناها من كلمة Theme الإنجليزية وهي تعني الفكرة المجردة والمحورية في عمل أدبي ما والتي تتجاوز العمل ولكنها مع هذا كانت فيه وفي كل أجزائه، تمحه وحدته الأساسية وتربط بين عناصره المختلفة. كما أن الكلمة قريبة في معناها من مصطلح «النمط المثالي» Ideal Type الذي استخدمه ماكس فيبر كأداة تحليلية. والنمط المثالي ليس

حقيقة إمبريقية أو قانوناً علمياً، وإنما هو أداة تحليلية تهدف إلى هرس بعض جوانب الواقع وإبرازها حتى يتسنى إدراكها بوضوح، ومعرفة أثرها على الواقع. ومظم المظاهر التي تفكر فيها ليست حقائق إمبريقية، «فالرأسمالية اليابانية» و«الحضارة العربية» و«التمعية» و«المشهور العدري للحب» ليست أشياء مادية محددة، ولا عكس فهمها عن طريق القرائن والاستشهاديات، وإي يمكن للمرء أن يبحث نموذجاً افتراضياً للحضارة العربية الحديثة يكون بمثابة استعارة أو صورة مصغرة تحوي في داخلها بنية تشكل سبب الواقع. ولذا فمثل هذا النموذج قادر على تفسير هذا الواقع أو تفسير جزئياته الكثيرة لا كمضامين متناثرة وإنما كبنية متكاملة متداخلة ومجموعة من العلاقات الحية

٣ - وفي تصوري أن إحدى مشاكل الفكر العربي أنه لا يزال نكراً مضموباً أي يتعامل مع المضامين المباشرة ولا يصل إلى العلاقات المجردة الكامنة، أو إلى السامح المعرفية كما عرفتُها وبغرب مثلاً عملياً على ما سنقول بالإشارة إلى حديثين شريفيين

أ - قال رسول الله ﷺ «عذبت امرأة في هرة، حينها حتى ماتت، فدخلت فيها النار» فلا هي أطعمتها وسقنها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

ب - قال رسول الله ﷺ «بين رجل يمشي فاشتد عليه العطش مرل برأ فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملا حقه ثم أسكه بهيه، عسى الكلب فشكر لله له، فمعه له قالوا يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال في كل ذات كد رطبه أجر» (أي كل حي من الحيوان والطيور وحيوهم).

لو نظرنا إلى هذين الحديثين الشريفين من منظور المصمون المباشر لقلنا إنهما يفكان عسى طرفي التقيص، الحديث الشريف الأول عن القنطط والساء وجههم

والثاني من الرجال والكلاب والحيه ، وإذا نظرت إليهما عنقار سبوي (المعنى العربي الشائع الآن) جردتهما إلى بنية لغوية ولقنت إنا ثمة تعارضات ثالثة (المرأة ضد الرجل، قطه ضد الكلب، الخروع ضد العطش ، وزيادة الخروع ضد السقي، والحية ضد جهنم) ولعلنا - على سبيل المثال- إن العلاقة بين العناصر المختلفة في الحديثين الشريفين تشبه علاقة الفاعل بالمفعول

واعتقد أنه لا التحليل المضمومي الأول، الذي يكتفي بالمضمون المباشر (لواصح، ولا التحليل السبوي الثاني، الذي يجرد الحديث من أي مضمون ويحوّله إلى بنية لغوية مجردة أو بنية فلسفية طريقة حالية من المضمون - لا هذا ولا ذلك يعني بالعرض، وبمكسأ أن نقول إن التحليل التبادلي، بالمعنى الذي أطرحه للكلمة، لم يقوم بتحليل الحديثين للوصول إلى نماذج لغوية أو أنثروبولوجية عامة، وإنما سيجرد منهما نماذج معرفية تؤكد العام والخاص، وتتجرك من المضمون الخاص إلى البنية العامة المجردة دون أن تسي خصوصية الحديثين وبمكسأ أن سرى الحديث في هذا الضوء على أنهما يحاولان تحديد علاقة الرجل والمرأة بالقطه والكلب، أي علاقة الإنسان بالحيوان، بل والإنسان بالطبيعة ويمكننا القول أنها في جوهرها علاقة توازن مع الطبيعة (عُذبت المرأة في هرة) (بلغ هذا مثل الذي بلغ سي) (في كل دات كبد وطية أجرة) ولكنه توازن لا ينطوي على مساواة بين الإنسان والطبيعة (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا)، وإنما نقتصر نمير الإنسان وتفرده ومسئوليته. هي الحديثين الشريفين الفاعل هو الإنسان (رجل أو امرأة) والمتلقي هو الحيوان (قطه أو كلب) والثواب والعقاب من نصيب الفاعل المسئول وإن تمتع لوجدنا أن بنية الحديثين تتفق مع ההج الإسلامي في التصكير ومع السبأ الكأمة هي القرآن الكريم والحديث الشريف ومع السمودج المعرفي الإسلامي وبسبه الإسلام الفلسفية ككل

٤- ينتم التفكير المضمومي أنه لصيق بالواقع لا يحاول تجاوزه، ولذلك كما يبا
نجد أن النظم التصنيفية ذات الطابع المضمومي ليست حيدة ولا مميّدة فالتفكير
المضمومي يبدأ عادة من الشواهد الملموسة والقرائن الجبرية- أي من مكونات أو
عناصر المضمون المختلفة، ولذا فهو يظل حسم هذا المضمون وحيس الأجزاء،
لا يمكنه أن يصل إلى الكل إلا بصحوة بالغة وحين يصل إلى هناك يصعب
عليه أن يربط بين هذا الكل وكميات أكثر تجريداً لأن عبوه مستقرة دائماً على
الشواهد والقرائن والاستشهادات الجزئية المتأثرة بالملموسة فالتفكير
المضمومي فيحدث ولا يخلق (على حد قول جمال حمدان) ولا يمكن أن يصل
إلى الكميات ولذلك فمثل هذا التفكير لا يمكنه أن يأتي بأطروحات جديدة
خلاقة، ويمثل حجرة عثرة في طريق الإبداع، فالإبداع هو أساساً اكتشاف
علاقات جديدة بين الأشياء. بل إن الهوية الحقيقية لأي شئ لا توجد فيه في
حد ذاته أو في عناصره المختلفة وإنما توجد داخل شبكة مركبة من العلاقات بين
هذه العناصر.

ولتحليل عالماً إسلامياً يتعامل مع الأحاديث الشريفة من منظور المضمون وحسب
لا شك أنه سيفشل في ربطها مع المفاهيم الكلية الإسلامية الأخرى. هذا على
عكس عالم إسلامي على قدر كبير من الخيال والثافة والإطلاع والمعرفة بالتراث
الديني، كمنصوص وممارسات عبر التاريخ الإسلامي قادر على تجريد النماذج
المعرفية الكاملة فيها، وعلى تجريد النموذج المعرفي الكامن في التحليلين سيكون
بوسع هذا العالم أن يأخذ النموذج الذي جردناه بخصوص التصور الإسلامي
لعلاقة الإنسان بالطبيعة، باعتبارها علاقة اتصال واتصال، علاقة امتخلاف وليس
علاقة هيمنة على الطبيعة أو ادعاء لها. وسيكون بوسع أن يريد هذا النموذج
كثافة بالعودة لبعض ممارسات الصحابة- رضي الله عنهم وممارسات بعض المسلمين
في أندوسيا - على سبيل المثال- وممارسات المسلمين في العصر العباسي. ويمكنه
أن يربط هذا النموذج المعرفي التحليلي بالموقف الإسلامي من الذبح الشرعي

وقوانين الطعام، بل وبمكسه أن يربط هذا النموذج بمكرة السنة القمرية الإسلامية (التي تحالف فصول الطبيعة بحيث يأتي رمضان في الصيف أحياناً وفي الشتاء أحياناً أخرى) وبمكرة التقويم الإسلامي الذي يبدأ بالهجرة وليس بميلاد الرسول - باعتبار أن الهجرة عمل يقوم به فاعل بوحى من الخالق - عمل إنساني واعي، وليس عمل طبيعي مثل الميلاد.

٥ - ومن خلال النماذج المعرفية يمكن أن تقوم بعمليات ذهنية فنقول: إن كان كلنا فسر الممكن أن يكون كلنا ثم نحسّر هذه الافتراضية الجديدة التي ولدت من النموذج بالعودة للواقع ويمكن تصور العلاقة بين النموذج التحليلي والواقع على أنها علاقة حلزونية، إذ أننا نحسّس النموذج الافتراضي عن طريق معايشتنا لواقع ما وعن طريق تأملنا فيه وعن طريق قراءتنا وتحميصنا وبعد بحث النموذج بحمل فيه الأذهن والمكر لنولد علاقات افتراضية، نكتشفه وتصقله ثم نعود به إلى الواقع، فيغيره لنا. ولكن الواقع في كثير من الأحيان، يتحدى النموذج فيعطله ويريد من (نكتشفه وصقله). الحركة إذن من الواقع إلى العقل ومن العقل إلى الواقع، وأثناء هذه العملية الحلزونية يرداد النموذج التحليلي كثافة وحبوية أو مقدرة على التفسير تماماً كما فعل العالم الإسلامي، صاحب الثقافة والإبداع

٦ - النموذج المعرفي التحليلي هو استثمار مكثف منمنحة على الواقع، وهو كاستعارة يعبر عن جوهر الواقع كملاقات متشاكسة، دون أن يكون نصيباً به وحيداً بقول استعارة فحس لا يعني شيئاً خيالياً هبط علينا من القمر، وإنما نتحدث عن وسيلة لإدراك ما لا يمكن إدراكه بشكل مباشر نظراً لتراكيبه. وكما يعلم يصعب القرآن الكريم الله سبحانه وتعالى بأنه (ليس كمثله شيء) أي أنه لا توجد لغة يمكنها أن تساعدنا على إدراك كنه الله عز وجل. ولكن مع هذا ينقل القرآن الكريم مفهوم الله إلى عقل الإنسان القاصر عن طريق الاستعارة المركبة، (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) وبالله

من استعاره متروكة، ولكنها تعكس لعقل الإنسان القاصر فكرة اللامتناهي. ثم يطلق القرآن من هذه الاستعارة فيكتفها (المصاح في رجاجة، الرجاجة كأنها كوكب دري). وهكذا خرجنا من الاستعارة المتروكة المستقرة في عالم الحدود إلى استعارة أخرى تكاد تكون لا متناهية، عقل الإنسان حينما ينظر إلى الكوكب الندي، فإنه يشعر بالرهبة ولكن الرهبة هنا لا تزال رهبة أمام المعلوم، ولكنها مع هذا تصلح كاستعارة على الرهبة التي يمارسها الإنسان أمام الخالق. استعارة وحسب إذ يظل الله وحده هو اللامتناهي ثم بعد الإشارة إلى اللانهاية والإحياء به يعود مرة أخرى لعالم المألوف (يسوق من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية) لاولنا في عالم البور الإلهي، ولكننا انتقلنا من المشكاة إلى الكوكب ثم يعود إلى وفود المشكاة؛ إلى تلك الشجرة المباركة التي أخذ منها الزيت، ثم يصل إلى الزيت نفسه (يكاد زيتها يضيء ولو لم تحسبه نار) وهكذا ترداد الاستعارة كثافة بإصافة الأبعاد لها، ويردد تشتت مركزها بما يجعلها عن أي تجسد أو تشبيه ولا يمكن أن يدعى أنا يدرك الذات الإلهية إدراكاً كاملاً في نهاية الآية، فهو هر وحل ليس كمثل شئ، وإن كنا قد اقتربنا منه في إدراكنا بعض الشيء.

٧. الدعوة إلى التفكير المادحي، أي التفكير من خلال نماذج تخيلية والاعتماد على التفكير المضموني، هي أهم دعوة للاعتماد على الإصرار على مستوى حال من البقية، وأن يبحث عن مستوى من اليقينية في العلوم الإنسانية يختلف عنه في العلوم الطبيعية (ولعل الفكر المضموني هو نتاج العقلية العلمية بالمعنى الشائع للكلمة التي ترى أنه لا يمكن أن يصل إلى الحقيقة إلا عن طريق الملاحظة الامبريقية وبراكم المعطيات ثم التوصل إلى النتائج) مستوى اليقينية الذي يطرح له في دراسة لتاريخ المباسين أو لعلاقة الرومانبة بالصهيوبية مختلف عن مستوى اليقينية في دراسة عن تكوين الأرض في منطقة الرياض أو مسوب المياه الجوفية فيها فالعناصر المكونة لظاهرتين الأولىين عناصر مركبة، بعضها

مجهول لدينا، وربما قد يظل مجهولاً أمد الأبدى كما أن العلاقة بين عصر وآخر وتأثير الواحد في الآخر أمر صعب التحقق منه، ومن هنا كانت ضرورة المادج الافتراضية، ومن هنا أبغى البحث من مستوى خاص من البقية.

٨ - يمكن أن نؤكد في هذا الصمار أن الواقع الإنساني (أو التاريخي أو الاقتصادي) مكون من عناصر وأنساق مختلفة ليست مترابطة بشكل عضوي أو حتمي، إذ توجد بينهما مسافات فالعناصر الاقتصادية في مجتمع ما قد تكون فاعلة في وقت ما، بينما يمكن أن تكون العناصر المعنوية أكثر فعالية في وقت آخر، أي أنه لا يوجد أولوية سببية لأي عنصر علي وجه التحديد، وبشكل مسبق كما أنما يجب أن نؤكد أن العلاقة بين الفكر والسلوك وبين العناصر الفكرية والاجتماعية والعناصر الأخرى في المجتمع ليست علاقة سببية وإنما علاقة احتمالية، ولذا نجد أن بنية فكرية أو حضارية ما قد تؤدي إلى شيء ما وعكسه فالرومانية على سبيل المثال ساهمت في البعث الديني في أوروبا وفي بعث الإيمان بمكرة الجماعة العضوية المترابطة (كما يشافط)، على عكس المجتمع الحديث الذي تراه النظرية (الرومانية باعتباره مجتمعاً دوماً تعافدياً، الرابطة فيه حازجية وليست عضوية (جيبيلشامت) ولكن الرومانية أيضاً أفرزت العروبة المتطرفة واليهودية والصهيونية ومعظم التبريرات الفلسفية، الإمبريالية والنزعة الصناعية هي الأخرى قد أدت إلى ظهور نقيضين الفردي الكامل والجمعية المفرطة ونفس السبب نجد أن مجتمعاً عنصرياً مثل التجمع الصهيوني من الممكن أن يكون رومانسياً في رؤيته لنفسه وللعالمين، عملياً في سلوكه والمجتمع الباري مثل آخر على مجتمع نبي أسطورة عصرية ثم وظف العلم والتكنولوجيا لترجمة الأسطورة إلى حقيقة.

٩ - لعله بسبب وجود مسافة بين الفكر والممارسة، وبين المكرة والمكرة، يجب ألا نحكم على فكر سياسي كسبة فكرية محضة وإنما يجب أن نضع هذا الفكر في سياق أفكار أخرى وفي سياق الممارسات التي يقوم بها حاملو هذا الفكر ولتحجّل السق الفكرية الصهيونية باعتباره محاولة أيديولوجية لبعث التراث

اليهودي بن يهود المنفى وحسب، أو أن التجربة الصهيونية قد نُعدت هي أرض فراع في الأرجنتين كما كان مقررًا لها في بداية الأمر، بحيث يؤدي الاستيطان الصهيوني إلى حل مشكلة يهود شرق أوروبا وإلى ازدهار الاقتصاد الأرجنتيني دون طرد للسكان ونشره للملايين، وغارات تقلد السابالم على مسخيمات اللاجئين - دون حاجة إلي صابرا وشاتيل - أعتقد أن اعتراضنا عليها ما كان ليصبح بهذه الحدة. والفكر النازي إن قرأ بعزل عن الممارسة النازية فكر فومي رائع وقد كتب النازيون على أحد معسكرات الاعتقال: (إن العمل سيسحب الحرية) وهي ولاشك أفكار سامية لم يكن يشارك فيها المعتقلون الذين كانوا يعملون في نظام السخرة.

١٠- يجب ألا نحكم على سني فكري أو اجتماعي ما إلا بعد توصيفه وتصنيفه، ثم ننصرف بعد ذلك لإطلاق الأحكام القيمة. وحينما نفعل ذلك يجب أن نكون واهين بما نفعل وبأن التقويم يختلف عن الوصف. كما يجب أن نكون مدركين للمنظومة القيمية التي نطلق منه والفلسفة التي نصلر عنها، وأن نعرف أن الحكم القيمي هو في نهاية الأمر حكم يحوي داخله شرعيته، فإن كنت تحكم على الظاهرة من منظور إسلامي فأنت تفعل ذلك لأنك مؤمن بالإسلام، وبالتالي فمطلق الحكم (الديني) مختلف عن منطق الأشياء (الموصوفي). ونفعل هذا الموقف يمكننا نحن المسلمين من أن نفتتح على العالم دون أن نفقد هويتنا وقيمنا، إذ يمكننا، في هذه الحالة، أن أقوم بقراءة عمل أدبي ما فأنصفه وأحلله وأبين بنيته والصور المتواترة فيه ومعناه وارتباط شكله بمضمونه، بل يمكننا أن أبين مواطن الجمال فيه كعمل أدبي وأربطه بالتقاليد الأدبية التي يصلر عنها-أي أن أقوم بعمل كتنافد أدبي. ثم بعد أن أنتهي من المرحلة الأولى هذه أنتقل إلى المرحلة التقييمية التي أبحث فيها كمسلم وأرفض القيم التي وردت في العمل الذي قمت بتحليله وتوصيفه وتقييمه كتنافد أدبي. أرفضه كمسلم لأنه ربما يجسد قيما أخلاقية لا تتفق مع قيمتي الدينية. وسهلاً لن يضطر المسلم إلى رفض دراسة عمل ما أو ظاهرة ما لأنها

منافية للدين والأخلاق، وإنما سبيلها بموضوعة وحيادية ثم يقيسها من منظوره. وقد يقال إن في هذا تناقض مع الذات، ولكنني أرد قائلًا إن في هذه تقبل خفيفة أساسية وهي أن الواقع الإنساني مركب يستوي على بين متداخلة غير مترابطة. وحيث أنه لا توجد علاقة حتمية بين الجمال والخير والقيح والشر، فعلى أن نقبل تعدد البنيات فنصف ثم نقيم.

١١- وأخيراً يجب ألا نخجل من التعميم والأنا نصدق ما يقوله بعض النجريين والوضعيين (في العالم العربي أساساً) من أن التعميم والتجريد أمور يجب الاعتماد عنها بقدر المستطاع وأنهما يجب أن يستلذا إلى التجريب وحده وإلى ما يدرك بالحواس الخمسة وحسب. إن التجريد والتعميم أمور أساسية وضرورية للمكر الإنساني فنحن إن قلنا «أخلاقيات العالم العربي» أو «الرومانسية» أو حتي «الصهيونية» فإننا نكون قد فكرنا من خلال تعميمات واستحدثنا مقولات ليس لها أساس تجريبي ولا يمكن إدراكها بالحواس الخمسة وإنما توصلنا لها من خلال نماذج عقلية افتراضية تساعدنا على تصنيف معطيات الواقع، وهي مقولات لا يمكن أن يدرك العالم ومصفه وصره وتعامل معه دونها وبدون تعميم لا يمكن أن يكون هناك إبداع فمن خلال التعميم (وتجريد النماذج الكامنة) حصل إلى علاقات الأشياء كما ندرها نحن من خلال تجاربنا وحصل إلى تعريفات يمكن لتجاربنا التاريخية الخاصة أن تنضوي تحتها.

بل ويمكننا القول أنه بدون المقدرة على التعميم والتجريد الخلاق لا يمكن أن نحقق أي تحرر من الواقع المباشر، ووالهما العربي -أي حاضرا- ساهم الغرب في صياغته عن طريق سلعه ومعاييره وجيرشه وإذا استمر الآخرون في القيام بعملية التعميم بالبابية هنا، من خلال تجاربهم هم ومن خلال إدراكهم، فإنهم سيقفون علينا بمقولاتهم جاهزة إما أن نقبلها فنخضع لرؤيتهم أو نرفضها فنكتف في مهبط ربح التفاصيل المتناثرة - وهذا ما أشرنا له في المقدمة بعبارة «إمبريالية المقولات»

ومن أهم الأمثلة على ما نقول تعريف كلمة «قومية» أو «أمة» كما هو شائع في

العلوم الاجتماعية هذا التعريف ناتج عن التشكيل الحضاري العربي في القرن التاسع عشر، أفرزته الحصارية الثغورية الصناعية الرأسمالية (والاشتراكية) بعد قرون من الحروب بين كل دول ومقاطعات أوروبا، وأعقب تسببه عدة حروب صغيرة وحربان عالميتان غمت كلهما في إطار هذا المفهوم وقد صُدر لما -ولكل دول آسيا وأفريقيا- هذا التعريف. وبدأنا نحكم على أنفسنا وعلى تجزئتنا الحصارية من منظوره بل وبدأ بعضنا يتحدث عن «الشعوب العربية» أو عن «الشعوب المتحدثة بالعربية» باعتبار أننا لسنا أمة ولكنهم يقولون في واقع الأمر أننا لسنا أمة بالمعنى العربي لذلك الذي جرى تجزيده من البيئة السياسية الثغرية في القرون التاسع عشر والعشرين.

لكل هذا يجب ألا نمرض التعميم بل وأن نصر عليه، على أن يكون متطابقاً مع كل التجارب التاريخية والحصارية في الشرق والغرب بل ويمكن أن يكون التعميم مؤقفاً وهو أمر مقبول طالما أنه يفسر جوانب من الواقع، وهو ما يسمى بالتعريف الاجرائي - أي تعريف قادر على تفسير جوانب عامة من الظاهرة ولكنه لا يدهي أنه تعريف جامع مانع.

إن ما يجب أن يحدد موقفنا ليس هو مدى دقة التعميم أو مدى تطابقه مع الواقع بشكل محدد، وإنما مدى مقدرته التفسيرية وملاءمته للمستوى التحليلي الذي اختاره الباحث لنفسه - أي مدى ملاءمته للواقع الذي يجسري تفسيره. فلو كان الحديث عن معدل الجريمة في مدينة المانية في القرن التاسع عشر فإن المستوى التحليلي لا يسمح بالحديث عن الحصارية العربية إلا كمصغر واحد من بين عناصر أكثر خصوصية ومباشرة. ولكن لو كان الحديث عن أمة المجتمع الحديث فإن الحصارية العربية تصبح مقولة أساسية ومستوى تعميمياً مقبولاً لأنه يتفق مع المستوى التحليلي، أي أن مستوى التجريد لابد وأن يتطابق مع المستوى التحليلي وهذا في تصورها هو مشكلة التبوية الأساسية، فهي تصل إلى مستوى تجريدي عال وتصل إلى بيات تشبه البيات الرياضية، ثم تطبقها على كل النصوص والظواهر

بعض الظر عن المستوى التحليلي، ولذا فهي غير قادرة على التعامل مع خصوصية الأعمال الأدبية ولا مع تاريخية الظواهر الاجتماعية، وتظل صالحة في الثنائيات المتعارضة وبحس لا ينكر لها جدوى المستوى التجريدي العالي، مهم يبلغ ارتفاعه، ولكن يرى عدم جدواه بالنسبة لمستويات تحليلية تكون خصوصية الظاهرة وتاريخيتها أكثر أهمية من جوانبها العامة التي تشترك فيها مع ظواهر أخرى فقد قال الرسول ﷺ (لا فصل لعربي هلي هجمي إلا بالتقوى) فهو يؤكد تساوي كل البشر وإنسانيتهم المشتركة، وهنا تصبح التقوى مقياساً واحداً ينطبق عليهم كلهم هي كل زمان ومكان ولكنه مع هذا أكد هوية كل، وهي هوية لها خصوصيتها وتاريخيتها فتوجه للعربي وللعجمي ولم يطلب من أي منهما التنازل عن هذه الهوية وإنما اعترف بها بأن توجه لها.

٢- الادراك والمقدرة التنبؤية للنموذج

يمكس القول أنه كلما ازداد النموذج إحاطة بجوانب الظواهر وأبعادها المختلفة، أي كلما ازداد تركيبية، زادت مقدرته التفسيرية والتنبؤية. ونحن نرى أن استرداد العامل الإنساني (بدوافعه ورواه وذاكراته وأحزانه وأفراحه ومصالحه ومصالحته الحقيقية والمتخيلة) هي أهم عناصر التركيب، ومن ثم أهم العناصر في زيادة المقدرة التنبؤية للنموذج. وقد يكون من المفيد أن أضرب مثلاً بمحاولة سابقة قمت بها في محاولة رصد الواقع من خلال نموذج مركب وكيف أن زيادة للتركيب تؤدي إلى زيادة المقدرة التفسيرية والتنبؤية. فقد نشرت في جريدة الرياض (المملكة العربية السعودية) مقالاً بعنوان "إلقاء الحجارة في الضمة الغربية" وذلك في ٢٤ فبراير ١٩٨٤. وقد تبأت في هذا المقال بأن استخدام الحجارة سيكون أحد أشكال التضامن الأساسية. والواقع أنني توصلت إلى هذه النتيجة بعد صياغة نموذج مركب يسترجع العامل الإنساني الإسرائيلي والعامل الإنساني العربي وإدراك كل مسهما للواقع. فبدأته بالإشارة إلى الوهم الإسرائيلي الذي يستند إلى الرؤية المادية بأن المقاومة قد اجتثت تماماً من جذورها، وأن هناك علامات وقرائن على ما سماه الحبرال بنيامين بن إليعازر (منظم الأنشطة في الضمة الغربية وحاكمها العسكري) "الاتجاه المتعدد أو الجذر نحو البرجماتية" والذي يعني في نهاية الأمر "التكيف مع الأمر الواقع وتقبله" (الجيروصالييم بوست ١٤ نوفمبر ١٩٨٣). وقد رأى الجبرال إمكانية تقوية هذا الاتجاه عن طريق إنشاء عدد أكبر من البؤك والشركات الاستثمارية، أي عن طريق إشباع الحاجات الاقتصادية لدى العرب وإغراق هويتهم، الأمر الذي يؤدي إلى استغرائهم فكرياً في أمور الدنيا والمال بدلاً من قضيليا الوطن والأرض والهوية!

ولم تكن الولايات المتحدة بعيدة عن هذا الاتجاه التظيحي البرجماتي، فقد قامت الولايات المتحدة (كما أذكر في المقال) بمد يد المساعدة إلى الجنرال الإسرائيلي المذكور، فدُعي إلى الولايات المتحدة ليجتمع مع وزير الخارجية الأمريكية و كبار موظفي الوزارة لبحث معهم كيف يمكن تحسين مستوى معيشة العرب في الأرض

المحتلة (أي مريد من البوك) وكيف يمكن للولايات المتحدة أن تساهم في التخفيف من حدة بعض جوانب الاحتلال الإسرائيلي عن طريق المساعدات الفنية والمالية.

وبعد أن عرّضت للرؤية الصهيونية المادية الاحتالية للعرب، حاولت أن أحلّد الحالة المقدسة والنصبة للصهيانية والأهداف المحددة التي يرمون إلى إشباعها، فوصفت الاستعمار الصهيوني بأنه استعمار استيطاني إحتلالي لا يود استقلالنا أو استغلال مواردنا الطبيعية وحسب (كما كان الحال مع الاستعمار الإنجليزي في مصر) وإنما يرمي إلى ما يلي :

١ - استلاب الأرض -

٢ - العيش فيها بنعم براحة البال والهدوء -

٣ - كما أنه يود أن يسلبنا أسباب الحياة والاستمرار حتى نرحل من الأرض ليحل محلنا فيها -

والمنشيطون الصهيانية، هي نصوصاً، هم أساساً مرفقة، ولكن بينما كان القدامى منهم على استعداد لتحمل شظف العيش وإرجاء الإشباع وانتظار المكافأة المادية المؤجلة، نجد أن المنشيطين الجدد، مع تزايد معدلات العلمنة، يصرون على تحقيق مستويات معيشية وأمنية عالية عاجلة دون تأجيل. وبدأ، فإن المنظمة الصهيونية تدفع لهم الرشاوي الباهظة على هيئة منازل مريحة وطرق ممتدة حصصاً لهم ومدارس لأطفالهم وحراسة مشددة حتى يتعمروا بالعيش في هواء «أرض الميعاد المكيف» إن النموذج الإدراكي للصهيانية نموذج إلى احتلالي مادي، وبالتالي كانت رؤيتهم للعرب ولأصصهم آلية استنزالية مادية

في مقابل ذلك، رصدت موقف العرب فلاحظت أنهم يرفضون الاستيعاب للمودع الاحتلالي المادي الذي يطس عليهم وقد لاحظ الجراد بن البمارق معه أن العرب يلعون بالهجاء على الإسرائيليين، وصرح جريدة معاوية (١٤ نوفمبر ١٩٨٣) من قرار بوضع حد لظاهرة إلقاء الحجارة ثم بعد يومين اتين، اصطحبت

الجنرال الإسرائيلي البرجماني أحد مؤسسي روابط القرى لافتتاح مبنى بلدية جديد في إحدى مدن الضفة . ولكن الجماهير الفلسطينية العتيدة لم تبتد أي برجمانية أو اعتدال أو تقبل للقانون الطبيعي المادي ، ولم تقابل بأبطال البتوك والاستثمارات بالزهور وإنما بالحجارة (الجحور وساليم بوست ١٦ نوفمبر ١٩٨٣) . وقد أشرت في المقال إلى وقائع عديدة أخرى عن إلقاء الحجارة أدت إلى غضب المستوطنين الصهاينة وإلى مطالبتهم الجيش الإسرائيلي بالتدخل لوضع حد لهذه الظاهرة . بل إن رئيس وزراء الكيان الصهيوني (كما ورد في الجحور وساليم بوست ٢٤ يناير ١٩٨٤) اجتمع مع عضوي الكنيست من كتلة هتيا وأخبرهما أن إلقاء الحجارة من أسباب قلقه العميق ووعد بأن يدرس القضية شخصياً .

بعد أن رصدت ما تصورته النموذج الإدراكي للفلسطينيين العرب وتصورهم لأنفسهم ، حاولت أن أرصد إدراكهم لحالة الإسرائيليين النفسية والعقلية ولنموذجهم الإدراكي ، فقلت بالحرف الواحد : " إن مواطني الضفة الغربية أدركوا أن كل ما يتفصل على المستوطنين (مكيئي الهواء) حياتهم هو في نهاية الأمر إحتياط للمخطط الصهيوني " ، ومن هنا أصبح إلقاء الحجارة سلاحاً أساسياً في الضفة الغربية . وقد تنبأت في المقال ذاته أن هذا السلاح ، رغم ضعفه ويدائته ، قد أصبح سلاحاً فعالاً سيتزايد في أهميته .

والواقع أنني قد وصلت إلى ما توصلت إليه من نتائج لا من خلال عملية رصد خارجية لأحداث لا معنى لها تتم على مساحة وإنما من خلال مراقبتي لبشر لهم رؤية محددة تحدد استجاباتهم وثقافتهم وبالتالي سلوكهم . فالصهيوني الذي يحاول أن يرفع مستوى معيشة العرب ، حتى ينسوا الوطن والهوية ، هو نفسه الذي يؤد أن يتمتع بحمام السباحة في المستوطنة والذي يصير على مستويات عالية من الراحة والمتعة . والعربي الذي يرفض الانصياع للرؤية البرجمانية التي تؤد تطبيعها وتدجينه هو نفسه القادر على أن يدرك التآكل الداخلي للمستوطنين ومحولهم إلى شخصيات شرهة مستهلكة غير منتجة . من هنا الحجير الذي لا يقتل ولكنه يعكر صفو المستوطنين ويسقط معنى حياتهم . ومن هنا كانت الانتفاضة . والله أعلم .

* المؤلف * *

الدكتور عبد الوهاب المسيري مؤلف عربي معني بالحضارة العربية الحديثة ويشتمل أعضاء الجماعات اليهودية في العالم وبالفكر الإسلامي.

ولد في دمشق (البحيرة) عام ١٩٣٨ ويعمل أستاذاً غير مفرغ للأدب الإنجليزي والمقارن بجامعة عين شمس (كلية البنات).

له عدة دراسات في الصهيونية وتاريخ الحضارة والتقاليد الأدبي من أهمها :

• نهاية التاريخ ، مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني (القاهرة ، ١٩٧١).

• الأيديولوجية الصهيونية : دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة (الكويت ١٩٨٨)

• الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية : دراسة في الإدراك والكرامة (القاهرة

(١٩٩٠

• هجرة اليهود السوفيت : منهج في الرصد وتحليل المعلومات (القاهرة ١٩٩٠)

• الجمعيات السرية في العالم (البروتوكولات - الماسونية - البهائية) (القاهرة ١٩٩٣)

• العصر الفلسطيني : مختارات مزدوجة اللغة من شعر المقاومة الفلسطينية

(واشنطن ١٩٨٨)

• الفردوس الأزقي : دراسات وإنطباعات في الحضارة الأمريكية الحديثة (بيروت

(١٩٧٩

• الشعر الرومانتيكي الإنجليزي : النصوص الأساسية وبعض الدراسات النقدية (بيروت

(١٩٧٩

• إشكالية التحيز (جزآن) (القاهرة ١٩٩٥)

وله العديد من المقالات في الشعر الإنجليزي والأمريكي والأدب المقارن والحضارة

العربية الحديثة والصراع العربي الإسرائيلي. وسيصدر له في مطلع عام ١٩٩٦ العمل

الذي عكف على إنجازه منذ خمسة وعشرين عاماً : موسوعة اليهود واليهودية

والصهيونية ، نموذج تفسيري وتصنيفي جديد (سبعة أجزاء) ، كما سيصدر له في

خريف عام ١٩٩٦ كتاب من ثلاث أجزاء بعنوان مقدمة لتفكيك الخطاب العلماني.

٣	مقدمة: في الإدراك والسلوك والتعبية الإدراكية
٢٥	الفصل الأول: في الإدراك الصهيوني للعرب
٢٧	١ - من العربي المتخلف إلى العربي الغائب
٥٠	٢ - الاستجابة الصهيونية للعربي الحقيقي
٦٧	الفصل الثاني: في الإدراك الإسرائيلي للعرب
٦٩	١ - الإدراك الإسرائيلي للعرب
٨٣	٢ - الإدراك الإسرائيلي للدولة الفلسطينية
٩٢	٣ - الإدراك الإسرائيلي للانتفاضة
١١١	الفصل الثالث: في الإدراك الغربي لليهود
١١٣	١ - اليهودي كمعصر نافع داخل الحضارة الغربية
١٣٤	٢ - اليهودي كمسلم في أفران النار
١٣٨	٣ - الإدراك النازي لفهوم الحكم الذاتي
١٤٢	٤ - الإدراك الغربي والصهيوني لحروب الفرنجة (الصليبيين)
١٥٣	الفصل الرابع: في تفكيك الإدراك الصهيوني
١٥٥	١ - العداء لليهود: تفكيك وتركيب ثلاث حالات
١٧٣	٢ - الصهيونية والرومانسية: إعادة التفكير في طرق التفكير
١٩٢	٣ - الادراك والمقدرة التنبئية للنموذج

هذه الكتب

لا يمكن دراسة الظواهر الإنسانية كما تدرس الظواهر الطبيعية، ولا يمكن أن
تسجل سلوك الإنسان كفرد أو كجماعة كما تسجل سلوك وجماعات النحل
والتسل. وهذا يعود إلي أن الإنسان لا يسلك كرد فعل للواقع المادي بشكل مباشر،
ولما كرد فعل للواقع كما يدركه هو، من خلال مصلحته كما يدركها هو، ومن
خلال ما يسقطه علي هذا الواقع من أفراس وأشواق ومعان ورموز
وذكرات. ولكن كثيراً من الدارسين في تحليلهم للصهيونية (والخضارة الغربية)
أسقطوا بُعد الإدراك من حسابهم، وبالتالي أسقطوا خصوصية الظواهر الصهيونية
فسقطوا في التعميم للحل.

وهذا الكتاب يحاول أن يلتقي الضوء علي هذه القضية المركبة من خلال وقائع
محددة، فيتناول الفصل الأول والثاني الإدراك الصهيوني والاسرائيلي للمغرب،
ومحاولة تجريدهم وتغييرهم لتصبح فلسطين «أرضاً بلا شعب». كما يقدم
الفصلان أمثلة مختلفة عن إدراك الصهاينة للمقاومة العربية وإدراك الإسرائيليين
للدولة الفلسطينية وللانتفاضة. ويتناول الفصل الثالث بعض جوانب الإدراك
الغربي لليهود باعتبارهم عنصرأ نافعاً يمكن نقله وتوظيفه والاستفادة منه، وللدولة
الصهيونية باعتبارها أداة نافعة تخدم المصالح الغربية نظير أن يقوم الغرب بدعمها
و ضمان بقائها. كما يتناول هذا الفصل التصور النازي لقضية الحكم الذاتي ومدي
تأثر الصهاينة به، وإدراك العالم الغربي والصهاينة لحروب الفرنجة (الصليبيين).
أما الفصل الرابع والآخر فيقدم دراسة لعدة حالات (تهمة الدم - واقعة دريفوس
- حادثة ليفرانتك - علاقة الصهيونية بالرومانسية) بهدف تفكيك الإدراك
الصهيوني، وتوضيح أبعاده. ويثير المؤلف في ثنايا الكتاب، وفي مقدمته ونهايته،
بعض القضايا المنهجية مثل: أهمية التجريد - حتمية التعميم - التعمية الإدراكية -
أهمية استخدام النماذج التحليلية .

دار الحسام

ص.ب ٥١ الغورية - القاهرة